الزاد التربوي

إحياء قلوب السائرين

في دروب الفاتحين

دراسة تأملية في نصوص الوحي، ومعالجة تربوية للسلوك الحركي

د. رأفت محمد رائف المصري

المشرف العام على مؤسسة مدارج

تصميم

Bubbles media

نبتكر الأفكار الإبداعية

00962780228653



بين يدي الطريق

كما في كلِّ طريق؛ تَعْتَوِرُ الآفاتُ السير، وتَحجب السائرَ عن المواصلةِ بعضُ الحُجُب، وقد تعترضُ العوائقُ مُضِيَّه؛ فيهلِك دون الوصول أو قد يتأخر وصوله تأخراً مخلّاً!

والسائر في طريقِ الله إلى القدس وإلى البلوغ بالأمة إلى حيث التمكينُ معرّضٌ للآفات، ومبتلىً بأنواع من الابتلاءات:

- بعضها متعلِّقٌ بمعركته بكل صورها وعلى كل صُعُدها مع العدوِّ المحتل ومع أعداء الأمة.
- وبعضها الآخر متعلِّق بمعركته مع نفسه؛ باعتبار تداخلات النفس ووساوس الشيطان.
- وبعضٌ متعلِّقٌ بالطريق نفسها؛ باعتبار الاجتماع وما يعتور الاجتماع من أمراض معروفة لكل من عرف العمل الجماعي الذي تقتضيه الحياة البشرية على الأرض!

قد تعجب إذا قلت لك: إن أسهل هذه المعارك على الإطلاق: المعركة مع العدو المحتلِّ! وسهولتُها مستمدةٌ من كون النفس مستعدةً لخوض المعركة، ومهيأةً لاحتمال الأذى، ومشتاقةً إلى التضحية والبذل في النفس والمال والعمُر!

ثم إن المجاهد في ساحاتها مأجور- ما بذل وسعه- مهما كانت النتائج؛ فإن انتصر فذلك ما يبغيه ويرجوه: أن يرفع راية الإسلام وأن يحرر أرض الإسلام، وأن يشنَّ حملة الجهاد المقدس على أعداء الإسلام، وإن قُتِل؛ فتلك الشهادة وهي أسمى غايات السائرين، وذروة سنام الدين: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ التوبة [52]، لا ثالث ثمة؛ إما النصر أو الشهادة، وكلاهما مرغوب مطلوب لمن نظر بنور الله.

وبحْثُ حيثيات هذه المعركة ليس مقصودَنا من هذا الكتاب، أما الناحيتان الأخريان؛ المعركة مع النفس والشيطان، والأخرى المتعلقة بعوائق الطريق التي هي من طبيعتها باعتبار الاجتماع؛ فهما المعركتان حقاً!

ووجه ذلك: أن دفاعات النفس لا تتصدَّى لها بخلاف معركتها مع أعدائها المحتلين، وإنما تتسلَّل الى القلوب فتفسدها من غير شعور أصحابها إذ هي بعيدة عن الرصد!

ولا ينجو من هذا المزلق الخطر إلا ذو بصيرة أتقن التفتيش في عيوب النفس ودأَبَ على ملاحظة حركات القلب، وأقام على منزلة المراقبة التي لا تُغادر حركةً أو سَكَنَةً في القلب إلا رصدتها، لينتقل بها بعد ذلك إلى المحاسبة الدقيقة الحازمة، ثم المعالجة الإجرائية والتنفيذ العملي للإصلاح والتعديل.

ما ورد- مثلاً- عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنه في وصف تسلُّل الرياء إلى القلوب؛ يُعين على فهم هذه القضية؛ إذ قالت إنه: «أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء» [1]، هذا مثالٌ تصويريٌّ بليغ يدلُّ على مستوى الجهد المطلوب لحماية القلب من هذه الآفات الخفية.

واحفِل بهذه النصيحة الدافئة من المحاسبي:

«فاعرف يَا أخي نَفسك وتفقد أحوالها وابحث عَن عقد ضميرها بعناية مِنْك وشفقة مِنْك عَلَيْهَا مَخَافَة تلفها، فليس لك نفس غيرها، فإن هلَكت فهي الطامة الكبرى والداهية العظمى، فأَحِدَّ النّظر إليها يا أخي بعين نافذة البصر حديدة النّظر، حتى تعرف آفاتِ عملِها وفسادَ ضميرها، وتعرف ما يتحرَّك به لسانها، ثمَّ خُذ بعنان هواها، فاكبحها بحكمة الخوف وصدق الخْلاف عليها [2]، ورُدَّها بجميل الرِّفق إلى مراجعة الإخلاص في عملها وتصحيح الإرادة في ضميرها وصدق المنطق في لفظها واستقامة النِّيَّة في قلبها...» [3]!

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (ج2/ ص319/ ح3148)، وهو ضعيف، وفي الأدب المفرد للبخاري (ص250/ ح716): عن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ) وهو صحيح.

(2) بمعنى: أن تصدق بمخالفة هوى النفس، ولا تطعها؛ فإنها أمارة بالسوء!

(3) آداب النفوس للمحاسبي، 42.

ولا يتوقف الضرر عند فساد القلوب وكفى، بل فسادُها ينعكس على واقع العمل ومقدار الإنجاز وضياع الأهداف واستنزاف الجهود وتكدير جوِّ العمل ونزعِ البركة منه!

وكذلك الأمر فيما يتعلق بإخْوَة الطريق وشركاءِ القضية؛ فالنفس مهيَّأة لتحمّل أذى أعدائها، مُوَطَّنة على مواجهتهم على أعلى مستويات المواجهة، في حين أنها لا تتوقَّع الأذى من إخوة الطريق الذين يُفترض بهم المؤازرة والمشاركة: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝٣٢﴾ طه [31-32]، فإذا جاءها ما يؤذيها ممن يُرجى منهم التأييد شُدهت وأُحبطت وكَلَّتْ ومَلَّتْ، واشتكتْ مُرَّ الشكوى!

وقد يتعادى الإخوة وتتسع بينهم الفجوة، ويسوِّل الشيطان لكلٍّ من الفرقاء سبباً وجيهاً في التعادي؛ إنْ في تدارؤِ اتهامات الانحراف عن المنهج، أو بتأويل دينيٍّ محض، أو بحجة مصلحة العمل!

لسنا نقصد في هذا التقديم إلى التعجُّل في التوصيف وتقديم الحلول، وإنما نُشير إلى مدار التحدي، ومنعطفات الطريق ليستعدَّ السائر بادئ بدء وليهيئ نفسه!

قد يطــول الكــلام كثيراً لو أردنا استقصــاء ما يتعلق بهذه الأبواب الخطيرة، حسبنا أن نشير أهم الإشارات ونثير ذهن السائر إلى مفاتيح المعالجات؛ ليتيسر المضيُّ ويجدَّ السير ويكثر الإنجاز وتتحقق الأهداف، ويحصل الثواب بإذن الله.

كتبــت قبل حين كتاب «زاد الفاتحين» الــذي استهـدف الإسهــام في صناعة رؤية موحدة للعاملين لأجل القدس، واحتوى الكتاب على ستة أنواع من الزاد الذي يلزم السائر: الزاد الفكري والفلسفي، والزاد العقدي، والزاد المفاهيمي، والزاد التربوي والإيماني، والزاد الجدلي، والزاد الإستراتيجي، وبعد طباعة الكتاب وما لقيَه من تفاعل في أوساط العاملين لأجل القدس وما دار حول مضامينه من نقاشات ومدارسات خلَصتُ- وقد نشرتُ ذلك في تغريدة على حسابي في تويتر- إلى أن الزاد التربوي والإيماني هو أهمُّ زاد يجب على السائر أن يتزود به، ويلزمه أن يلزمَه طولَ حياته حتى الممات!

أصدقكم القول أيها الإخوة الكرام:

إن أخطر زادٍ يفتقر إليه السائر في طريق الفتح هو الزاد التربوي والإيــماني، وكل زادٍ دونه جلل [4]، وأضرارُ الإخلال به مدمِّرةٌ في الدنيــا

(4) الجلل الكثير والكبير، ولكن يحمل في مثل هذه العبارات معنى: القليل والصغير، كما مفردات ألفاظ القرآن عند عرض جذر هذه الكلمة.

قبل الآخرة، فإن من شأنها أن تمحقَ بركة العمل وتعكِّر الصفو بين العاملين، وتمزِّق نسيج الفريق، وتشعلَ الفتن والمماحكات التي تحرقُ الحسنات وتشتِّتُ الهمَّ وتضيِّع الهدف وتبطِّئ الإنجاز!

ولَّما كتبتُ كتاب «واسجد واقترب» أشرتُ في مقدمة الكتاب إلى ضرورة التراجع خطوة لتقييم «علاقتنا الحذرة» بعلم التصوف، وليأذن لي القارئ بنقل الفقرة نفسها:

«لقد أثَّرتْ عوامل متعددة في تشويه «التربية الصوفية» السُّنيّة المتبعة لا المبتدعة، لقد شوّهتها وحاربتها دعوات مناوئة قد بانُ عُوارها إذ اصطلمتها المحكَّات، وشوَّهتها الممارسة الصوفية ذاتها في بعض منتسبيها واتجاهاتها ورموزها، حتى لقد صار ذكر «التصوف» أمراً يدعو إلى الاتهام، وكأن الذاكر له قد أتى بما «يُمرق» من الدين! ففقدنا جانباً مهماً في تربيتنا الدعوية لشباب الإسلام في العصر الحديث، وهذا الاختلال التربوي خطير جدُّ خطير؛ لما أن من شأنه أن يُصدِّرَ نماذج شائهة من الذين يمارسون الدعوة؛ بلا أساس تربوي يحفظ عليهم إيمانهم نفسَه بهذه الدعوة وثباتَهم عليها أمام الفتن والمغريات وعوائق الطريق! أو يمارسونها بجفاف روحيٍّ يذهب ببريقها ويُظمئ السائر، ويورث التخالف وتخلل الهوى والاختلال بأمراض القلوب!

إننا بحاجة فعلاً إلى إعادة تقييم موقفنا من التربية الصوفية الحقة، التي لا تترك الاتباع إلى الابتداع؛ على منهج الحسن البصري والتستري والجنيد والغزالي وعبد القادر الكيلاني وابن القيم رحمهم الله ورضي عنهم وأجزل عنا مثوبتهم، صوفيةٌ حركية لا تهرب من مواجهة استحقاقات الإسلام إلى الاسترواح بمجالس الذكر، ولا تهرب من مواجهة الظلم إلى الاستغراق بخلوات الفِكر، ولا تتركُ الدنيا لمن يفسد علينا الدنيا والدين معاً»[5]!

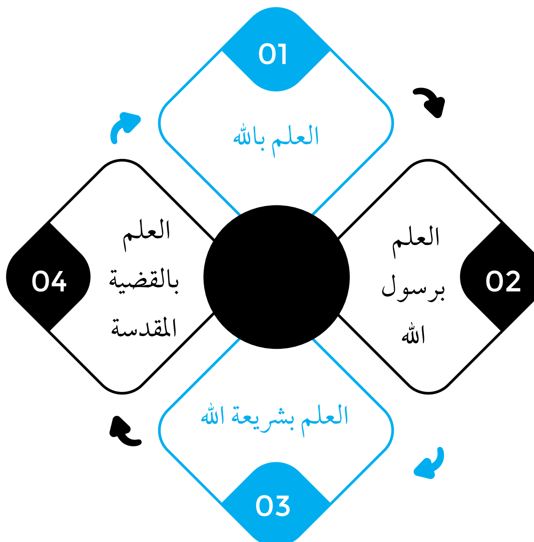
فلنفرد هذا المصنف لاستعراض محطاتٍ مهمةٍ ههنا، نُسهِم من خلالها بتصويب المسلك، أو بلفت الأنظار، أو بوضع الحلول، أو بتشخيص الأمراض على الأقل؛ فإن معرفة المرض وتشخيصَه أولُ خطوات العلاج! وقد جاءت العنوانات في الكتاب تحت عنوانات: «منازل» ينزل بها القارئون السائرون، يتذوَّقونها وتَسِيحُ أرواحهم في أرجائها، يتأمَّلون فيها باقةَ النصوص العلْويَّة، وتخضع قلوبهم لجواذب القرآن القدسية، وتنزجر عيوبهم بزواجر التربية الربانية:

(5) واسجد واقترب، ص11.

- كشاف الطريق وزاد ما قبل السلوك، وقد استعرضت لاحقاً له:
  - موقع القلوب في طريق الفتح.
  - من بطن الألم تولد فرص النهوض.
  - دور العلماء الربانيين في إحياء علوم الدين واستنبات جيل التحرير. (الغزالي والجيلاني كنموذجين).
  - ترقي السائر في منازل الإيمان.
  - التزكية بين صناعات ثلاث.

- ثم انتقلت بعد ذلك إلى المنازل، أصفُ ما أراه فيها، وآخذ بيد القارئ لمطالعة إشكالات الميدان:

المنزلة الأولى: العلم والفهم



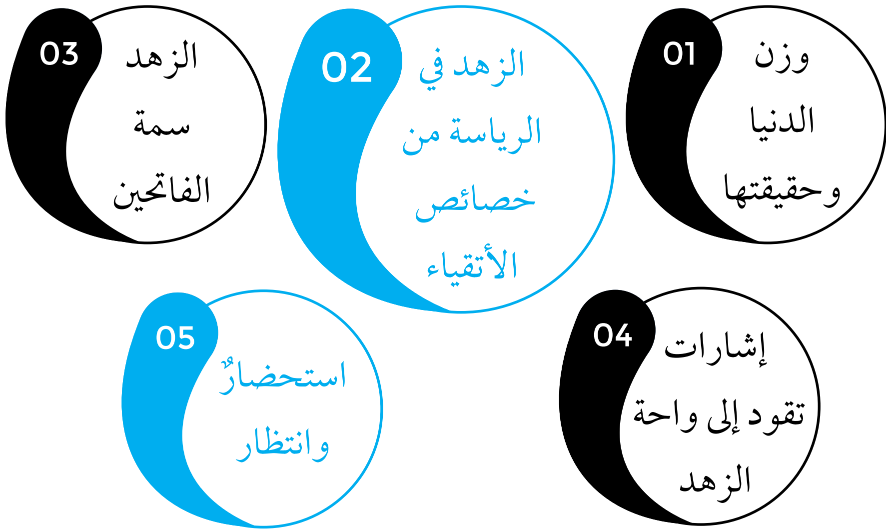
المنزلة الثانية: الإخلاص



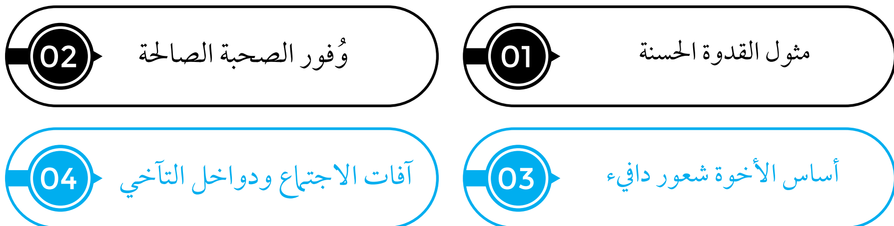
المنزلة الثالثة: التحقق بالعبودية والأنس بالطاعة



المنزلة الرابعة: التعلق بالآخرة والزهد في الدنيا



المنزلة الخامسة: القدوة الحسنة والصحبة الصالحة



ثم ختمت الجولة بخاتمة قصيرة أُشير فيها إلى الخلاصات والانطباعات والتوصيات.

هذا، وأسأل الله تعالى أن ينفعني أولاً بما أودعته في هذ الكتاب، وأن يجعله حجة لي بين يديه، وأن يتقبله إسهاماً في ترشيد سير السائرين، إنه الكريم الرحيم.

شنَّتْ أوروبا الصليبية أشرس حملاتها على بلاد المسلمين، واستقوت بباطلها على حقهم، وبضلالها على هداهم، وبظلمها على عدالة دعوتهم، ومَضَتِ الحملات الصليبية تنهشُ لحوم المسلمين وبلادهم حتى احتُلَّت القدس سنة 492 هـ؛ تلك السنةُ الدامية التي شهدتْ سيلَ دماء المسلمين في شوارع القدس وأزقتها، وفي غيرها من بلاد الشام والعراق وما حولها، ونجحت أوروبا الظالمةُ في زراعة كياناتٍ من الممالك والإمارات الصليبية في الأرجاء؛ تُشاغِلُ المسلمين وتستنزف قُوَاهم، وتتوسع شيئاً فشيئاً على حساب سلطانهم!

استُبيحت المدينة المقدسة، وانتُهكت فيها كلُّ الحُرُمات والمحرَّمات، وارتفع على عنوان التوحيد فيها- المسجد الأقصى-: «صليبُ الصلبوت»، ومُنعَتِ الجمع والجماعات، وتحولت المساجد فيها إلى حظائر للخنازير!

لكن:

ما كان لكل هذا أن يحدث لولا أن هناك دَوَاءٍ حلَّتْ بالمسلمين! ما الذي حلَّ بالأمة الفاتحة التي طرقت أصقاع الأرض بصيحات التكبير، ودكَّتْ قلاعَ الباطلِ بمجانيق الحق؟ أيُّ كارثة دهتْهم حتى صاروا نهباً

للأمم من حولهم؛ يتداعون عليها كما تتداعى الأكلة على قصعتها؟ هل توقفت أرحام النساء عن إنجاب الأبطال والقادة العظام؟ أم فقُروا حتى لم يملكوا ما يدفعون به عن أنفسهم صولة الكلاب الضارية؟

أين رُشدُ الراشـدين؟ وأين حنكـة الأمـويين؟ أين بغـداد الرشـيد العباسي؟ وأين جيش المعتصم الأبيّ؟ وأين أحفاد عليٍّ خالد والمثنى والقعقاع بن عمرو؟ أين هم حتى لا يُرى لهم أثر ولا يُسمع لهم صوت؟ إلَّا نحيبٌ من هنا وهناك؛ يَبكي مجداً ضائعاً وعِزاً غابراً؛ وآهاتٌ وأنفاسٌ تتْرا تَرُدُّ على أنين الثكالى، وأشلاءُ أطفالٍ اجتاحت قلوبَهم جيوشُ الغدرِ المدججةُ بالحقد على الإسلام وأهله!
ما مِن فقر ثمةَ ولا قلة!

فالكـارثة لم تكن إلا فسـاداً نخر القلوب، وعمىً أصاب البصائر، وزخرفاً خطف الأبصار، وشجنَ موسيقى القصور الذي أصمَّ الآذان، وشحّاً مطاعاً وهوىً متبعاً، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه!

- فالساسة لا وقت لديهم للنظر في شؤون الأمة ومصالحها، فقد أشغلَهم رقصُ الجواري وضربُ الدفوف، وأتعبهم دهْقُ كؤوس الخمر في الليالي الحمراء، فإن استيقظوا من سكرتهم ففي الكيـد لإخـوانهم في الإمـارات

القرية المتناحرة، حتى إن استدعى ذلك الاستنصارَ بالصليبيين الطامحين في احتلال البلاد!

◆ والعلماء مشغولون في الكدِّ لأجل الوظائف الرسمية في الإفتاء والقضاء، والكيِّسُ منهم مَن كان نديماً للسلطان؛ يُسلِّيه بقصص الأدباء ونوادر العقلاء، متنبهاً أو قل: شديد الانتباه لعدم إفساد مزاج السلطان بتذكيره بواجبه تجاه المسلمين، أو إقلاقه بتحذيره من وقوف جيوش الصليبيين على أبواب إمبراطوريته الوادعة!

◆ والشعراءُ والأدباءُ يَكِيلُون المديحَ للأمراء على ما فعلوا وعلى ما لم يفعلوا، ويُشيدون ببطولاتهم الخياليةِ وأوصافِهم الأسطورية، ثم يعتاشون على ما تَجود به نفوسُ الأمراء من «بيت مال المسلمين»؛ وأما العطاء؛ فعلى حسب القدرة على المبالغة في الكذب والتزيُّدِ في الإطراء!

◆ أما العوامُّ فأكثرهم من الرَّعاع؛ لا هَمَّ لهم إلا تحصيلُ اللقمة والسعيُ وراء الشهوة، مخدوعون لأمرائهم، مصفِّقون حيث طُلب منهم التصفيق وحيث لم يُطلب، وقد يمزجونه بالتصفير والتصويت لأمراء الإذلال ورؤوس الإضلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله الكبير المتعال.

على مثل هذا الواقع وطئ الصليبيون.. ولو لم يكن كذلك ما استطاعوا الوطء!

وكان بعض النابهين والموفقين قد دقُّوا نواقيس الخطر قبل حُلول الغزاة بديار المسلمين، ونادَوا عليهم بضرورة الإصلاح؛ الإصلاحِ بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ورحى الإصلاح يدور حول إصلاح ما بيننا وبين الله!

مشكلتُنا في القدس وفي سائر البِقاع هي في مشكلتنا مع الله باختصارٍ وبعبارة جامعة، وحلُّ المشكلة إذاً معروف الطريق واضح المعالم، ومواجهة الداء إنما تكون في التسليم لتوجيهات الأطباء، والأطباءُ هنا هم العلماءُ بالله؛ العلماءُ الربانيون والدعاةُ المخلصون ممن يُجيدُ وصفَ الدواء ويأخذُ بيد المريض في سبيل التداوي، والشفاءُ إنما هو من الله وحده.

ولَّما أخذ العلماء دورهم إذ ذاك وقد هيَّأ لهم نورُ الدين محمود وصلاحُ الدين الواقعَ؛ بدأت علاماتُ التعافي بالظهور، وبدأتِ الإماراتُ الصليبيةُ بالتقلُّص والنفوذُ الغازي بالانحسار، في مقابل تنامي القوة الإسلامية بعد تعافيها؛ حتى انتهى الأمر إلى فتحٍ مجيدٍ للقدس وتحريرٍ للمحتل من بلاد المسلمين، وطردٍ مذلٍّ للغزاةِ الأغراب!

ومن أراد الوصول سلكَ السبيل وزار الطبيبَ وتناول الدواءَ بحرص، واستعانَ من قبل ذلك ومن بعده بالله، وعَكَف على بابه واستنصر بقوته واستغاث بغوثه.

وعلى الصادقين من أبناء مشروع التحرير المقدس أن يعتنوا اليوم بإصلاح علاقتهم بالله، وإنارة قلوبهم بذكره وشحنِ أوقاتهم بطاعته، والتأدب بآداب شريعته، والالتزام بأحكام دينه، فذلك مَجْمَع الخيرات؛ به يحصل استمطارُ النصر ومجدُ الدنيا، وهو مَعقِد النجاة والفلاح في الآخرة، وما الذي يطمح إليه العبد وراء ذلك؟!

فلنبدأ بالإبحار من هنا، ولنحمل زاد الطريق؛ فإنه طويل، ولا وصول لمن لم يحمل الزاد!

....

....

....

....

....

....

....

....

موقع القلوب في طريق الفتح

أولت الشريعة اهتماماً كبيراً بإصلاح القلوب، ودلَّت النصوص على أن مناطَ النجاةِ سلامةُ القلب: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ الشعراء [89]، وأن ما يرثه المؤمنون من نعيم يحصل برحمة الله ليس إلا لأولئك الذين أنابت قلوبهم لربها وأحبَّته ورجعتْ إليه لا تغادر محراب عبوديته والتفكرِ في عظمته والتسليمِ لمراداته: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ سورة ق [23، 33].

هؤلاء هم المؤمنون حقاً، الذين تهتزُّ جنَبات أرواحهم وتقشعرُّ جلودُهم وتَجِلُ قلوبهم إذا ذُكر الله، ويسري فيها تيارُ الرهبة والرغبة والإجلال والحب في آن: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الأنفال [2]، فإذا وَجِلتْ من ذكر الله خَشَعت وأخبتت للحق وأقرَّت بالعبودية التامَّة بين يدي ربٍّ جليل: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ الحج [54].

وبيَّن أن طمأنينة القلب بالإيمان هي معيار الإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ الرعد [28]، ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ النحل [106]، وأن السكينة إذا

نـزلـت فإنـما تنزل في قلوب المؤمنين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ الفتح [4]، فإذا امتلأت قلوبهم بالإيمان أنعم عليها بالمزيد فربط عليها: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا﴾ الكهف [14]، وكقوله في أم موسى عليه السلام: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ القصص [10]، فالربطُ على القلوب عنوانُ الثبات على الإيمان: كأن القلب قِربة ماء قد امتلأت، وما بقي بعد ملئها إلا الربط عليها لحفظ ما فيها من الإيمان حذَرَ أن يسيح الماء فتفرغ من جديد!

وكذلك: كتب في قلوبهم الإيمان كتابة تثبيت لا يُمحَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ المجادلة [22].

وكذلك مجمَع المؤمنين: مجمَعُ حبٍّ وأُلفة وتعاونٍ على تحقيق مراد الله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ الأنفال [36]، ومنطق دعائهم: أن يُخلِيَ الله قلوبَهم من الغلِّ لإخوانهم ولأهلِ الفضلِ منهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الحشر [10].

وأشـارت الآيـات إلى أن محلَّ المرضِ الأخـطرِ القـاضي بالهلَكة هو القلبُ؛ كما في التعبير القرآني الرائج: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ البقرة [10]، وأنها محلُّ الريب: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ التوبة [45]، الريب الذي يَحِلُّ بالقلوب الآسنة جرَّاء المكر على الدين وأهله: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ التوبة [110]، وأنها محلُّ النفاق: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ التوبة [77]، وأنها محلُّ الإنكار: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢﴾ النحل [22]، ذلك أنها قلوبٌ لاهيةٌ غيرُ جادةٍ، تافهةٌ سخيفةٌ جاهلة: ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ الأنبياء [3]!

وأن مرضى القلوب هؤلاء يفقدون البصيرة بعمى قلوبهم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ الحج [46]، فإن عميتْ فقَدُوا القدرةَ على التمييز بين الحق والباطل والنور والظلمة.

وبيَّن أن غفلة القلب عن ذكر الله تهبط بالإنسان في دركَات الإمامة في الباطل، التي نهى القرآنُ عن اتباع أصحابها وطاعتهم: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ الكهف [28].

وأخبر كذلك أن هذه الحالة تنشأُ نتيجةَ سوءِ العمل وتراكمِ الصدأ على القلوب بارتكابِ المعاصي والإقامة على الذنوب: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ المطففين [14]، فإذا حصل هذا ضعُفَتْ حساسيةُ القلب تُجاهَ الطاعة والمعصية، وتوقَّف تدريجياً عن التأثُّر بتيارِ الحقِّ المتدفِّق وصعَقَاته الحادّة؛ فلا يخشع لموعظة ولا تقلقه السقَطات ولا ترهبه مواعظُ القبور ولا تُزعجه زواجرُ الآيات!

فالإثمُ قد يقتحم المرءَ حتى يصل إلى قلبه: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ البقرة [283]، فإن وصلَ الإثمُ إلى القلب استساغ المعصية والْتذَّ بها؛ لا لدافع طبعيٍّ أو لحاجة حياتية بقدر ما هو فسادُ الفطرة وانتكاستُها، فالمعصيةُ صارت عند هذا الشقيِّ محبوبةً لذاتها مطلوبةً للشغف بها، تماماً كحال بني إسرائيل إذ عَبَدوا العجل وأحبُّوه؛ حتى لكأن قلوبَهم أُشرِبَتْه: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ البقرة [93]، وهذه حالة متقدمة في الضلالة منبئةٌ بسوء الحال منذرة بشر العاقبة والمآل.

ويقسو القلب حتى لا يلين، ويصيرُ أمثلَ من الحجارة في القسوة وانعدام التأثر بالآيات: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ البقرة [74]، ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الأنعام [34]!

بل قد تشـمئزُّ قلوبٌ من ذكـر الله وتستبشر بذكر غيره: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾ الزمر [54]!

حتى إذا وصلت الأمور إلى هذا الحدِّ عاقبَ الله صاحبها بالتيه واضطراب الرأي: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ الأنعام [110]، وختمَ عليها بختمِ الكفر ليتمَّ انعدام انتفاعها بالأدلة الباهرة على الحق والبراهين الساطعة: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ البقرة [7]، وطبع عليها بطابع النفاق: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾ النساء [155]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦﴾ محمد [16].

وجعل على قلوبهم أكنَّة وأغلفة تحول بينهم وبين الرأيِ والفقه: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ الأنعام [52].

أما مجمَع هؤلاء فمجمَعُ قلوبٍ مضطربة مرعوبة: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ الأحزاب [26]، وقلوبٍ منحرفةٍ زائغة: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ الصف [5]، قلوبٍ شتى فرَّقتها الأهواء ومزَّقتها المصالحُ المتنافرة: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾ الحشر [14].

تلك قلوبٌ لم تداخلها الخشية في الدنيا إجلالاً لله، ولم تخَفْ يوماً تتقلَّب فيه القلوبُ والأبصار، فإذا جاء ذلك اليوم حان حِينُها ودارتْ عليها الدوائر: ﴿قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩﴾ النازعات [8، 9]!

وما في السنة كثير، يكفينا منه في هذه العجالة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم- وهو أصل من أصول علم القلوب-:

- «ألا إن في الجسـد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[6]!
- وحديثه العظيم الذي أشار فيه إلى صدره وقال: التقوى ههنا[7].
- وحديثه الذي رواه حذيفة رضي الله عنه في الفتن: «فأي قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز، مجخيًا لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا..»[8][9] الحديث، وكل ذلك يحتاج إلى تعليق لا يتسع المقام إلى بيانه، فيمكن تتبعه في المظان.

(6) رواه البخاري في صحيحه (ج/1 ص/20 ح/52)

(7) رواه مسلم في صحيحه (ج/4 ص/1986 ح/2564)

(8) (9) رواه مسلم (ج/1 ص/128 ح/144)

هذه جولة سريعة تعرف من خلالها بعض نفوذ القلب في تحديد سلوك الإنسان، وأثَرَ ما يَقرُّ فيه على حال العبد في الدنيا والآخرة، فإذا كان كذلك وجب على ذوي البصائر أن يتحرَّوا صلاحه وأن يتفقدوا باستمرار حالَه، ثم نقول:

أَوَلَا يستحقُّ القلب الذي هذه حاله وهذا مكانُه أن تُفرَد أحواله بعلمٍ لا يَسَعُ مسلماً الغفلةُ عنه؟! فضلاً عن أهل العلم والقرآن والدعوة والجهاد، والمرابطين على ثغر العمل على تحرير بيت المقدس من شر أعداء هذه الأمة وهذا الدين حيثما كانوا؟!

فهؤلاء العلماء والدعاة والمجاهدون والمرابطون شديدو الحاجة إلى هذا العلم، لا غنى لهم عنه طرفةَ عين، وحاجتُهم إليه من حيثُ إن أعمالهم الجزئيةَ التي يكِدُّون في إنجازِها وبرامجهم العملية اليومية وفعالياتهم المتتابعة وما يلزمها ويلحقها من التخطيط والتقييم والتواصل؛ تشغلهم- ربما- لوهلة عن المقاصد الكلية المتمثلة بطلب رضا الرحمن والسعي إلى الجنة وحسن الاتباع وسلامة القلب، مما يستلزم دوام المراقبة للقلوب، وترميمَ ما يصيبها أثناء الاشتباك مع الجاهلية وفي خضمِّ الممارسات اليومية في الحقل الحركيِّ!

لأجل هذه المعاني اعتنى الربانيون من العلماء بعلم القلوب هذا، ونادَوا في الناس أنْ لا تَغرقوا في الوسائل بعيداً عن الأهداف، ولا تنقطعْ بكم

الطريق قبل الوصول، واعلموا أن الغاية العظمى التي أَرسل اللهُ تعالى لأجلها الرسل وأنزل الكتب هي أن تتحقق عبوديته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ الذاريات [56]، وأَعلَم أن الدعوة إلى إخلاص العبادة له كانت على لسان كل رسول: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣٢﴾ المؤمنون [32].

إن الأمة التي لم تعرفْ ربَّها لن تحبَّه ولن تجاهد في سبيله، ولن تبذل من التضحيات لتطلُّب رضوانه، وأيُّ غاية يمكن أن يقدِّم المرء مالَه ونفسه لأجلها.. لا ترتبط بالله والدار الآخرة؟ أيُّ دافعٍ يمكن أن يقف وراء الصمود أمام العاصفة الصاخبة التي يشنُّها الباطل ويُجلب فيها بخَيْلِه ورَجِلِه؟! وما الذي يُعين المرءَ على احتمال آلامِ المعركة وجِراحِها ونزيفِها على كلِّ صعيد؟!

إن العلاقةَ مع الله هي زادُ الطريقِ الصعب، واحتسابُ الأجر وطلبُ الرضوان والرغبةُ في القرب هي أقوى سلاح يملكه المؤمن في مواجهة أسطول الشر، وهو السلاح الذي لا يُهزم والدرع الذي لا يُخرق، لكن هذه العلاقة لا تقوم على ادعاء أجوف، ولا على مظاهر مجردة، إنما هي حقيقة يعيش القلب تفاصيلها وتستشعر الروح عذوبتها، وتأنسُ النفس فيها بشعور القرب، وينكسرُ القلب على عتبات الربوبية يطرقُ باب الرحمة، ويمدُّ يديه لنيل الرضا.

هذه الحقيقة تُصنع صناعة، ولا مصنعَ لها إلا في المحاريب؛ تنمو في رحاب القرآن، وتزدهرُ في أوراد الذكر، وتتحقق في جلسات الفِكر، وترويها دموع الخشية، وترفعها أكف الضراعة، وعندئذ تُستعذب التضحيات ويحلو البذل وتتألَّق النفس في تقديم القرابين!

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

الألمُ الذي سببه احتلالُ القدس وفلسطين فرصة محفزة للنهوض؛ بجانب كونه تحدياً في طريق الأستاذية التي أُوْكلَتْ إلى الأمة فيما حدَّده الله عز وجل لها وكلَّفها به: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ آل عمران [110].

نعم الألم يُشكِّل محفزاً للنهوض، كما أن الألم في الجسم يشكِّل حافزاً لاتخاذ إجراء طبيّ، ألا ترى أنه لولا الألمُ لمات الإنسان بالتهاب ما في عضو من أعضاء جسمه لم يشعر به حتى انتشر فأفسد من البدن ما تتعذر معه الحياة!

ولأقف قليلا مع هذا المعنى الذي يجعل في احتلال القدس وسلْبِ فلسطين فرصةً سانحةً يجبُ على المصلحين والنُّظَّار وفلاسفةِ الإصلاح استثمارُها بعمقٍ لإحداثِ التغييرِ على مستوى الأمة، ولعله يحسُن أن يُشار إلى أن هذا ليس خاصاً بنا نحن، بل هو سنةٌ مطَّردة في كلِّ أمةٍ **تُحسِنُ إدارة آلامها**، ففي كتابه التحليليِّ العميق يبيِّن لنا الأستاذ أبو فهر محمود شاكر أن سقوط القسطنطينية أورث أوروبا ألماً وشعوراً بالخطر ولَّدَ حضارتَها الحديثة وأَنْهَضَها بعد طول رُقاد وبعثَ ثوْرتها التي صنعت تقدَّمها الذي نرى!

وهو السبب ذاته الذي أورث المسلمين شعوراً بالراحة العمياء التي أدَّت إلى بدء عصور الانحطاط، لعله بسبب ما وقر في اللاوعي الجمعيِّ بأن المهمة الكبرى قد أُنجزت وبأن المعركة قد انتهت[10]!

فانظر إلى ماذا انتهت!

وإلى معنىً قريبٍ يشيرُ فيلسوفُ النهضةِ الإسلامية مالكُ بن نبي عندما بيَّن أن الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي على قسوته ومرارته قد حرَّك فيه ماء راكداً وبعث حَراكاً يُشعر ببقية حياة، قال:

«ولنتأمل.. ما الذي بعث العالم الإسلامي من نومه؟ من الذي أيقظه منذ خمسين عاماً تقريباً؟ من الذي قال له: قم؟

إنه الاستعمار، نعم إنه قد خلع علينا بابنا وزعزع دارنا، وسلب منا أشياء ثمينة، لقد أخذ من حريتنا وسيادتنا وكرامتنا وكتبنا المنسية، وجواهر عروشنا وأرائكها الناعمة التي كنا نود أن لو بقينا عليها نائمين!

ولكن إذا كان هذا هو الواقع الاستعماري فيجب أن نعترف أنه الذي أيقظ الشعب الذي استسلم لنوم عميق بعد الغداء الدسم الذي أكله عندما كان يرفُل في نِعَم حضارته، والتاريخُ قد عوَّدنا أن كل شعب يستسلم للنوم فإن الله يبعث عليه سوطاً يوقظه..»[11].

---

(10) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص36 وما بعدها.

(11) شروط النهضة، مالك بن نبي، 154.

(الغزالي والجيلاني كنموذجين)

استحضار أزمنة العثرات ودراسة التجارب التي خاضها الربانيون في النهوض من شأنه أن يُشكِّل دليلاً إرشادياً يمكن للأمة أن تفيد منه في معالجة الواقع، وقد عرَّجنا في عجالة قبل قليل على وصف الحال المتدهور الذي عاشته الأمة زمن الحروب الصليبية، ولنسلِّط الضوء هنا على جهود رجلين كان لهما في تشكيل البنيان الذي صدَّ العدوان النصيبُ الوافر، وفي تكوين الحالة العامة التي هيَّأت للفتح الصلاحي اليدَ الطولى، وهما الإمامان المجددان: الغزالي وعبد القادر الجيلاني رحمهما الله رحمة واسعة.

وقد استعرض الدور بمزيد تفصيل وتحليل الدكتور ماجد الكيلاني في كتابه الأهم: «هكذا ظهر جيل صلاح الدين، وهكذا تحررت القدس»، وأنا أقصد هنا إلى استحضار نتائج هذا البحث الفريد للبناء عليه ولتنبيه ذهن القارئ إلى أهمية ما نريد كتابته في القادم بعد هذه الصفحات [12]، وليس من غرضنا أن نعرض إلى الواقع الإسلامي آنذاك من جهات كثيرة كما فعل د. الكيلاني رحمه الله، وإنما نُشير إلى ما يناسب موضوع الكتاب.

---

(12) أنصح كل مهتم بقضية القدس وكل ناشط لتحرير الأمة وتغيير واقعها المرِّ وكل باحث في قضايا الفكر والنهضة بقراءة كتاب د. الكيلاني قراءة متأنية؛ فإن من شأن ذلك أن يسهم في بناء فكر النهضة ويشكل الرؤية العامة لطريق التغيير والتحرير.

◆ فالتعصب المذهبي- مثلاً- كانت له آثاره الخطيرة الفكرية والتربوية والاجتماعية والسياسية، وكانت بؤرة الإشكال التي تفرَّعت عنها سلبياته: «فكل جماعة منها اعتبرت نفسها صاحبة الحق الوحيد في التواجد[13] على مسرح الحياة الإسلامية بسبب تاريخ أسلافها المجيد»[14].

«كذلك قامت الخصومات بين الفقهاء والمتصوفة إلى جانب الفتن المذهبية، وانتشرت طوائف الجهلة والسطحيين من الصوفية، ويروي الهجويري قصصاً من مشاهداته عن كيفية تلقِّي المريدين لكلام شيوخهم تلقياً حرفياً وتقليدياً... وأن كثيراً من الشيوخ في زمنه أصبح همُّهم جمعَ المريدين وتصدُّرَ الأتباع طلباً للجاه والنَّوال»[15].

تعصبٌ مذهبي إذاً، وأمرُّ منه وأدهى وأخطر اليوم:

التعصب الحزبِّي؛ الذي يقوم على تقديم مصالح الحزب على مصالح الأمة والقضية، وعلى القدس وعلى المسجد الأقصى نفسه!

---

(13) لعل الصواب: في الوجود أو الحضور.

(14) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا تحررت القدس، 40.

(15) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 62، ونقل عن كشف المحجوب للهجويري 49، 161.

ويشبه ذلك التنافرُ بين الصوفية والفقهاء: التنافسَ المذموم بين العاملين والدعاة أنفسهم، أو بين الجهات العاملة لأجل القدس أو الناشطة في الدعوة، وهو تنافسٌ قد يبلغ بأصحابه إلى تمني فشل الآخرين بل والعمل على إفشالهم، والهدفُ واحد، وقد يكون السبيل إلى الهدف كذلك واحداً! لكنه الهوى والتحاسد والتعصب للمذهب أو للحزب أو للمؤسسة أو للنفس!

وهذا الضرب من المشكلات ناشئٌ عن ضعف الرؤية وضياعِ الهدف وامتلاءِ القلوب بحب الدنيا وملاحظة الخَلْق والذهول عن الخالق!

- كما انتشر الفسادُ الفكريُّ والبدعةُ العقدية:

- كالباطنية التي باتت تُشكِّل تحدياً حقيقياً للمجتمعات السنية، ويعملُ أنصارها ضمن أجندة بعيدة عن مصالح الأمة العامة وقضاياها الكبرى، تستقطب الضعفاء ومرضى القلوب لمعاداة الأمة وتفريق مجموعها.

- وكالفلسفة المنحرفة المنبثقة عن الثقافة اليونانية، التي حظيت بالعديد من الدعاة إليها كابن سينا وغيره ممن عملوا على بث هذه النبتة البعيدة عن الإسلام النابتة في غير بقاعه المباركة!

ومثلُها اليوم وأنكى منها:

تلك الأفكار الغربية أو الشرقية التي استوردها بعض أبناء المسلمين ليبنوا عليها تجمعهم، وليحكموا رقاب المسلمين وأعراضهم- أحياناً- بمقتضاها ويعادوا الإسلام وأهله ودعاته؛ كالشيوعية واليسار والليبرالية والحداثة والعلمنة، وطائفة تدعو إلى الإلحاد وتروج له باسم العلم أو باسم الشهوة سواء، وإلى الشذوذ تبعاً لشذاذ الآفاق، وإلى الجندر والنسوية... إلخ.

- فساد الحياة الاجتماعية، «وفي غمرة الفساد الذي ضرب الحياة الاجتماعية انصرف المجتمع بمختلف هيئاته إلى الانشغال بقضاياه اليومية الصغيرة التي تدور حول الغذاء والكساء والمأوى والتنافس في التجارات واللهو وتلبية الشهوات، وانتشر النفاق وسقطت القيم وانهارت الأخلاق، وصار الحديث عن المثل العليا والقضايا العامة إما وسيلة ثقافية يتكسب بها الخطباء والوعاظ والمدرسون، أو مثاليات وخيالات يستخف بها الكثيرون ولا يُعيرونها انتباهاً، وقد وصف المؤرخ أبو شامة مجتمع تلك الفترة فقال:

«كانوا كالجاهلية، هَمّةُ أحدهم بطنُه وفرجُه، لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً» [16].

(16) كتاب الروضتين، 7، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 82.

ويضيف د. الكيلاني:

«أما الممارسات الدينية فقد اقتصرت على أداء الشعائر والعبادات، واختفت آثار التوجيه الديني في العلاقات والمعاملات»[17].

قف أمـام هذه التوصيفـات التي استُمـدَّت من كُتُبِ مؤرِّخي تلك المرحلةِ وعلمائها ومصلحيها، وسيأتي المزيد، ولكن حتى لا يضيع المقام يحسن أن نقف لتأمُّلِ حالنا مع حال القوم، ألا ترى تشابهاً؟

- انشغالٌ بالهموم الشخصية المتعقلة بالغذاء والكساء، واجتهادٌ في متابعة الموضات، وتغافلٌ عن الهمِّ العام! أكثر مقاطع الفيديو المتداولةُ بين الناس تتعلق بالطعام والسياحة!
- وتنافسٌ في اللهو، انظر إن شئت إلى كرة القدم وما تثيره ما أحقاد بين إِخوَة الدين والعِرق، واستعراضاتِ السوشال ميديا ومتابعةِ «الترند»! والفناءِ في عالم الفيس والانستغرام، ثم الغياب عن المهمات الدينية والاجتماعية والعلمية! ولا حول ولا قوة إلا بالله.
- انتشار الأفكار المخالفة للإسلام، حتى صار الإسلام نفسه محلاً لنظر أبنائه أحياناً؟ بحيثُ صار الدعاة يتوسَّلُون بفكرة التدرُّج عند الدعوة إلى تطبيق الإسلام؛ لسعة الفجوة ما بين العوام والإسلام؟

(17) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 83.

أما الفساد السياسي فطامَّة وحده رئيسة في صناعة أنواع الفساد الأخرى، فقد انقسمت الدولة السلجوقية عام 486هـ إلى دويلات متعددة، وانقسمت بلاد الشام كذلك إلى إمارات؛ بعضُها لا يُجاوز أسوار المدينة الواحدة أو القلعة الواحدة[18]، «واستمرت علاقات الشك والريبة والطمع تحكم هذه الدويلات، فدخلت في صراعات وحروب تكاد لم تخلُ منها سنة واحدة، وانعكست هذه الصراعات على الرعايا من عامة المسلمين، فكانوا يتعرَّضون للإيذاء والنهب والتفكك الاقتصادي والاجتماعي، وكثيراً ما استغل الأعداء من الخارج هذه الخصومات القائمة بين رؤساء الدويلات المسلمة، فهاجموا البلاد وفَتَكُوا بأهلها، وهذا ما فعله الصليبيون عام 509م[19].

وفي داخل كل دولة من هذه الدويلات السياسية المجزَّأة كان أمراءُ الجيش وكبارُ القادة يقودون الانقلابات والثورات، ويبيعون ولاءهم للسلاطين حسب الأعطيات والهدايا، كذلك كان الجند، حيث صارت الجندية عندهم وسيلة للارتزاق واستغلال فرص الاضطرابات للنهب والغنائم والعطايا، وهذه كلُّها من الظواهر التي تطفح بها كتب التاريخ المعاصرة آنذاك[20].

(18) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 84.

(19) البداية والنهاية، 12/ 178، وهكذا ظهر جيل صلاح الدين، 84.

(20) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 85.

هكذا يصف المؤرخون الحالة السياسية للمسلمين في تلك الحقبة، فهل ترى إذاً أن ضياع القدس كان مفاجأة عجيبة؟ أم أنها نتيجة متوقعة لظروف موضوعية صنعتها أيدي القوم؟ أترى فارقاً بين هذا الوصف ووصف واقعنا لو نظرنا بعين النَّصَفة أو قرأه أبناء الأجيال القادمة من المسلمين؟ واخجلتاه!

بل لعل واقعنا صار أخطر اليوم! فالولاء للخارج صار كأنه الأصل، وويلٌ لمن خالف! يعاديه إخوانه من العرب ويحاصرونه قبل عداء الأعداء وحصارهم!

وفي مثل هذه الأجواء من «الفصام النكد» بين الأمة وهويتها ودينها ظهر المصلحون الذين يبينون للأمة الهدى بعد الضلال، والرُّشد بعد التيه، وكان من هؤلاء: الإمام الغزالي، والشيخ عبد القادر الجيلاني.

الإمام الغزالي

ولد الإمام أبو حامد الغزالي في بلدة طوس عام 450 هـ، في قلب الأوضاع الموصوفة في الكلام السابق، طلب العلم وبرز ذكاؤه، وكان أقرب تلاميذ إمام الحرمين الجويني إليه، وصار قبلة لطلبة العلم من مختلف المشارب؛ يَرِدُون عليه ويتعجَّبون من مُكنته العلمية، وقد قرَّبه الوزير

السلجوقي الصالحُ «نظامُ الملك»؛ الأمرُ الذي بوَّأه نفوذاً سياسياً وكلمةً مسموعةً في الدولة.

ولكن تلك المنزلةَ لم تَحجِب الغزالي عن الشكلية التي ضربت كثيراً من رجال العلم والسياسة المشاركين في الحركة الإصلاحية التي قادها نظام الملك، ونظر في أهدافهم وأحوالهم؛ فإذا العقيدة شعارات لصيد الجاه، **والانتماءُ المذهبي أداةٌ للمناصب والمكاسب**، فقرَّر الانسحابَ من المشهد العام، ورأى أن الخطوة الأولى ينبغي أن تكون من نفس المصلح، فآثر الاعتزال حيناً من الزمان، وقضى عشر سنوات يتنقل فيها بين دمشق وبيت المقدس والحجاز، وأراد تحقيق أمرين:

- مراجعةِ الأفكار التي تلقاها من مجتمعه المليء بالمذاهب المتناحرة والفرق المختلفة.
- مراجعةِ الاتجاهات النفسية والأهداف الحقيقية التي اكتسبها من خلال نشاطه المذهبي، حيث رأى أنها اتجاهات تدور حول تحكيم المذهب والولاء له، لا حول تحكيم الإسلام والولاء له، وتنحرف بالفرد عن عبادة الله وحده إلى عبادة النفس والهوى، وعن الزهد في الدنيا إلى التهالك عليها ومنافسة الآخرين تحت شعار الدعوة إلى الإسلام، وتذلّ العلماء وتحيلهم إلى لعبة بيد الحكام والأمراء [21].

(21) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 103.

ومال في هذه العزلة إلى التصوف والزهد، وصاحبَ الشيخَ الفضلَ بنَ محمد الفارمذيَّ تلميذ أبي القاسم القشيري؛ العالمِ الصوفيِّ العريق صاحب التصانيف المشهورة، كالرسالة القشيرية ولطائف الإشارات.

وأحسب أن الغزالي قد أصاب المِحزَّ، وعرف البداية الحقيقية للطريق إلى الله، وللطريق إلى التغيير المنشود سواء! كما أن كلّاً منا بحاجة ماسَّةٍ إلى مراجعة الأفكار التي اكتسبها من مجتمعه، والولاءات التي شكَّلتها الأفكار الدخيلة على الإسلام، عبر طرح مجموعة أسئلة؛ لعل من أهمها: هل قلوبنا منغمسة في العمل لدين الله كما الظواهر؟ أو أننا غرقنا في الشكليات وغفلنا عن إصلاح قلوبنا التي بسلامتها نجاتنا: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ الشعراء [89]؟ هل الولاء للإسلام أو للقومية أو القُطْرية أو الجهوية أو العشائرية والقبلية؟ هل الولاء لله ولدينه أو للحزب والجماعة والاتجاه والشيخ؟

كثيراً ما يلتبس هذا الولاء حتى على أبناء الدعوات أنفسهم، حين تسوِّل لهم تلك الأفكار أن الأُطُر هي محلُّ الولاء والبراء وعليها تُرفع راياتُه!

ينبغي أن يَعلَمَ أبناءُ الدعوات أن الأحزابَ التي يتنمون إليها والجماعاتِ التي يُشكِّلونها إن هي إلا وسائلُ لخدمة الدين؛ لا غاياتٌ تُخدِمُ

الدين، وراياتٌ تَرفَع الدين ولا تَرتفعُ على الدين، وتنظيماتٌ لجمع كلمة المسلمين ومقاومة الأجندة الغربية الصهيونية التي تقودها الدول والمنظمات، لا لتفريق المسلمين وتمزيقهم أكثر!

وهذا الكلام إنما يخصُّ الأحزاب الإسلامية والجماعات الدعوية، أما الأحزاب القائمة على غير الإسلام فهي راياتٌ جاهلية لا يجوز الانضواء تحتها ولا العمل من خلالها، وكيف يُنصَرُ الله من خلال تجمعاتٍ تناهضُ تَكَامُلَ شريعةِ الله وشمولَهَا لجوانب الحياة؟ وكيف يتنزَّل نصرُ الله على قوم اجتمعوا على غير اسم الله ودينه وتحت راية غير رايته؟!

رَكَّز الغزاليُّ أهدافَه على أمرين اثنين [22]:

الأول: إخراج جيل من العلماء والقادة العاملين الذين تتوحد أفكارهم ولا تتنابذ، وتتكامل جهودهم بدل أن تتصارع، وتخلص غاياتهم لله وبما يتفق مع رسالة الله.

الثاني: التركيز على الأمراض الرئيسية التي تنخر في الأمة من الداخل بدل الاشتغال بالمضاعفات الناتجة عن هذه الأمراض؛ ومنها: الأخطار الخارجية!

---

(22) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 104.

نعم؛ قد عاب بعضهم على الغزالي أنه لم يُؤْثَرْ عنه الكلام فيما تتعرَّض له الأمــةُ من هجـمات من أعــدائها الذين يشنُّون عليـها أعتى الحـروب، وتكلم في أغراض أخرى لا تتصل -فيما يبدو- بهذه المعركة الدائرة!

والجواب: أن الغزالي قد تكلم عن الجهاد والشهادة في ثنايا حديثه عن التربية والتزكية والتصوف في مواضع عديدة، وإن كنا نود أن لو أعطى هذا الجانب مساحة أكبر!

لكن منهج الغـزالي في الإصــلاح كــان مبنياً على علاج السبب الذي وصل بالأمة إلى هذا المنحدر الخطير، وعلاجُ الأسباب يحسمُ نتائجَها، كما في مرض الشجرة تماماً: مَن صرف عنايته إلى علاج كلِّ ثمرة من ثمراتها أعياه التتبُّع، وكثُرت عليه المهامُّ الجزئية؛ ينتقل من ثمرة إلى أخرى وما تزال الشجرة تنتج المريض من الثمار حتى تهلك! أما مَن قصد إلى علاج المرض الحقيقي في الشجرة، وانصرفت همته إلى الساق والجذور، وهيأ لها الحوض المناسب والدواء الناجع أنتج ذلك الثمر الطيب، ودام في الشجرة عطاؤها الحلو.

كان الغزالي يعالج «قابلية الهزيمة» بدل التباكي على «مظاهر الهزيمة»، تماماً كما دعا مالكُ بن نبي في زمننا إلى البحث في القابلية للاستعمار بدل توجيه اللوم إلى الاستعمار [23]!

الحقُّ أن حركةَ الأمم والمجتمعات متشابكةٌ تشابكاً شديداً، وإن أيَّ خللٍ في زاويةٍ من زوايا المجتمع سيؤدي إلى تعطُّلٍ عامٍّ في عجلة تَقَدُّمه وحركته عامة، فالمشكلة الاقتصادية وسوء توزيع الثروة- مثلاً-، يؤدي إلى ضغائن طبقية في المجتمع، وإلى انتشار الجريمة بسبب الفقر والضغينة، وسوء التربية الناتج عن تكوُّن بيئة شكلها الفقر وغذَّتها الأحقاد، وسيجرُّ ذلك ما لا يحصى من المشكلات! وإذا كان ذلك على هذه الهيئة في زاوية الاقتصاد؛ فكيف بالمشكلات المتعلِّقة بالتديُّن الذي ينعكس على سلوك الأفراد في كل جانب من الجوانب؟ كيف به في الجوانب التربوية والسلوكية المشتبكة أصلاً مع نمط التدين؟

لقد أدرك الغزالي هذا المعنى بالتحديد، «ومن الظلم الفادح للغزاليِّ أن يُقال عنه: إنه اختار الصوفية السلبية وانعزل عن الأحداث الجارية، فمثلُ هذا القول سببه التفكير الجزئي والنظرُ الظاهري اللذان لا يحيطان بمكوِّنات الأحداث ولا ينفُذان إلى مقدماتها ونتائجها» [24].

(23) انظر: شروط النهضة مالك بن نبي، 33، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 106،

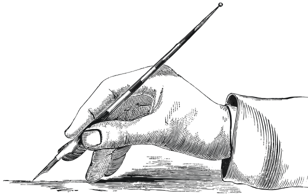
(24) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 107.

لقد تأثر الغزالي كثيراً بهذه المدة التي قضاها في المراجعات، فقد أحدثت انقلاباً حقيقياً في شخصيته التي عرفها من حوله، فقد قُدِّر- مثلاً- أن لباسَه ومركوبَه في نظاميَّة بغداد- قبل الاعتزال- بخمسمائة دينار، فلما تزهَّد قُدِّر ذلك بخمسةَ عشر قيراطاً!

ولّما زاره أنوشروان وزيرُ الخليفة في طوس قال له الغزالي: زمانُك محسوبٌ عليك، وأنت كالمستأجر، فتوفُّرُك على ذلك أولى من زيارتي! فخرج الوزير وهو يقول: لا إله إلا الله! هذا الذي كان في أول عمره يستزيدني فضلَ لقبٍ من ألقابه، وكان يلبسُ الذهب والحرير، فآل أمره إلى هذا الحال!

ويصفه أبو الحسن الفارسي:

«وقد زرته مراراً وما كنت أحدث في نفسي- مع ما عهدته في سالف الزمان عليه من الزعارة وإيحاش الناس والنظر إليهم بعين الازدراء والاستخفاف بهم كِبْراً وخُيَلاء، واعتزازاً بما رزق من البسطة في النطق والخاطر والعبارة وطلب العلو والجاه في المنزلة- أنه صار على الضد وتصفَّى من تلك الكدورات» [25].



(25) تبيين كذب المفتري لابن عساكر، 294، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 105.

إن هذا الصدق في الحال والإخلاصَ التي تلوح أماراته والتوبةَ الحسنةَ التي يفوح عبيرها هو ما فتح للغزالي مغاليقَ القلوب، وكتب له بتوفيق الله القبول، فالإيمانُ نور في القلب، وبمقدار قوته تكمنُ قدرته على إنارة قلوب الآخرين والتأثير الروحي فيهم وتذكيرهم بالله؛ ولو بمجرد الرؤية فضلاً عن الكلام والتعليم!

وقد أورد المفسرون عند تفسير قول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢﴾ يونس [62] روايةً عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: «قيل: يا رسول الله من أولياء الله؟ قال: الذين إذا رُؤوا ذكر الله تعالى» (26).

قوم امتلأت قلوبهم بمعرفة الله وحبه والرغبة فيما عنده ورجاء ثوابه وخوف عقابه والاستعداد للمقام بين يديه، حتى بدا ذلك على وجوههم بعد أن أنار الله قلوبهم به، فصمتُهم بليغ ككلامهم، وابتسامتهم مؤثرةٌ كبكائهم، وحركتُهم طاعةٌ كسكونهم، وبمثلهم يُصلح الله عباده.

---

(26) رواه البزار في مسند البحر الزخار (ج11/ ص251/ ح5034)، قال الشيخ شعيب في تحقيقه لمسند احمد (29/ 522):

" وقد روي هذا الحديث عن سعيد بن جبير، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا، وإسناده أصح من إسناد الموصول".

لقد نقد الإمام الغزالي مسالك الكثيرين من علماء الدنيا- كما سماهم-، وبيَّن مقصوده بعلماء الدنيا بقوله: «نعني بعلماء الدنيا: علماءَ السوء الذين قَصْدُهم من العلم: التنعُّمُ بالدنيا والتوصُّل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها»[27].

وعاب عليهم- وقد ملأ حبُّ الدنيا قلوبَهم- قعودَهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال:

«أما الآن؛ فقد قيَّدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وإن تكلموا لم تُساعد أقوالُهم أحوالَهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حقَّ العلم لأفلحوا، ففسادُ الرعايا بفساد الملوك، وفسادُ الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف بالملوك والأكابر؟! والله المستعان على كل حال» [28].

كان الغزاليُّ ثورة على الركود الآسن الذي عمَّ الأرجاء، وأطلق الصيحة وراء الصيحة لطرد النوم عن الخاصة والعامة، وكان بسلوكه الشخصي قدوة اتفق الجميع عليها، حتى مخالفوه!

---

(27) إحياء علوم الدين، (1/ 59)

(28) إحياء علوم الدين، (2/ 357).

قال الدكتور الكيلاني: «لقد أقبل العلماء من جميع المذاهب على الإمام الغزالي وعلى رأسهم علماء الحنابلة الذين لم يكونوا يرون لأحد سبقاً عليهم، حيث يذكر ابن كثير وغيره من المؤرخين أن رؤوس الحنابلة كانوا يحضرون دروسه، مثل أبي الخطاب وابن عقيل، وتعجبوا من فصاحته واطلاعه»[29].

أقبل عليه المخلصون من كلِّ اتجاه يرتوون؛ لا من علمه فحسب، بل من عميق فهمه للإسلام وإدراكِه لأسس النهضة والتغيير، وإجادته للبناء الذي يحتضن جيل التحرير المنتظر؛ التحرير الذي تتوق إليه أرواح المخلصين، ويشكِّل بالنسبة إليهم حافزاً للعمل والإصلاح، ويُثير في قلوبهم الرغبة في البذل والتضحية وصولاً إلى نيل الشرف المنشود!

أقبلوا عليه وهم يرون أن «الداء العضال فقْدُ الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سلوة في عموم المرض؛ حتى لا يظهر نقصانهم، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضاً، لأن الداء المُهلك هو حبُّ الدنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافاً من أن يقال لهم: فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟

---

(29) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 172.، والبداية والنهاية، 12/ 174.

فبهذا السبب عمَّ على الخلق الداءُ وعظم الوباءُ وانقطع الدواء، وهلَك الخلقُ لفقد الأطباء؛ بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء! فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشُّوا، وإذا لم يُصلِحوا لم يُفسِدوا، وليتهم سكتوا وما نطقوا، فإنهم إذا تكلموا لم يهمّهم في مواعظهم إلا ما يرغِّبُ العوامَّ ويستميل قلوبهم» [30].

ليس هذا فحسب؛ فانتشارُ التعصب للمذهب والطريقة، وإعلان الولاء والبراء على الصغيرة والكبيرة، وتفريق الناس وإقصاء المنافسين واستعداء الأقران كان هو السائد بين علماء السوء و«النخبة المثقفة»، يغلفون ذلك بغلاف يقبله منهم الناس، وهو في الحقيقة «هوى متبع وشحٌّ مطاع وإعجاب كل ذي رأي برأيه»، قال:

«التعصب سبب يُرسخ العقائد في النفوس، وهو من آفات علماء السوء، فإنهم يبالغون في التعصب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير لأنجحوا فيه، **ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع، ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم،**

(30) إحياء علوم الدين، (4/ 51)

اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم وسمَّوه: ذباً عن الدين ونضالاً عن المسلمين، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة في النفوس»[31].

فهل لك أن تتأمَّل حالنا اليوم؟ وما أشبه الليلة بالبارحة! منتسبون إلى العلم يبذلون الدين على أعتاب السلاطين، ويسترضون الكبراء بعرض ما لا يزعجهم من الإسلام، وبالقدر الذي لا يُصادم أهواءهم ومصالحهم، ويغضُّون الطرف عن منكرات عظيمة وبدعٍ خطيرة توسلاً لنيل وظيفة أو الوصول إلى منصب! ثم يشتدُّ نكيرهم ويعلو صراخهم في «خلافيات» قديمة نسيتها الأمة وعفا عليها الزمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وواضحٌ أن الإمام الغزاليَّ لم يكتفِ بالنَّقد؛ وإنما قدَّم من خلال كتاباته- وعلى رأسها: إحياء علوم الدين- منهجاً في فهم الإسلام وتطبيقه، يقوم هذا المنهج عموماً على:

تصحيح العقيدة وبناء التصور الإسلامي الصحيح؛ بعيداً عن مجازفات الجهلة وهذيان الفلاسفة وبدع المبتدعين.

التكامل في فهم الإسلام والدعوة إليه وعلاج مشكلات المسلمين المتنوِّعة؛ الفردية والاجتماعية السياسية والتعليمية...

(31) إحياء علوم الدين (1/ 40)

- العناية بالظاهر والباطن سواء:

> الظاهر: الذي يؤدِّي العبادة ويلتزمُ بأحكام الإسلام العامة في العبادات والمعاملات، ويتأدب بآداب الشريعة في كل جوانبها الفردية والعامة.

> الباطن: الذي يُعنى بأعمال القلوب وطاعاتها، ويبيِّن أمراضها ومعاصيها، ويصف أدويتها وعلاجاتها.

- منهج المزج بين التخلية والتحلية، بحيث تسمو أرواح المؤمنين وتحلق قلوبهم متطلبة الرضوان الإلهي، بعيداً عن التوافه وصغائر الاهتمامات الدنيوية.
- الدعوة إلى الزهد في الدنيا، وتقبيح الاستكثار منها، والتنبيه على أن رحى الضعف والفساد تدور حول حب الدنيا والسعي في تطلبها!

كتب الغزاليُّ ودرَّس واجتهد في البلاغ، ولا أحسب أنه عرفَ أن ما بذله من جهود- وقد بدت عليه علامات الإخلاص- سيبلغ الآفاق، وسيفتح الله تعالى له قلوباً راغبة في نيل الهدى ورَواءِ المعرفة وأُنْسِ القرب، فقد «كان من آثار الغزالي ظهور نوع جديد من المدارس والمؤسسات التربوية الخاصة التي استلهمت روح المنهاج التربوي الذي بلوره الغزالي، وأسبغت على مناهجها وأساليبها وتنظيماتها طابعاً إسلامياً تكاملت فيه ميادين العقيدة والتزكية والفقه، وتظافرت [32] جهود العاملين لمعالجة

(32) تظافرت وتضافرت، كلاهما صواب وإن كان الأصح فيما أرى: بالضاد.

الأمراض الفكرية والنفسية التي ضربت المجتمعات الإسلامية آنذاك وأفرزت مضاعفات خطيرة في السياسة والاجتماع والثقافة والاقتصاد والعسكرية»[33].

الإمام عبد القادر الجيلاني

وكان على رأس أبرز تلك المدارس التي انتشرت في العالم الإسلامي: مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلاني، الذي شكّل نقلة تنفيذية في الفكر الغزالي، مع تطوير خاص وبناء مميز، «والذي نراه أنه مرَّ في تجربته الصوفية بمراحل ثلاث:

الأولى: عندما استلهم منهاج الغزالي في الجمع بين الفقه والتصوف،

والثانية: حينما مارس تطبيقات السلوك الصوفي على كل من الدباس والمخرمي[34]

والثالثة: عندما برز له طابعه الخاص، وأحكم الجمع بين الفقه والتصوُّف»[35].

(33) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 177.

(34) مدارس تولى عبد القادر التدريس والتوجيه فيها.

(35) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 185.

وامتاز عبد القادر شخصياً بميزات، أبرزها- مع ما حباه الله من العلم والفهم-:

- طابعه الروحي العالي، و«إيمانيَّاتُه» الرقراقة التي أضاءت قلوبَ مَن حولَه، وقوَّة تأثيره فيمن حوله، أو بعبارة العصر: امتلك «كاريزما» عالية التأثير.
- وزهده النقيُّ الذي استجلب القلوب [36]، وأطلعَ على صدقه وحسن قصده، ونأى به عن التنافس على الدنيا التي يتكالب عليها الآخرون!
- والميزة الخطيرة المهمة: أن لدى عبد القادر مهارةً قيادية عالية، وروحاً مؤسسية طموحة؛ تجيدُ صناعة الأعمال وبناءَ المشاريع وتوظيفَ الطاقات وقيادةَ الفريق وتحقيقَ الأهداف توسيعَ رقعة الاستهداف، وبهذا التوفيق صارت الأفكار الغزالية والوجدانيات القادرية تياراً ثقافياً عامَّاً يحتضنُ التنظيم الجيلانيَّ الصلب الذي يملك مواجهة الواقع بأدوات الواقع، ويقمع الفساد بسياط الصلاح.

يمكنك أن ترى ذلك في منهج مدرسته التي ورث التدريس فيها عن أبي سعيد المخرمي، «فقد كانت المدرسة تستقبل أبناء النازحين الذين فروا من وجه الاحتلال الصليبي، ثم تقوم بإعدادهم ثم إعادتهم إلى مناطق المواجهة الدائرة تحت القيادة الزنكية، ولقد اشتُهر ـ فيما بعد ـ نفرٌ من هؤلاء

(36) حديث: (ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس) رواه ابن ماجة في سننه (ج2/ ص1373/ ح4102) وقال الألباني: صحيح.

الطلاب منهم: ابن نجا الواعظ، الذي أصبح فيما بعد مستشار صلاح الدين السياسي والعسكري، والحافظ الرهاوي، وموسى ابن الشيخ عبد القادر الذي انتقل إلى بلاد الشام ليسهم في النشاط الفكري، وموفق الدين صاحب كتاب المغني وأحد مستشاري صلاح الدين، وقريبُه الحافظ عبد الغني؛ اللذان وفدا للالتحاق بمدرسة سيدي الشيخ عبد القادر بعد أن نزحت أسرتهما من جماعيل في منطقة نابلس إلى دمشق [37].

وظهرت قدرات الشيخ عبد القادر القيادية وروحُه المؤسسية في التنسيق والاتصال الذي جرى بين مدارس الإصلاح بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون، فقد عُقد عدد من الاجتماعات واللقاءات أدت إلى نتائج هامة حتى على المستوى التنظيمي، فقد نجحت قيادات المدارس الإسلامية في الاتفاق على قيادة موحدة على مستوى العالم الإسلامي، وكانت أول الاجتماعات في بغداد في رباط المدرسة القادرية، وحضره ما يزيد على الخمسين من علماء العراق وغيره، وقد اختير الشيخ عبد القادر الرئيسَ الأوَّلَ المُلهِمَ لهذا «لتنظيم العلمائي» الجديد [38].

(37) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 186.

(38) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، 245، 246.

وكانت مهمةُ هذه القيادة الموحدة القيامَ بتنسيق نشطات مدارس الإصلاح وتوجيهها لأداء دورها في إصلاح الخلل وزراعة قيم الإيمان والزهد والاستعداد للبذل والتضحية.

لقد نجح عبد القادر بالقيام بأدوار أسَّست للفتح والتحرير عن طريق صناعة الجيل الذي يستأهل النصر، الجيلِ الذي يأوي إلى محاضن التربية ورياض القرآن ومحاريب الطاعة ليرتوي من روائها النقي، ثم يتقدم الصفوف للمواجهة مع المحتلِّ الظلوم في كل ساحات المواجهة.

وفي مثل هذه المدارس تخرَّجَ نور الدين وصلاح الدين وأصحابهما وجنودهما، وعلى مثل هذا المنهج مضى الفاتحون الذين حقَّق الله على أيديهم النصر والتحرير، وطرَدَ بحرابهم الغزاةَ الظلمةَ وطهَّر الأرض المقدسة من غاصبيها.

وأُنهي الكلام ههنا ببيان فكرة كتاب أ. عبد الرحمن عزام في كتابه: صلاح الدين وإعادة الإحياء السني ، الذي ينتهي فيه إلى أن تحرير بيت المقدس لم يكن إلا نتيجة لنجاحه في إحياء المذهب السني [39]، هذا

(39) صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني، 159.

النجاح الذي أسسه على أفكار الغزالي وعلى جهود عبد القادر وإخوانه، إن حالة «البعث الديني والخُلقي» [40] التي عاشها العالم الإسلامي هي التي هيَّأت للقيادة الصادقة فرصة الانتصار، فهل اتَّضحت الطريق؟

إن كلامنا في هذا الكتاب وكلامَ غيرنا في غيرِه لن يُغنيَ شيئاً ولن يحقِّق على صعيد نتائج المعركة تقدُّماً ما لم يقترن هذا العلم بالعمل، وما لم تشفع هذه الأفكارَ خططٌ للتنفيذ ومبادراتٌ للبناء وتنسيقٌ للجهود وتوحيدٌ للخطو.

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

---

(40) صلاح الدين، 295.

كلُّ سيرٍ طويـل لا بد للسالك فيه من النـزول في منازل الطريق، كلُّ منزلةٍ محطةٌ يتزوَّدُ منها ويحملُ ما يبلِّغه مقصودَه من معانيها، ومقصودُ كلِّ سائر في طريق الفتح هو الوصولُ إلى الله ونيلُ رضاه، والنجاةُ من عذابه والفوزُ بما أعدَّه لعباده الصالحين، ذلك أن إعادة الأمة إلى جادة الصواب، وفتحَ بيت المقدس وتحريرَ كلِّ أرضٍ للمسلمين: طاعةٌ من أعظم الطاعات، لا يُنيلها الله تعالى إلا لعباده المخلَصين، ورحم الله شيخ فلسطين الشيخَ المجاهد المقعدَ أحمد ياسين لمَّا سئل في مقابلته المشهورة مع أحمد منصور على قناة الجزيرة: ما هدفك في الحياة؟ فأجاب إجابةَ الواثقِ بلا تردُّد: هدفي أن يرضا الله عني!

إجـابةٌ على بسـاطتها عميقةٌ مباشرةٌ واضحةٌ لا لبس فيها ولا تعقيد، وهي على بساطتها إن لم تكن حاضرةً بهذا الوضوح وبتلك البساطة عند العاملين في هذه السبيل فلن يصلوا إلى التحرير، فإنه شرف- كما قلنا- لا يناله إلا من استأهل النصر؛ وكفى!

هي الطريق إذاً، أوَّلها يبدأ بإبرام عهد الإيمان بالله، وآخرها الإغاثةُ بالنصر للمؤمن، أو لجماعته المؤمنة إن لم يدرك بعمره القصير قطفَ الثمرات أو كُتبت له الشهادة بين يدي الوصول، ثم دخولُ الجنة التي وعد الرحمن عباده المؤمنين.

والإيمان عهدٌ بين العبد وربه يستلزم الطاعة، والطاعةُ تستلزم الاستقامةَ وتركَ المعصية، والطاعاتُ ظاهرةٌ وباطنة، والمعاصي ظاهرةٌ وباطنة، **والمطلوبُ الإتيانُ بالطاعات الظاهرة والباطنة**، وتركُ المعاصي الظاهرةِ والباطنة، والإسلامُ يقتضي كلَّ ذلك؛ فإنه الاستسلام لله تعالى بالكلية، ولعله من مدلول قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾البقرة [208]، وقد سمى الله تعالى دينه صبغة لاعتبار أن مُتَّبعَه قد اصطبغ به اصطباغاً تاماً وصار حاله ومقاله بلونه: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾البقرة [138].

....

....

....

....

....

....

....

ولّما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم أوجزته بقولها: «كان خلقه القرآنَ» [41]، وهكذا كانت أخلاق أصحابه رضي الله عنهم، فدانت لهم الدنيا لأنّهم أحسَنُوا الديانة لله رب العالمين، وتحقّقوا في منازل العبودية، وارتقوا إلى محالِّ المحبة، فصار الله سبحانه وتعالى سمعَهم الذي يسمعون به، وبصرَهم الذي يُبصرون به، وأيديَهم التي يبطشون بها، وأرجلهم التي يمشون بها، فلا غرو إذاً أن تُفتح لهم الأرض في سنوات معدودات من شرقها إلى غربها!

وإذا كان الطريق إلى الله تعالى يبدأ بالإيمان الذي هو في الأصل: التصديق، فإن مراتب الإيمان ومنازله تتصاعد لترتقي بالسائر إلى قمم من العبودية تتألق فيها الروح، وتجد أُنسها وتذوق حلاوةَ قربها من الرب الودود، كلُّ منزلة من هذه المنازل فيها لون من العبودية خاص لا تصفه اللغة، وإنما تتذوَّقُه القلوب والأرواح.

وعباداتُ الجوارح إنما شُرعتْ لتحصيلِ عبودية القلب، ألم تقرأ قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ البقرة [21]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ البقرة [183]،

---

(41) صحيح: رواه أحمد في مسنده (ج41/ ص149/ ح24602).

فالصيام- ومثلُه العبادات الأخرى- غايته حصول التقوى، وانكسارُ القلب على عتبات رحمة الرب، واستشعارُ العبد حاجتَه لربه وفقرَه إليه؛ فيتوجَّه إليه بقلبه كما يتوجَّه إلى القبلة بجسده، ويُقبل عليه بكليَّته عالماً بأنه لا نجاة له ولا نجاح إلا بتحصيل رضوانه، فيُلقي بنفسه مطَّرحاً على ذلك الباب متشبثاً بتلك الأستار، لسانُ حاله ومقاله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ الأعراف [23].

فمدار الأمر إذاً على ما يتحصَّل في هذا القلب من المعاني، وعلى ما يستفيده من عبادات الجوارح وينتفع به، وغاية ذلك حصول المحبة، «فأصل العبادة محبةُ الله بل إفرادُه بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحبَّ معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتُنا لهم من تمام محبته وليست محبة معه كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه»[42].

والمحبة هي أشرف ما يدفع العبد إلى بذل المال والنفس، وبذلُهما عماد الجهاد وعليه تدور رحاه، والسائرُ في طريق الدعوة وتعليم القرآن ونشر الخير إنما سار فيه تعظيماً لأمر الله في مثل قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ آل عمران [104]، وحباً لله الذي يقتضي حبُّه بذل العمُر والجهد والمال انتصاراً لدينه وإعلاء لكلمته ونشراً لدعوته.

(42) تهذيب مدارج السالكين، 1/ 113.

والسائرُ في طريق الفتح إنما سار فيه تعظيماً لأمر محبوبه من وجهين:

الأول: أنه ما عظَّم أمر بيت المقدس إلا لتعظيم الله له، وقد قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ الحج [32]، ولا عَمِل لأجل تحريره إلا لعلمه بأن الله قد أوجب على المسلمين الذبَّ عن بلاد المسلمين، ولو استغرق الوجوبُ جميعَهم، وهذا إن كان واجباً في أي بلد من بلاد المسلمين فإنه في بيت المقدس أوجب، ولا يختلف اثنان في أن الدفع عن أيِّ بلد إسلاميٍّ واجب، فكيف ببيت الله المقدَّس، ومسرى الرسول صلى الله عليه وسلم، وأول القبلتين، وثاني مسجد وضع في الأرض، وثالث المساجد التي تشد إليها الرحال؟

والثاني أن المحبَّ لله يرى قضية بيت المقدس [43] ساحةَ اختبار للحب الذي يدَّعيه، فيبادر إلى البذل من غير تردد، ويقتحم المعركة من غير تلبّثٍ، كالمحبِّ يسارع في هوى محبوبه بل أشد، ولا يبخل بمال أو وقت أو جهد، ويستمر عطاؤه فيها واحتماله الأذى في سبيلها حتى لو قدِّر له أن يبذل نفسه التي بين جنبيه لبذلها متقرباً بكل ذلك إلى الله ساعياً إلى نيل رضاه.

---

(43) وقضايا المسلمين جميعاً.

ثم يعلم أن الجنة لا تُنال إلا ببذل النفيس: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ آل عمران [92]، وفي الحديث: «ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة» [44]، فيشتدُّ سعيُه ويشمِّر عن ساعد الجد، و«من لمح فجر الأجر هان عليه ظلام التكليف».

ويعلم أن النجاة من النار لا تكون بإيثار السلامة على تقحُّم المخاطر لأجل الله، فأمرُ الجهاد الواجب مبنيٌّ أصلاً على المخاطرة بالنفس، ومن فتَنَتْهُ الدنيا وأعماه بريقُ زُخرفِها عما خُلِق لأجله كان من الفاسقين: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ التوبة [24].

....

....

....

....

....

....

(44) صحيح: رواه الترمذي في جامعه (ج4/ ص633/ ح2450).

التزكية: مصدر من الثلاثي: زكى، وأصل الزكاة: النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ويُعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأُخروية [45].

ونقصد بتزكية النفس: «تطهيرَها من أمراض وآفات، وتَحَقُّقَها بمقامات، وتخلقَها بأسماء وصفات، فالتزكية في النهاية: **تطهر وتحقق وتخلق**» [46]، وهذا تعريف الشيخ الموفق سعيد حوى رحمه الله، وهو تعريف عميق يحسُن الوقوف معه لشيء من البيان:

- فقوله: «تطهيرها من أمراض وآفات»، يقصد به أمراض القلوب وآفات النفوس؛ كالكِبْر والعُجْب والحسد والتشهِّي والرياء، وهي العوائق التي تحولُ دون الوصول، وتجنِي على جهود السائرين بحرق حسناتهم وبضياع جهودهم واختلاف قلوبهم، وبدأ بالتطهير أولاً؛ إذ التخلية مقدَّمة على التحلية.
- وقوله: «وتحقُّقها بمقامات»، يعني نزولَها في مقامات العبودية، وتمكُّنَها من الأحوال الشريفة التي تمرُّ بالقلب، وتذوقَها حلاوة الإيمان، وارتواءها من كل منزلة من منازل السير إلى الله، كالتوبة والخشية والمراقبة والمحاسبة والمحبة والخشوع والتبتل والأُنس.

(45) مفردات ألفاظ القرآن، 311.

(46) المستخلص في تزكية الأنفس، 3

- وقوله: «وتخلقها بأسماء وصفات»، فلعله يقصد أن من كمال النفس أن تتخلَّق بأخلاق الله؛ كما في الأثر [47]، وأن تحرص على أن تصير الكمالات لها خلُقاً وسجية وعادة، كالرحمة والعفو والعطاء والستر والكرم.

فمجموع هذه العمليات- التطهُّر والتحقق والتخلُّق- هو حقيقة تزكية النفس، وهو المطلوب للوصول إلى الحالة المَرْضية فيها.

وبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة، «وتزكية النفس وتهذيبها من أهم الفرائض العينية وأوجب الأوامر الإلهية، قال السيوطي رحمه الله: وأما علم القلب ومعرفة أمراضه من الحسد والعجب والرياء ونحوها فقال الغزالي: إنها فرض عين» [48]، بل قد نيط الفلاح بها: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ الشمس [9]، والخسران والخيبة في تركها: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ الشمس [10]، فكيف لا تكون من أعظم الفرائض؟!

(47) هو قول للإمام الغزالي رحمه الله في المقصد الأسنى، ص45.

(48) الأشباه والنظائر، 204، ورياض الأنس في بيان أصول تزكية النفس، 22.

التزكية إذاً:

- تطهُّر من عيوب النفس ومقاومة لآفاتها ومعالجة لأمراضها، ومن شأن هذه الأمراض إن تُركت أن تهلك صاحبها؛ تماماً كأمراض الأبدان، ومرضُ البدن إن لم يعاجِلِ المرء إلى علاجه استفحل وانتشر وانتهى بهلاك صاحبه، وكذلك مرض القلب: إن أهمله العبد ملأ قلبه وملكَ نفسه واستحوذ على فكره وهمِّه فقضى بفساده، ولا يدخل الجنة إلا صاحب قلب سليم: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ الشعراء [89]، وأدنى منازل السلامة: السلامة من الأسقام المُرْدِية.

- تحقّقٌ بمعاني الإيمان وارتقاءٌ حقيقيٌّ في مدارجه، تعيشه القلوب حقاً وتتذوقه صدقاً، ويخالط الأرواح فيسمو بها وتحلّق في سمائه متنقِّلة بين بساتينه وروائع حقائقه، فينعكس هذا الشعور على الجوارح ويتحوَّل إلى سلوك يوميٍّ وبرنامج عمليٍّ حافل بالطاعات منسجم مع ما يعيشه القلب وتتذوقه الروح؛ براءةً من النفاق واصطباغاً ظاهراً وباطناً بلون الإيمان.

- تخلُّقٌ بأكمل الصفـات وتطـلب للارتقاء إلى منـازل الأصفياء، يبدأ بتمرين نفسه على طلب المكارم وتحلية نفسه بأحسن الأوصاف؛ حتى ترتاد النفس تلك المنازل وتصيرَ لها خلقاً أصيلاً ومسلكاً نبيلاً مُعتاداً من غير تكلف وعناء!

فإذا ما رافقت العنايةُ الإلهية العبدَ حتى ينال من كل خصلة من هذه الخصال القدر الكافي صار من عباد الله المخلصين وجنده المؤيدين: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ آل عمران [125]، فمفتاح هذا الإمداد- كما ترى-: الصبر والتقوى، وعليهما تدور رحى التزكية.

وما أحوج السائرين إلى الفتح إلى العكوف ههنا وسكب العبرات! فالمعركة قيد الحسم ما تحقَّقتْ صناعةُ هذا النمط من العباد المصطفَيْن الأخيار، الذين يستمدون من الله العزيز القوي القهار!

ورحم الله القائد المظفر قتيبة بن مسلم الذي أدرك مواقع الرجال فقد روى الذهبي في سير أعلام النبلاء عن الأصمعي قال: لما صافَّ قتيبة بن مسلم للترك وهالَه أمرُهم سأل عن محمد بن واسع، فقيل: هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه، يبصبص بأصبعه نحو السماء، قال: تلك الأصبع أحب إليَّ من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير [49]!

---

(49) سير أعلام النبلاء، 6/ 120.

وليس الأمر مقصوراً على الآخرة ونيل الثواب والنجاة من العقاب، وإنما لكل هذا انعكاس كما سترى على جوِّ العمل الميداني وعلى نتائجه الواقعية، فالفريق المقدسي أو الدعوي المعتني بالتزكية وتطهير النفس من شهواتها وأمراضها: فريقٌ منسجم متعاون متكامل، تجمعه الأخوة ويرافقه الدعاء وتحفُّ نشاطاته السكينة ويبارك الله في جهوده كثرتْ أو قلَّت: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ البقرة [265]!

والفريق البعيد عن المحاضن التربوية الخليُّ عن المعاني الإيمانية: فريق متنافس متشاحّ، تمزقه الأهواء وتفرقه المصالح ويمحق بركته الاستعراض!

وبعد:

فإذا اتضحت خريطة الطريق؛ فلنبدأ بالتعريج على منازله، ولنغترف من كلِّ منزلة غَرفة أو غرفتين، نقصد إلى الإشارة ولا نزيد، واللبيب من الإشارة يفهم، والحريص يتابع المسير؛ فالطريق- ولله الحمد- مستنير.

العلم

العلم من أوائل الواجبات التي تجب على العبد ومن أعظم القربات التي يتقرب بها إلى الله، وهو المقدَّم زمانياً على العمل، ورحم الله الإمام البخاريَّ الذي جاء في ترجمته لأحد أبواب صحيحه: «باب العلم قبل العمل»، وأردف مستدلاً بقول الله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ محمد [19]، أراد أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم في الآية بأمرين:

الأول: أن يعلم أنه لا إله إلا الله، فهذا جانب العلم.

والثاني: أن يستغفر لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات، وهذا عمل، فقدَّم الأمر بالعلم على الأمر بالعمل.

ومقصودُ سياقتنا لهذا الكلام:

دعوة العاملين في المجال الدعوي والمقدسي وفي أعمال الأمة العامة والخاصة إلى الإقبال على طلب العلم والالتفاف حول أهله والانكباب على كتبه، وهذا يقودُنا إلى الحديث عن أبواب العلم الذي نقصده من كلامنا، ولكن قبل هذا فلنقف وقفات مع فضيلة العلم وأهله وطلبه، فتتحفز النفوس إلى المضي في هذا الدرب والاجتهاد فيه والتشمير.

فضيلة العلم وطلبه:

استقصاء فضائل العلم يستغرق سِفْراً عظيماً، وحسبُنا في هذه العجالة إشارات، ولْنقف مع بعض الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف مع شيء من التعليق والبيان.

أولا قول الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ آل عمران [18]، ووجه الدلالة منه على فضيلة العلم: أن الله تعالى جعل شهادة أولي العلم معطوفة على شهادته سبحانه وشهادة ملائكته، مُعتَبَرَةً مع أعظم شهادة معتبرَةٍ في الوجود، وكفى بهذا شرفاً منيفاً للعلم وأهله.

ثم التعبير عنهم بعنوان: «أولوا العلم» فيه تنبيه على الوجه الذي لأجله كُرِّموا هذا التكريم وجيء بهم في هذا المقام الشريف.

وقد قصدتُ إلى تقديم هذا الوجه، وهو حقيقٌ بالتقديم لمن تأمَّل، فإنه وإن كان غيره أوضح دلالة منه فإن مضمونه على الغاية العليا من التنويه بشأن العلم والعلماء.

ثانياً قول الله سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ المجادلة [11].

وهو وعد كريم برفعة العلماء، وثمة مسائل:

الأولى ■ أن العلماء مرفوعون باثنتين: عامة وخاصة، فأما العامة فبالإيمان مع عموم المؤمنين، وأما الخاصة فبالعلم، فهم خاصةُ أهلِ الله.

الثانية ■ أن قوله: ﴿دَرَجَٰتٍۚ﴾ نكرة، والتنكير يفيد التعظيم، والمعنى: يرفعهم درجات عظيمة لا يُعرَف كنهها ولا يُتصوَّر حالها.

الثالثة ■ ما هي هذه الدرجات الموعودة؟ هي:

- درجات الآخرة في الجنة، وما بين الدرجة والدرجة فيها كما بين السماء والأرض[50].
- ودرجات الدنيا، حيث يُكرمهم الله بألوان الكرامات، ويرفعهم بين الناس، ويزرع حبهم في القلوب، ويُقدَّمون في المجالس، ويُجلُّون بين الكبار والصغار[51].

وقبل كتابة هذه الكلمات بأسبوع تماماً توفيَ شيخنا المفضال العلامة الربانيُّ الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي رحمات الله عليه وأنواره[52]، وكانت ليلة وفاته ليلة حزينة تبادل الناس فيها التعازي، وبكت العيون

---

(50) صحيح: رواه أحمد في مسنده، (ج37/ ص369/ ح22695).

(51) انظر مثلا: تفسير القرطبي، 20/ 319.

(52) توفي شيخنا رحمه الله ليلة السبت الرابع والعشرين من جمادى الآخرة 1443هـ، الموافق للثامن والعشرين من كانون الثاني 2022م.

وارتفعت الأكف سائلة الله تعالى المغفرة والرضوان لشيخ التفسير والدعوة والتربية في الأردن وفلسطين، وتدفَّق الجمْعُ الكبير إلى حيثُ الصلاة عليه ودفنُه في يوم مثلِجٍ بارد، واجتمعوا عند القبر بين الثلوج، وأنينُ باكيه ممتزجٌ بدعوات محبِّيه، فسبحان من أودع في القلوب حبَّه! هذا مشهدٌ من تجلِّيات الآية على الواقع، والمشاهدُ مثلُه كثيرة، ورحم الله من قال لأهل الدنيا وطلابها: «بيننا وبينكم الجنائز».

ثالثاً ■ قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الزمر [9]؟

وفيه: نفيٌ للتساوي بين العالِمين وغيرِهم ممن ليسوا بعالِمين، وهذه الطريقةُ في التفضيل على الغاية من البلاغة، من حيث إن طرح المسألة بهذا القالب يُطرِقُ أن المفاضَلَة بين الطرفين منفيَّةٌ أصلاً ومن شأنها أن لا تكون محلًّا للنظر، ولتتذوق النص بشكل أعمق: قارنْ بين هذا النص القرآني العالي وبين قولنا لو أردنا المفاضلة: «الذين يعلمون أفضل من الذين لا يعلمون»! تجد فرقاً كبيراً، فالآية تنفي المقارنة أصلاً بين الفريقين، وهذا ولا شكَّ أبلغ وأوفق للمُراد!

ومن الحريِّ بالتنبيه أن سياق الآية فيه توضيحٌ للمقصود حقيقةً من العلم، ولْنرجع إلى أول الآية: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾ الزمر [9]،

سنجدْ أن عندنا متقابِلَيْن، يحملُ كلٌّ منهما معادِلَين، وقوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الزمر [9] المقابل الثاني، وفيه معادلان: الذين يعلمون والذين لا يعلمون، أما المقابل الأول فقوله: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ الزمر [9] ومعادله محذوف تقديره: كمن ليس كذلك؟! ثم جعل أمام الذين يعلمون: أولئك القانتين الساجدين الحاذرين الراجين، وأمام الذين لا يعلمون: المعادلَ المحذوف: من ليس قانتا ولا ساجداً ولا حاذراً ولا راجياً، فتبين من ذلك أن:

العلماء حقيقة هم: القانتون الساجدون الحاذرون الراجون، فهؤلاء قوم تعلَّموا العلم فانفعلتْ به قلوبُهم وتحركتْ به أجسامُهم وبكتْ عيونهم وسجدت جباههم، وأما مَن لم يكن كذلك فليس من الذين يعلمون، وإنما هو من الذين لا يعلمون على الحقيقة، وإن حفظ المعلومات واستكثر، وتشدَّق بشَقْشَقَةِ المسائل!

رابعاً قول الله سبحانه معلِّماً نبيَّهَ صلى الله عليه وسلم ودالاًّ إياه على المنهج البيِّن والطريق القويم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ طه [114]، وبيانُ فضلِ العلم ههنا: أنه ما أُمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بطلب الازدياد من شيء؛ إلا من العلم، وهذا حقيقٌ ببيانِ منزلةِ العِلمِ والإشارةِ إلى سُمُوِّ قَدْره!

وفيه: توجيهٌ للمؤمن بدوامِ الطلبِ والعُكوفِ على مظانِّ تحصيلِ العلم، وفيه: مذمَّةُ القناعةِ بالمقدارِ القليلِ من العلم!

خامساً قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فاطر [28]، فالعلماء هنا هم الحقيقون بخشية الله وهم أهلها، وحسبك بهذا تزكية لهم وبياناً لمكانتهم، وإنما كانوا كذلك لأنهم عرفوا الله تعالى، ومن عرف الله كان حقاً عليه أن يخشاه وأن يعظمه، ثم الجهلُ بالله سببُ معصيتِه، ولأجل هذا المعنى قال الله تعالى في اليهود وأضرابهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ الأنعام [91]!

ولْنكتفِ بما ذُكر في بيان فضائل العلم من القرآن، ولنقطف من بستان النبوة ما يحفِّز الهمم ويقوِّي على سلوك السبيل:

أولاً قوله صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» [53]، وهذا الحديث من عظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيان فضل العلم وعلوِّ قَدْر مَن وفَّقه الله تعالى إلى سلوك طريقه، وهو مؤشِّر لمقام المرء عند الله؛ وللسالكِ أن يستبشر به ويحمد الله على توفيقه، ويسأل الله البلوغَ والقَبول.

---

(53) رواه البخاري في صحيحه (ج1/ ص25/ ح71)

ثانياً ■ قوله عليه الصلاة والسلام: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة»[54].

ثالثاً ■ قوله صلى الله عليه وسلم: «العلماء ورثة الأنبياء»[55].

وقال الحافظ ابن حجر: وشاهدُه في القرآن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ فاطر [32][56].

ثم قبل أن أترك المقام إلى غيره؛ أنصح القراء الكرام بمطالعة بعض الكتب التي من شأنها أن تنميَ حب العلم والرغبة في طلبه في صدورهم، مثل:

- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر رحمه الله.
- مفتاح دار السعادة لابن القيم، فقد استطرد استطراداً طويلًا، وبذل جهداً كبيراً في حشد الأدلة من الكتاب والسنة للدلالة على فضل العلم، وافتنَّ في الاستدلال، مع حاجة الكتاب إلى ترتيب وتهذيب.
- كتاب العلم من إحياء علوم الدين، وفيه من الفوائد ما تتأكد معه مطالعته ومدارسته وتأمله.
- الخطة البراقة لذي النفس التواقة لأستاذنا الدكتور صلاح الخالدي رحمه الله، فقد كتب الله له قبولاً عجيباً وتلقاه الطلبة والعلماء بالقبول والثناء والإقراء.

---

(54) رواه البخاري في صحيحه (ج1/ ص25/ ح71)

(55) رواه مسلم في صحيحه (ج2/ ص2074/ ح2699)

(56) حسن: رواه أحمد في مسنده (ج36/ ص46/ ح21715).

- قيمة الزمن عند العلماء، وصفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، كلاهما للشيخ عبد الفتاح أبي غدة رحمه الله، وكلاهما في الرتبة العلية من الجودة والإمتاع والإفادة.
- ارتياض العلوم، للشيخ مشاري الشثري، وقد جوَّده وحسَّنه وارتقى به إلى القدر الذي تحسن معه قراءته قراءة جماعية، ومناقشة ما احتواه من الفوائد والملاحظ، ثم الكتب غير ذلك كثير، وأنا زعيم لمن قرأها بأنه سيجد طاقة عالية للانطلاق إلى الطلب والتحصيل والقراءة، وبقي أن أنبه على أنه يلزمُ طالبَ العلمِ أنواعٌ من الممارسات العلمية:
- حضور الدروس والدورات العلمية المنهجية بين يدي العلماء.
- مدارسات الكتب المهمة مع الأقران والخِلّان ومناقشة مضامينها واستعراض مسائلها.
- التخطيط للمدارسة الذاتية والمطالعة العلمية والثقافية للكتب الحقيقة بذلك، وكلٌّ من هذه الأنواع يفتقر إلى استشارة أهل العلم وبناء برنامج متكامل ليصحَّ لطالب العلم مقصودُه.
- تدريس هذه العلوم على المستوى المناسب لحالته العلمية، فإن خير ما يجمع العلم في القلب ويمكِّنه فيه: التعليمُ.

أولويات الطلب:

ما العلم المطلوب درسُه ليُسهِم في تزكية النفس ويستعينَ به السائر في طريق الدعوة والتحرير على المضيِّ؟

لا نتكلم هنا عن أيِّ علمٍ كان، وإنما نتكلم عن أشرف العلوم التي تحصُل بها تزكيةُ نفس السائر في طريقه المبارك، وعليه فيمكننا أن نقول: إن العلم بالله، والعلمَ برسول الله صلى الله عليه وسلم وأحواله، والعلمَ بشريعة الله، هو ما يلزم السالك في هذه الطريق، ثم يلزمُه العلمُ المتعلِّق بالقضية التي يعملُ لأجلها- قضيةُ القدسِ وفلسطين-مثلا- أو القضية التي تليه من قضايا المسلمين [57]، ولنعرِّج على كل ذلك على شرط الاختصار.

(57) قضية القدس نموذج لقضايا المسلمين، وقضاياهم لا تتزاحم لا تتعارض، والسؤال الذي يطرحه بعض العاملين في المفاضلة بين قضايا المسلمين الداخلية وقضية القدس، أو بين الهم الوطني وهم الأمة، أو بين الهموم العامة وطلب العلم أو بين طلب العلم وممارسة الدعوة؛ كلها أسئلة تحمل مغالطة مبدئية وهي افتراض وجود تناقض يفضي إلى الحاجة إلى الترجيح والمفاضلة! في حين أن الحق أن كل هذا من المتكامل المتداخل.

أولاً: العلم بالله

إن أشرف العلوم على الإطلاق هو العلم بالله، لا عجب؛ فشرف العلم بشرف المعلوم! وإن أول ما خاطب الله تعالى به نبيَّه صلى الله عليه وسلم أنْ عرَّفه على نفسه، وقد تعرَّف إليه بعنوان الخالِقِيَّةِ والتعليم، اقرأ قوله سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤﴾ العلق [1-4]، فالواجب على كلِّ أحدٍ أن يعرف ربه، والمحبةُ منوطةٌ بالمعرفة، إذ كيف يحبُّ الإنسان شيئاً يجهلُه؟!

والمطلوبُ من العبد أولاً أن يعلم أنه «لا إله إلا الله»، وأن يطالعَها قلبُه وأن تسكنَ إليها نفسُه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ محمد [19]، وأن يشهد بالوحدانية لا بلسانه فحسب، وإنما بكُلِّه.

ثم التعرُّف إلى الله يكون بسبيلَين:

السبيل الأول

أن يتعرَّف إليه بالنظر في مخلوقاته وأحوالِها، فإنه بلسان حالها دالة عليه؛ فيستدلَّ بها على وحدانيته وعلى رحمته وحكمته وقوته وتدبيره وعلمه وقربه وجبروته ورازقيَّته ومالكيَّته وتنزهِّه عن النقائص واتصافِه بالكمالات.

والنظرُ في المخلوقات يُورِث معرفةَ الخالق، ألا ترى أن النظرَ في الصنعةِ يُطلعك على صفةِ صانِعِها ودرجةِ إتقانه ودقَّتِه وحِكْمتِه وتخصِّصِه ونوعيةِ

اهتمامِه ومستواه العقليِّ والعلمي والذوقي...؟

وأنصح ههنا بمطالعة كتاب ابن القيم «مفتاح دار السعادة» للمزيد حول هذه النقطة، وأنصح كذلك بمطالعة كتاب: «شموع النهار» لعبد الله العجيري؛ فإن فيه ما يملأ القلب إيماناً مع مزيد أدلة دامغة على دحض شبه الإلحاد، وقد أصدر «مركز تكوين» العديد من الدراسات النافعة لمعالجتها والردِّ الوفي عليها بالتفصيل.

وما أحسن الملحظ الذي أشار إليه ابن عطاء الله السكندري حين قال: «أباح لك أن تنظر ما في المكوَّنات، وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكوَّنات: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يونس [101]، فبقوله: ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يونس [101] فتح لك باب الأفهام، ولم يقل: «انظروا السموات» لئلا يدلك على وجود الأجرام».

يقول ابن عجيبة في إيقاظ الهمم:
«إنما أبرز الله هذه المكوَّنات وأظهر هذه العوالم ليُعرَف بها ويظهر نورُه فيها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ الدخان [38، 39]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ المؤمنون [115].

قال في لطائف المنن: «فلما نصبت الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاها... فأباح لك أيها الإنسان أن تنظر ماذا في السماوات والأرض من النور الذي قامت به الأشياء... فمن وقف مع ظاهرها كان محجوباً، ومن نفذ إلى باطنها كان عارفاً محبوباً.

ولأجل هذا السر قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يونس [101] أي ما فيها من عظمته ومعاني أسرار ذاته وكمال قدرته وإرادته وسائر صفاته، فقد فتح لك باب الأفهام؛ أي فتح لك باب الفهم لتدخل بها من ظاهر القشر إلى باطن اللب حتى تعرفه في كل شيء وتفهم عنه في كل شيء، ولو قال الحق تعالى: «قل انظروا السماوات» لدلّك على الأجرام وسدَّ لك باب الأفهام، وكيف يدلك على الأجرام وهي أغيار، والأغيار مانعة من الدخول إلى شهود الأنوار!

ومثال ذلك في التقريب لو قال لك قائل: انظر هذه الثلجة، لدلك على ظاهر جرمها، ولو قال لك: انظر ما في هذه الثلجة، لفتح لك باب الفهم إلى نظر ما في باطنها من الماء، ومن الوقوف مع ظاهر جرمها» [58].

(58) إيقاظ الهمم لابن عجيبة، ص156

أما السبيل الثاني إلى معرفة الله والعلم به

فالنظر في أسمائه الحسنى سبحانه وصفاته العليا المبثوثة في القرآن والسنة، وبمعرفة معاني كل منها ودلالاتها وقولِ أهل السنة فيها، وبتنزيهِ الله تعالى عن المِثْل والندِّ والضدِّ، وبالتسليم لله تعالى بما وصف به نفسه من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل.

وبمعرفة متعلَّقات الأسماء الحسنى:

- **فالرحيم** اسم يتجلى الله به على عباده المرحومين، والرحمن اسم يرحمهم به ويرحم سواهم من المخلوقات، والرحيمُ دائم الرحمةِ والرحمنُ كثيرها، والجمعُ بين الاسمين في البسملة وفي آية الفاتحة وغيرها لبيان وصف رحمته، فإنها رحمة عظيمة ودائمة، ثم إن هذا الرب الرحيم لا يذر عباده المؤمنين نُهبةً للضلال ولا للاحتلال، ومهما حاول الظلمة محوَ دينه والإغارةَ على ثوابت الوحي الذي أَنزلَ على رسوله صلى الله عليه وسلم ومهما أرادوا اجتثاث المسلمين؛ فإن رحمة الله أوسعُ ووعدَه الكريمَ نافذٌ بحفظ الأمةِ ورحمتها، فيمسك عليهم دينَهم ويهيِّء لهم من العلماء الراسخين من ينفي عنه تحريف المبطلين وتأويل الجاهلين، ويحفظُ نفوسهم من أن تأتي عليها مؤامرات الأعداء ومكايد الطغاة: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: 111].

» **والغفور** اسمٌ يتجلى الله تعالى به على المستغفرين المنكسرةِ قلوبُهم جرَّاء الذنب الفارط منهم، المقبلةِ قلوبهم تستجدي المغفرة والعفو، **وهو العفوُّ**؛ كثير العفو عن المسيئين النادمين الذين يقفون ببابه؛ يسألون العفو عن الزلل والتقصير والصغير والكبير، وإلى عفوه ومغفرته يلجأ السائر في طريق الفتح سائلاً الله تعالى أن يعفو عنه وعن إخوته في الطريق، وأن يغفر ذنوبهم ليستأهلوا نصر الله الذي ينصر عباده الصالحين.

» **والقريب المجيب القدير** الذي يعلم حال عبده وحاجته إليه وفقره وضعفه، ويرى كَفَّيْه وقد ارتفعتا إلى السماء يطلب العون والغوث والإمداد، فيجيبه ويكفيه ويرويه ويُنجيه ويعطيه؛ فيدهشه العطاء! ويعلم أنه لا بعيد عليه ولا صعب ولا ثقيل، فيتوقَّد لديه الأمل وينخنس عنده اليأس، فهو يعلم أن ربه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير، لا إله إلا هو، فيقصد بابه ويدع كل باب، ويلجأ إليه دون سواه، ويعلم أن كلَّ سبب فهو في الحقيقة مسبِّبُه، وكلَّ بادٍ وظاهرٍ فهو في الحقيقة أبداهُ وأظهرَه.

» **والجبَّار المتينُ المنتقمُ القهَّار** الذي يقصِمُ ظهور الجبابرة والطغاة والظلمة والمحتلِّين ويذلُّهم وقد تكبروا ولبسوا زوراً رداء الربوبية على الخلق، ويكسرُ رقابَهم ويُرغِمُ أنوفَهم ويقهرُهم ويُنيل المظلومين منهم، ويسحقُ ملكهم ويذهب بدولةِ باطِلِهم ويشفي منهم الصدور، ويستخلف ربي من بعدهم ما يشاء.

والقويُّ العزيز الذي لا يُهزم ولا يضامُ ولا يُرام بسوء، ولا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، فإن رأى المؤمنُ قوةً من قوى الأرض المرهوبةِ حقُرت في عينه لعلمه أنه كالذرة بين يدي **الملك** القويِّ العزيز، فأين ملوك الأرض وسلطانُهم وهيبتُهم ومنعَتُهم، وأين أساطيلهم وجنودهم وأسلحتهم إلى قوته وعزته وجنده وملكوته؟

والرزاق القابض الباسط، الذي يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً، ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ هود [6]، فتطمئنُّ نفسه ويرتاحُ قلبُه ويثقُ أنَّ رِزقَه على الله وحده: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ الذاريات [22، 23]، فلا يرهبه تهديدُ الظلمة بالتضييق، ولا يكتمُ كلمةَ حقٍّ أو يتنازلُ عن ثابتٍ من ثوابت دينه وحقوق أمته خوفاً من المحتلين وأعوانهم، ولا يتوسَّل بدخول مزبلة التطبيع إلى الحصول على المال أو المنصب! فهو يثق بأن رزقه على الله الذي يقبض الرزق ويبسطه وَفقَ حِكمته، فله الحمد على كل حال.

والمحيي المميت، الذي لا يموت حيٌّ إلا بانقضاء أجلٍ هو قدَّره، ولا يوجد معدومٌ إلا هو في الحقيقة أوجده، فتطمئنُّ نفسُ المؤمن بأن اقتحامَ المعارك لأجل الإسلام لا يُنقصُ الأَجل، وأن الانكفاءَ والجُبْنَ لا يزيد

العمرَ ولا يؤخِّر الأجَل، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ الأعراف [34]، فعلامَ التقاعسُ إذاً؟ ولماذا التثاقلُ عن القيام بأمر الله؟ وكلُّ رزق مقسوم، وكل أجل مرسوم! فلا زيادة بجبن، ولا نقصان بشجاعة! فترى هذا العبد ممسكاً بعنان فرسه ينتظر الهيعة للجهاد! مقتحماً كل عقبة ينصر خلالها دينه ويدافع عن مقدساته، فهو ما بين رباط على بوابات المسجد ومناكفة مباشرة للمحتل، أو في خندق من خنادق الرباط، أو على ثغر فكري ثقافي يخطب ويعلِّم ويحرِّضُ على مقاومة المحتل، أو يجمع التبرع ويحث على الإنفاق، أو ينتقل في الدعوة والوعظ والتعليم من حلقة إلى أخرى ومن برنامج إلى آخر؛ كالنحلة: دائمةُ الحركة من زهرة إلى أخرى ومن بستان إلى بستان، ثم ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ النحل [69].

وهكذا؛ يقف مع كل اسم من أسماء الله فيتعرَّف إليه ويتأمل في متعلَّقه، ويدعو الله تعالى به: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ الأعراف [180]، ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ الإسراء [110]، ويتحرَّك بمقتضاه على الأرض؛ آملاً أن يكون ممن أحصى الأسماء الحسنى: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة»[59].

(59) رواه البخاري في صحيحه (ج3/ ص198/ ح2736).

ثانياً: العلم برسول الله صلى الله عليه وسلم

الشهادة برسولية محمد صلى الله عليه وسلم شرط الإيمان، ولا إيمان لمن لم يؤمن بذلك، وللإيمان به صلى الله عليه وسلم مقتضيات، **ومن أهم مقتضياته: الحبُّ والاتباع**، وكلاهما يفتقر إلى العلم به وبأحواله صلى الله عليه وسلم، فلنستعرض على عجالة كُلَّاً منهما.

المقتضى الأول: الحب، والحبُّ شرط لصحة الإيمان

وفي الحديث عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين» [60]، وقد أخرجه الإمام البخاري رحمه الله في كتاب الإيمان، باب «حب الرسول صلى الله عليه وسلم»، وهذا الشرطُ واجبُ التحصيل، وعلى العبد أن يسعى في تحصلِ هذا الحبِّ وأن يعتنيَ بذلك ويسلكَ إليه السبُل ولا يغفلَ؛ فإن عواقب الغفلة ههنا وخيمة، قال القرطبي صاحب المفهم:

«ومن المؤمنين من يكون مستغرقًا بالشهوات، محجوبًا بالغفلات عن ذلك المعنى- أي: محبة النبي صلى الله عليه وسلم - في أكثر أوقاته، فهذا بأخسِّ الأحوال، لكنه إذا ذُكِّر بالنبي صلى الله عليه وسلم وبشيء من فضائله اهتاج لذكره واشتاق لرؤيته، بحيث يؤثِر رؤيته... غيرَ أنه سريعُ الزوال

(60) رواه البخاري في صحيحه، (ج1/ ص12/ ح14).

والذهاب لغلبة الشهوات وتوالي الغفلات، ويُخاف على مَن كان هذا حالُه ذهاب أصل تلك المحبة، حتى لا يوجد منها حَبَّة، فنسأل الله الكريم أن يمنَّ علينا بدوامها وكمالها، ولا يحجبنا عنها»[61].

وهذا الحبُّ لا يتأتى من غير معرفة، وكيف يحب المرء من لا يعرف؟! ومن عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبه ولا شكّ؛ فالإنسان مفطورٌ على حبِّ الجمال! والجمالُ في رسول الله صلى الله عليه وسلم جمالان: جمالُ خِلقة وجمالُ خُلُق.

فأما جمال الخِلْقة:

فإنما يُعرف بالنظر في وصفه صلى الله عليه وسلم وما رواه أصحابه عن هيئته، وما أودعه المُحدِّثون من ذلك في كتبهم عموماً وفي كتب الشمائل خصوصاً، وأشهر تلك الكتب التي روت لنا أوصافَه الجميلة: كتابُ الشمائل المحمدية للترمذي رحمه الله تعالى، ولنختر[62] منه بعض الأحاديث المطربة في أوصاف جماله صلى الله عليه وسلم، فاقرأ وتفكر:

◆ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن أنس بن مالك أنه سمعه يقول: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، وليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم، ولا بالجعد القطط ولا بالسبط، بعثه الله على

(61) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم، (1/ 227)

(62) انظر: الشمائل المحمدية للترمذي، وقد اخترنا من عموم الكتاب أحاديث متفرقة.

رأس أربعين سنة فأقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، وتوفاه الله عز وجل على رأس ستين سنة [63]، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء صلى الله عليه وسلم» [64].

وقوله: «لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطويل البائن ولا بالقصير»، أي: لم يكن طوله طولاً بائناً خارجاً عن الاعتدال، واللفظُ يُشعر بأنه صلى الله عليه وسلم كان أميلَ إلى الطول بالنسبة إلى القصر، وهو الممدوح.

وقوله: «ولا بالأبيض الأمهق»، أي الشديد البياض كلون الجصّ، وقوله: «ولا بالآدم»: من الأُدمة وهي السُّمرة، والمراد: أنه ليس بالأبيض الشديد البياض ولا بالآدم الشديد الأُدمة، وإنما يُخالط بياضَه الحُمرةُ.. صلى الله عليه وسلم.

وآخر الحديث: «وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء صلى الله عليه وسلم»، وفي حديث أنس رضي الله عنه: «ما عددتُ في رأس رســول

---

(63) قال الحافظ: "وأخرج مسلم من وجه آخر عن أنس أنه عاش ثلاثا وستين"، وهو موافق لحديث عائشة رضي الله عنها، وبه قال الجمهور، وحُملت هذه الرواية على إلغاء الكسر"، فتح الباري، 6/ 570، باختصار.

(64) رواه البخاري في صحيحه، (ج1/ ص487/ ح3547).

صلى الله عليه وسلم ولحيته إلا أربع عشرة شعرة بيضاء»[65].

◆ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً مربوعاً بعيد ما بين المنكبين، عظيم الجُمَّة إلى شحمة أذنَيه، عليه حُلَّةٌ حمراء لم أر شيئا قط أحسن منه»[66].

وقوله: «كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم رجلا مربوعاً»، المربوع بين الطويل والقصير، «بعيد ما بين المنكبين»، المنكب: مجمع عظم العضد والكتف، والمقصود: عريضُ أعلى الظَّهْر، ويلزمُه أنه عريضُ الصدر، وذلك آية النَّجابة[67].

أما **وصـف شَعـره صلى الله عليه وسلم**؛ فقد اختَلف بحسَب الرواة الذين يصِفُون حاله، ومعلوم أن حال الشَّعر يختلف من حينٍ إلى آخر، وفي حديثنا هذا: «عظيم الجُمة إلى شحمة أذنيه»، وفي رواية أخرى عن أنس رضـي الله عنه: «كان يـضرب شعره منكبيه»[68]، وصـفٌ لطول شعـره،

(65) صحيح: رواه أحمد في مسنده، (ج20/ ص119/ ح12690).

(66) رواه البخاري في صحيحه، (ج4/ ص188/ ح3551)، الجمة أكثر من الوفرة ، فالجمة الشعر الذي نزل إلى المنكبين ، والوفرة ما نزل إلى شحمة الأذنين ، واللمة التي ألمت بالمنكبين .

(67) شرح الشمائل للباجوري، 32.، وانظر: جمع الوسائل في شرح الشمائل، 1/ 17.

(68) رواه البخاري في صحيحه، (ج7/ ص161/ ح5903).

الشعر النازل إلى المنكبين، وقد ذهب الإمام النووي تبعاً للقاضي عياض إلى أن الروايات المختلفة في طول شعر النبي صلى الله عليه وسلم يمكن أن يُجمع بينهما بأن ما يلي الأذن هو الذي يبلغ شحمة أُذنيه، وما خلفه هو الذي يضرب منكبيه [69].

- عن عليٍّ رضي الله عنه قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل ولا بالقصير، ضخم الرأس واللحية، شثن الكفين والقدمين، مشرب وجهه حمرة طويل المسربة، ضخم الكراديس، إذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب، لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم» [70].

قوله: «شَثْنَ الكفَّينِ والقدمينْ»، يعني: «يميلان إلى الغِلَظ والقِصَر، وقيل: هو الذي في أنامله غلظ بلا قصر، ويُحمد ذلك في الرجال لأنه أشدُّ لقبضهم، ويُذمُّ في النساء» [71]، والتحقيق- عند الحافظ ابن حجر- أن الشّثْنَ: الغِلَظُ من غير قيدِ قِصَرٍ ولا خُشُونة [72].

---

(69) شرح النووي على مسلم، 15/ 91.

(70) صحيح: رواه أحمد في مسنده، (ج2/ ص144/ ح746).

(71) النهاية في غريب الحديث، 2/ 444.

(72) فتح الباري، 10/ 359.

وقوله: «ضخم الرأس»، أي: عظيمه، وفيه دليلٌ على كمال القوى الدماغية، وهو آية النجابة [73].

وقوله: «ضخم الكراديس»، وهي رؤوس العظام، وقيل: هي ملتقى كلِّ عظمين ضخمين، كالركبتين والمرفقين والمنكبين، والمراد: أنه ضخم الأعضاء [74].

وقوله: «دقيق المسربة»، فالمسربة: الشعر المستدقُّ الذي يأخذ من الصدر إلى السرة [75].

وقوله: «إذا مشى تَكَفَّأ تَكَفُّؤًا كأنّما انْحَطَّ مِن صَبَبٍ»، وصف لمشيته صلى الله عليه وسلم، وهي مشية قويٍّ واثق، فيها سرعةٌ وجِدّ، قال القاري رحمه الله: "المعنى: يمشي مشيًا قويًّا سريعًا، وفي شرحِ السنَّة: «الصَّبَبُ الحدُور، وهو ما ينحدرُ مِن الأرضِ، يُريد أنه كان يمشي مَشيًا قويًّا يرفع رجْليه من الأرض رفعًا بائنًا» [76].

---

(73) شرح صحيح البخاري لابن بطال، 9/ 157.

(74) تحفة الأحوذي، 10/ 81.

(75) الصحاح للجوهري، 1/ 147.

(76) شرح السنة، (ج13/ ص222).

وأما جمال الخُلُق:

فيكفي في ذلك أن تقرأ ثناء ربه سبحانه عليه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ القلم [4]، وإنها لعمرو الحق كافية في تصوير السموِّ الخُلُقيِّ الذي بلغه محمد صلى الله عليه وسلم، ويكفي كذلك وصفُ زوجِه عائشةَ رضي الله عنها له- وزوجةُ الرجل أدقُّ وأصدقُ الشاهدين له- لما قالت فأوجزت وأوعبت: «كان خلُقُه القرآنَ» (77)، وهي المطَّلِعةُ على الشقِّ البيتيِّ الذي لا يطَّلع عليه من الناس أحدٌ إلا أقربَهم وألصقَهم به، ولنختر بعض الأحاديث الواردة في مجامع أخلاقه صلى الله عليه وسلم، والإحالة هنا كذلك على كتاب الشمائل المحمدية للترمذي رحمه الله:

- عن عمرو بن العاص قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبل بوجهه وحديثه عليّ، حتى ظننت أني خير القوم، فقلت: يا رسول الله، أنا خير أو أبو بكر؟ فقال: أبو بكر، فقلت: يا رسول الله، أنا خير أم عمر؟ فقال: عمر، قلت: يا رسول الله، أنا خير أم عثمان؟ فقال: عثمان، فقال عمرو بن العاص: فلما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فصدَقَني، فلودِدت أني لم أكنْ سألتُه» (78).
- عن أنس رضي الله عنه قال: «خدمتُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عشرَ سنينَ، فما قال لي أُفٍّ قطُّ، وما قال لي لشيءٍ صنَعتُه: لِمَ صنعتَه؟ ولا

(77) صحيح: رواه أحمد في مسنده (ج41/ ص149/ ح24602).

(78) صحيح: رواه الترمذي في الشمائل، (ص196/ ح327).

لشيءٍ تركتُه: لِمَ تركتَه؟ وكان رسولُ الله من أحسنِ الناسِ خُلُقًا، ولا مسستُ خَزًّا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألينَ من كفِّ رسولِ الله، ولا شممتُ مِسكًا قط ولا عِطرًا كان أطيبَ من عَرَقِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم» [79].

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياءً من العذراء في خِدْرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرَفْناه في وجهه» [80].
- عن ابن المنكدر سمع جابر بن عبد الله قال: «ما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال: لا» [81]، صلى الله عليه ما أكرمه وما أحلمه وما أجمل حياءه!

هذا غيضٌ من فيض، ثم قل لي بربك: مَن يعرف شخصاً متصفاً بمثل هذه الصفات أفلا يحبُّه؟!

ثم لا ينبغي أن يقف الأمر هنا، ولا أن تتوقف العلاقة برسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذا الحدِّ العامِّ، بل واجبُ المحبة يقتضي أن يقصد

(79) صحيح: رواه الترمذي في سننه، (ج3/ ص436/ ح2015). وهو عند البخاري بنحوه.

(80) رواه البخاري في صحيحه، (ج8/ ص26/ ح6102).

(81) أخرجه البخاري (6034)، ومسلم (2311).

المحبُّ إلى سيرة حبيبه صلى الله عليه وسلم يستقصي تفاصيلها، يهدف من خلال معرفة سيرته الشريفة إلى تحقيق غايتين:

الأولى: مزيد من المحبة، فالمعرفة تورث مزيداً من المحبة مع الكُمَّل، بخلاف أكثر الناس، الذين إن اقتربت منهم اطّلعتَ على ما لا يعجبك فيهم وعلى سوءاتٍ مخفية وعورات مستورة عن العيون، والأمر ليس كذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنك كلما اقتربت اطَّلعتَ على مزيدٍ من كمالاتِ الأخلاقِ ومحاسنِ الصفات؛ فأحببتَه أكثر صلى الله عليه وسلم، ولأجل هذا كان أكثر الناس قرباً منه أشدَّهم حباً له!

ومن عـادة المحبين استقصـاءُ تفاصيـلِ حياةِ أحبابهم، وكذلك محبُّو رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل هم أَوْلى المحبِّين بحبيبهم وبخدمة حِبِّهم وقربهم منه، فالواجب: الإقبال على سيرته والتفتيشُ عن دقائقها، والتأمُّلُ مواقفِه والتفكُّرَ في قراراته، وتفحُّصُ مسلكِه مع أهله ومع أصحابه ومع أعدائه، ودراسةُ منهجه في الدعوة، والحرصُ على فهمه فهماً تاماً ليستعين بكل ذلك على **الغاية الثانية، وهي الاقتداء والاتباع**، وهو المقتضى الثاني من مقتضيات الإيمان به صلى الله عليه وسلم بعد الحب.

◆ المقتضى الثاني للإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم: الاتباع ◆

وهو فرعٌ عن الحب كذلك، ولنبدأ ببيان كونه مقتضى الإيمان برسول الله، ثم نبيِّن وجه كونه فرعاً عن حبه صلى الله عليه وسلم:

أما كونـه مقتضى الإيـمان؛ فإن شرط الإيمان الإقرارُ من بعدِ التصديق بأنه صلى الله عليه وسلم رسولٌ من عند الله، بل الرسولُ الخاتَم، وسيد ولد آدم بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم، وما دام رسولاً من عند الله؛ فإن اتباعه واجب باعتبار رسوليَّته، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ النساء [46]، فبيَّن أنه ما أرسل رسولاً إلا لتحقيق هذه الغاية التي هي طاعة الرسول، فإن طاعة الرسول طاعةٌ لمرسله سبحانه.

وأَمَرَ صراحة بطاعة النبي صلى الله عليه وسلم مراراً في القرآن، وجعله شرط الإيمان فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١﴾ الأنفال [1]، وجعله سبيلاً لنيل الرحمة فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ آل عمران [132]، وأوجب الائتمار بما أمر به الرسولُ والانتهاء عما نهى عنه فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ الحشر [7].

وأما كونه فَرْعاً عن الحب؛ فهذا كما يقال: مَنْطِقُ الأشياء! وفي ديوان الشافعي:

تَعصي الإِلَهَ وَأَنتَ تُظهِرُ حُبَّهُ هَذا مُحالٌ في القِياسِ بَديعُ
لَو كانَ حُبُّكَ صادِقاً لَأَطَعتَهُ **إِنَّ المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطيعُ**

فقانون الحب يقضي وجوب الاتباع والتشبّه والاستقصاء في كل ذلك،

ورضي الله عن ابن عمر الصحابيِّ المحب، فقد كان حريصًا كل الحرص على أن يفعل ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعله، وكان يحفظ ما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ويسأل من حضر - إذا لم يحضر - عما قال أو فعل، وكان يتتبع آثارَه، ويصلي في كل مسجد صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم، شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، فوقف معه بعرفة؛ فكان يقف في ذلك الموقف كلَّما حج، ولا يفوتُه الحج في كلِّ عام [(82)]، وتقول في ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «مَا رَأَيْتُ أَلْزَم للأمرِ الأوَّل مِن عبد الله بنِ عمر» [(83)]، حتى إنّ النبي نزل تحت شجرة، فكان ابن عمر يتعاهد تلك الشجرة، فيصبُّ في أصلها الماء لكيلا تيبس [(84)]، وهذا حقاً منطق الحب وقانونه!

ومن الطبيعي ألَّا يحصل الاتباع على وجهه ما لم تُعرف السيرة بدقائقها وتفاصيلها، وما لم يُستوعَبْ منهجُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحياة بالقرآن، وعليه فيجب على المحبِّ أن يأرز إلى كتب السيرة التي تروي تفاصيل حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريقة عيشِه ومُخالقَتِه للناس وقيامه على أمر الدعوة، ومن أهم تلك الكتب المصوغة بلغة مناسبة لأهل العصر:

---

(82) أخرجه البخاري في صحيحه (3052).

(83) ضعيف: رواه الحاكم في المستدرك (ج3/ ص644/ ح6365).

(84) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (ج31/ ص121).

- الرَّحيق المختوم للمباركفوري.
- السيرةُ النبوية لعماد الدين خليل.
- فقهُ السيرة للشيخ محمد الغزالي
- السيرةُ النبوية، د. علي الصلابي.
- السيرة النبوية، د. محمد أبو فارس.

والاتباعُ بطبيعة الحال لا يقف عند المظهر والمِشية والجِلسة والأَكْلةِ والنومة؛ وإن كان هذا كتحصيل الحاصل، إنما الاتباعُ الحقيقيُّ في المنهج، والحبُّ الحقيقي في الحرص على نصرة دينه صلى الله عليه وسلم، والدفاع عن مسراه المقدَّس، ومقاومة أعدائه الذين احتلوا قبلته الأولى، وكانوا من قبل قد تآمروا عليه في المدينة، وتعاونوا مع المشركين عليه، ونقضوا معه العهود، وألَّبوا عليه قبائل العرب، بل حاولوا اغتياله في بني النضير، ودسُّوا له السمَّ في خيبر، حتى قال صلى الله عليه وسلم في مرض وفاته: «ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهُري من ذلك السم» (85).

إن العاملَ لأجل القدس ولأجل قضايا المسلمين ولأجل دعوة الإسلام لا يَسعُه إلا الامتلاء من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم؛

(85) رواه البخاري في صحيحه (ج6/ ص9/ ح4428).

الذي قضى شطراً من حياته يُواجه مؤامرات اليهود ويجابهُ مكايدَهم، وهو صلى الله عليه وسلم النموذجُ التطبيقيُّ العمليُّ للقرآن الكريم، وسيرته تمثِّل المنهج الأكمل للتطبيق الإسلامي على الأرض، ومن قبلِ ذلك ومن بعدِه لا يصحُّ إيمان العبد إلا بالشهادة له بالرسالة وبحبه على الكمال من الحب، وبطاعته على التمام، وبالتسليم لحكمه تسليماً لا تخالطه شوائب التردُّد: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ النساء [56].

ثالثاً: العلم بشريعة الله

ثم الطريق إلى الله سبحانه على منهج رسول الله لا يتم إلا بمعرفة شريعة الله التي جاء بها خيرُ البشر صلى الله عليه وسلم، واللهُ تعالى أنزل شريعة تَحْكُم حياةَ عبادِه ابتداءً بالشعائر التعبدية وانتهاء بكل تفصيل من تفاصيل حياتهم، فالله الذي خلق؛ هو صاحب الحق في الأمر: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾الأعراف [45]، وهو سبحانه لا يُعبد وفقاً للأهواء وتشهِّي النفوس، وإنما أنزل على عباده وصف السبيل الذي يصلون به إليه، ووضَّحه تمام التوضيح فيما أوحاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم في القرآن أو عبر السُّنة، وكلٌّ منهما وحيٌ واجبُ الاتباع: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾النجم [3-5]، وقد كمُل الدين وتمَّت النعمة فلا حاجة لابتداع

شيء في الدين لا يدلُّ عليه دليلٌ من الكتاب أو السنة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ المائدة [3].

والعلمُ بهذه الشريعة من علامات التوفيق، وفي الحديث: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، وقد قدَّمنا في بداية الحديث فصلاً يتعلق ببيان منزلة العلم وشيئاً من فضائلها، ولا يَسْمح المقام بالزيادة، ولكن نقول: نظر العلماء[86] إلى العلوم الشرعية وقسَّموها من حيث حكمُها إلى قسمين:

الأول ■ العلم الذي هو فرض عَيْن، ويشمل من علوم الشريعة ما يلزم المسلم لتصحَّ عباداته ولتستقيم حياته على منهج الله من غير ولوغ في المحرَّمات، كالعلم بأحكام الطهارة وأحكام الصلاة والصيام، وأحكام العمرة والحج إن أداهما، وأحكام الزكاة إن وجبت عليه، وأحكام البيوع إن كان عاملاً في التجارة، وهكذا، يتعلَّم من ذلك ما تَصِحُّ به عباداته ومعاملاته، وهذا من الواجبات العينية عليه.

الثاني ■ العلمُ الذي هو فرضُ كفاية، وهو ما كان زائداً على ما سبق، فدقائقُ فقه العبادات التي يحتاج بعض الناس إلى الاستفتاء فيها هي من الفروض الكفائية التي يجب على الأمة أن تؤهِّلَ من أبنائها من يَكْفيها مُؤْنة التخصص في العلوم الشرعية، وقُلْ مثلَ ذلك في فقه المواريث وأحكام

(86) انظر مثلاً: إحياء علوم الدين، 1/ 13 وما بعدها.

الزواج والطلاق والمعاملات والعلاقات الدولية، واللغة والتفسير وعلوم الحديث، ودقائق علم التوحيد وسبل الرد على المبتدعة والملاحدة وملل الضلال.

وكل ذلك من العلوم الشرعية التي حثَّت النصوص على تعلُّمها ورغَّبت فيه أيَّما ترغيب، واختصاصُ المرء فيها مع حسنِ نيةٍ وقصدٍ يورثُه منزلةَ الإمامة في الدِّين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء!

وخيرُ ما يملأ المرءُ به وقته ويُفنِي فيه عمرَه: أن يمضي في حياته متعلماً ومعلِّماً، يصل ليله بنهاره، وهنيئاً لمن ورث المقام النبوي، فالعلماء ورثة الأنبياء [87].

ولا يصل طالب العلم إلى مراتب الراسخين **حتى يبذل وقتاً طويلاً** في عمليات الطلب المتنوعة؛ قراءة وحفظاً ومدارسة ومناظرة وتلخيصاً وتدريساً وتأليفاً، **ولا يبلغ ولو بذل حتى يكون طلبُه للعلم منظَّماً منهجياً**، والمقام لا يتسع للتفصيل، ولكن نُحِيلُ كلَّ راغب طالبٍ على عالِمِ منطقته ليستشيره في الأنسب له من العلوم وفي برنامج الوصول إلى المقاصد والغايات.

(87) حسن: رواه أحمد في مسنده (ج36/ ص46/ ح21715).

وكثيراً ما يحتدم الجدل في أوساط الدعاة والناشطين في العمل الدعوي حول **المفاضلة بين طلب العلم والاستغراق في أنشطة الدعوة والفعاليات المقدسية الثقافية والتعبوية والخيرية**، وينتصر لكلِّ منحىً طائفةٌ تراه واجبَ الوقت الآكد، والحقُّ في التفصيل، وتفضيلُ منحىً منها بإطلاقٍ خطأٌ ولا شك في جانب ما!

فالأمر يعتمد على معطيات متعددة، منها:

- **طبيعة الشخص**، فمن وَجَد في نفسه ووَجَد إخوانُه فيه مَيْلاً نحو الطلب والتحصيل فالأفضل أن يتوجَّه إليه، وما كلُّ الناس يطيقون ذلك ولا يستطيعه أكثرهم، بل ولا كلُّ العقول تصلح للانغماس في العلم الشرعي ثم الإفادةِ فيه والتميزِ والتأثير، وفي المقبلين على الأنشطة الحركية كفايةٌ في العادة، والنقصُ إنما يكون في المقبلين على الطلب.

- **طبيعة الوقت الخاص**، إذ تمرُّ أحيانٌ في الصراع المحتدم مع الباطل هي أشبه بالمآزق والطوارئ، يُقتحم فيها الأقصى وتدنَّس فيها الحرمات، وتُضرب فيها الحرائر، وتسفك فيها الدماء، وتَقصف فيها الطائرات، وتَنهدم فيها المباني على رؤوس ساكنيها، ويتسابق المؤمنون فيها إلى الشهادة والفداء، ففي مثل هذه الأوقات لا يسوغ لطالب العلم الاعتكاف على كتبه والتفتيش في المسائل والمناظرةُ في الخلافيات! بل أخشى عليه إن فعل- وأربأ بطلبة العلم أن يلوذوا بصفحات كتبهم في حين يبذل غيرهم

الأرواح يفتدون الدين ومقدساته- أخشى عليه أن يكون آثماً وملوماً وجباناً يتترس بكتبه في محاولةٍ لإرضاء ضميره المتألِّم لتركه واجب الوقت!

حتى إذا هدأت الرياح العاصفة واستتبَّ الأمر وانكفأ العدوُّ فليعانق كُتبَه إذ ذاك وليحتضنْ أوراقَه ولْيُسِل قلمَه في النوع الآخر من النفير!

إن واجـب العلماء لا يقف عند تصـدُّر المجالس وزخرفة المواعظ وتفصيح الكلام وشقشقة المسائل! ولا خير في ذلك إن لم يقترن بتصدُّر الصفوف واقتحام الأهوال والصدع بالحق في مواطن التلبيس والتزوير والتخويف، وكلُّ ذلك من الرزق الذي يمنُّ الله تعالى به على من يشاء من عباده.

رابعاً: العلم بالقضية المقدَّسة ومعرفةُ ما يلزم السائر لاقتحام الصراع

من العلم الذي لا يستغني عنه السائر في طريق الفتح: العلم بالقضية المقدسة، ابتداء من معرفة مدلولات المصطلحات: بيت المقدس، المسجد الأقصى، فلسطين، الأرض المباركة، الأرض المقدَّسة،...، ودراسة مكانة القضية في الإسلام، ومعرفة تاريخها القديم والحديث، والتأمُّل في مناهج تحرير أبطالها السابقين، ومعرفة أهم الشخصيات والأماكن والمؤسسات التي لها علاقة بها، بحيث يمتلك القدرة على الحديث عنها، وتوعية الجمهور حول الأخطار المُحدِقة بها وبثِّ الأمل في استعادتها.

وكذلك:

- أن يعرف عدوَّه، فيدرسَ شخصيةَ عدوِّه كما وضحها القرآن، وكيفيةَ مواجهةِ النبي صلى الله عليه وسلم له، فيقرأَ مثلا: الشخصية اليهودية في القرآن للعلامة الدكتور صلاح الخالدي رحمه الله، ومكايد يهودية للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني رحمه الله.

- وأن يَدرسَ تاريخَ العدوِّ القديمَ والحديثَ، وفِكرَه الصهيونيَّ الشرير، ووسائله الخبيثة في إدارة حربه على ديننا وعلى مقدساتنا، وخططه في التهويد، وأطماعه في الإفساد والسيطرة!

ويحسن ألا يفوِّت العامل لأجل هذا كتُبَ الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله؛ خصوصاً موسوعته في اليهودية والصهيونية.

وقد ذكرتُ في كتابي زاد الفاتحين: «**الزاد المفاهيمي**» [88]، وهو مما يجب على السائر إلى الفتح أن يتزود منه، وفيه توسُّع ثمة، فعدْ إليه إن أحببت.

وبعد:

فهذه جولةٌ في رحابِ هذه المنزلةِ من منازل السير إلى الفتح، لا يسعُ السائرَ التهاونُ فيها أو التفريط في تحصيلها والتمكُّنُ منها، وهي منزلةٌ تبدأ مع بداية المسير ولا تنتهي إلا ببلوغها الحُلقوم!

---

(88) زاد الفاتحين، 46.

الإخلاص

من حقِّ الإخلاصِ أن يكون في المنزل الأول من منازل الطريق، ولكن فضَّلنا تقديمَ العلمِ عليه لَمَا أنه منبْنٍ عليه وسبيلٌ إليه، فالخلوصُ إلى ماهية المأمورات والمناهي لا يكون إلا بالعلم، فالاطلاعُ على فضائل المنازل يحمل ذوي النفوس التواقة على النزول فيها، وكلُّ ذلك لا يكون إلا بالعلم، ولأجل هذا آثرتُ تقديمه.

وفي الرسالة القشيرية مما يعضد هذا المعنى:

«سمعت محمد بن الحسين يقول: قال بعضهم: أول المقامات المعرفة ثمَّ اليقين ثمَّ التصديق ثُمَّ الإخلاص ثُمَّ الشهادة ثُمَّ الطاعة، والإيمانُ اسمٌ يجمع هذا كله»، أشار هذا القائل إلى أَن أول الواجبات هُوَ المعرفة بالله سبحانه وتعالى، والمعرفة لا تحصل إلا بتقديم شرائطها، وهو النظر الصائب، ثُمَّ إذا توالت الأدلة وحصل البيان صار بتوالي الأنوار وحصول الاستبصار كالمستغني عن تأمل البرهان، وهو حالُ اليقين، ثُمَّ تصديق الحق سبحانه فيما أخبر عند إصغائه إلى إجابة الداعي فيما يخبر من أفعاله سبحانه فِي المستأنف، لأن التصديق إنما يكون في الإخبار، ثُمَّ الإخلاص

فيما يتعقبه من أداء الأوامر، ثُمَّ بَعْد ذَلِكَ إظهار الإجابة بجميل الشهادة ثُمَّ أداء الطاعات بالتوحيد فيما أمر بِهِ والتجرد عما زجر عَنْهُ» [89].

وفي منازل السائرين للهروي:
«واعلم أن العامَّة من عُلماء هذه الطَّائفة والمشيرين إلى هذه الطَّريقة اتَّفقُوا على أن النهايات لا تصحُّ إلا بتصحيح البدايات كما أن الأبنية لا تقوم إلَّا على الأساس، وتصحيح البدايات هو إقامة الْأَمر على مُشَاهدَة الْإِخْلَاص ومتابعة السّنة...» [90].

ومادة كلمة الإخلاص من «خلص»: والخالص كالصافي؛ إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبُه بعد أن كان فيه، والصافي قد يقال لِمَا لا شوْب فيه [91]، والإخلاص المأمور به في الشريعة:

تمحيض التوحيد، والتبرؤ التام من الشرك، وعلى هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ البينة [5]، وقوله:

(89) الرسالة القشيرية، 1/ 318.

(90) منازل السائرين، 7.

(91) المفردات، 242. جمهرة اللغة، 1/ 604، الصحاح، 3/ 1037، وانظر: أساس البلاغة، 1/ 262.

﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾النساء [146]، قال الراغب: «فحقيقة الإخلاص: التبرِّي عن كلِّ ما دون الله تعالى» [92]، وهذا هو المعنى الكلِّي للإخلاص: ألَّا يُخالط الإيمان شوبٌ من الشرك الجليِّ أو الخفيّ، وهذا منزلٌ يستلزم التفتيش في القلب ومراقبة حركاته وسكناته ومعالجة خواطره وما يلج إليه وما يخرج منه، والموفَّق مَن وفَّقه الله!

ومنه:

إفراد الله تعالى بالقصد وعدم الالتفات إلى غيره في الأعمال، وهذا المعنى إن استغرق القلبَ استحكمَ حتى يشمل الحياةَ كلَّها لا الأعمال فحسب: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ الأنعام [162]، قال الإمام الغزالي:

«والإخلاصُ يُضادُّهُ الإشراكُ فمن ليسَ مُخلِصًا فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية، والشركُ منه خفيٌّ ومنه جليٌّ، وكذا الإخلاص، والإخلاصُ وضدُّه يتواردان على القلب، فمحلُّه القلب، وإنما يكون ذلك في القصود والنيات» [93].

---

(92) المفردات، 242.

(93) إحياء علوم الدين، 4/ 379.

والشركُ الخفيُّ المذكورُ في كلام الإمام الغزالي هو الذي يسمونه: الرياء، وهو يطلَق في مقابل الإخلاص عادة، والرياء من «رأى»، فالرياء قصد إراءة الناس؛ بالإراءة كان ذلك أو بالإسماع.

وقد يكون الباعثُ على العمل الرياءَ المحض أو نيةً أخرى من حظوظ النفس، وقد يكون الباعث ممتزجاً بهذه النوايا مع قصد التقرب، وكلا النوعين مما لا يُنتفع به في الآخرة وإن كان الأول أخطرَ وأغلظ، وقد خرج العمَلُ به عن حدِّ الإخلاص وتطرَّق إليه الشرك، وقد قال تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك» (94)، وبالجملة كلُّ حظٍّ من حُظوظِ الدُّنيا تَسْتَرِيحُ إليه النَّفْسُ ويميلُ إليْهِ القلبُ قلَّ أمْ كثُرَ إذا تطَرَّقَ إلى العملِ تكدَّرَ بهِ صفوُه وزال به إخلاصُه» (95).

وقال ابن القيم رحمه الله:

«قال صاحب «المنازل» رحمه الله: (الإخلاص: تصفية العمل من كلِّ شوبٍ) أي لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إمَّا طلب التزيُّن في قلوب الخلق، وإمَّا طلب مدحهم والهرب من ذمِّهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم أو خدمتهم وقضائهم حوائجه، أو طلب محبَّتهم له، أو غير ذلك من العلل والشوائب التي عَقْدُ متفرِّقاتها هو: إرادة

---

(94) رواه مسلم (ج4/ ص2289/ ح2985).

(95) انظر: إحياء علوم الدين، 4/ 378.

ما سوى الله بعمله كائنًا ما كان" [96].

واختار القشيري تعريفاً للإخلاص ابتدأ به قبل غيره فقال:

«إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دُون شيء آخر؛ من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند النَّاس أو محبةِ مدحٍ من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالى» [97].

ومثال ذلك- حتى يتَّضح المقال-:

- أن يطلبَ العلمَ ويقرأَ القرآنَ لا يبتغي بذلك وجه الله، أو يبتغي وجه الله مع حظوظ أخرى للنفس، كالمراءاة والمباهاة والاستطالة عليهم بالعلم، فهذا وأمثاله على خطر عظيم، فقد جاء في الحديث: «أول من تسعر بهم النار ثلاثة»، وذكر منهم: من قرأ القرآن ليقال قارئ [98]، ويلحق بهؤلاء: من تثقَّف بقضية القدس وشارك في الدورات فدرَس أو درَّس، واعتلى المنابر وتصدَّر المجالس، وامتشقَ قلم الكتابة والتوعية راجياً أن يحظى بشيء من الشُّهرة أو النفوذ بين الناس والوجاهة، أو ليقال: رمزٌ من رموز العمل والدعوة والجهاد أو ما أشبه، فكل هذه النوايا محبطٌ للعمل بل مستجلِبٌ لغضب الربّ، وما أشقى العبدَ الذي طلب الدنيء من المقاصد

---

(96) مدارج السالكين،2/ 347.

(97) الرسالة القشيرية، 2/ 359

(98) صحيح: رواه الترمذي (ج/4 ص/591 ح2382)، وهو عند مسلم في صحيحه بلفظ نحوه.

مقابل الشريف من الأعمال، وقدَّم ما يُتقرَّب به إلى الله لنيل عرَض من الدنيا أو حظٍّ من حظوظ النفوس!

- أن يجِدَّ في العمل الدعوي والمقدسي ويجتهد في إقامة الفعاليات وينشط بين إخوانه في تشكيل اللجان وإطلاق المبادرات، ثم يقصدَ من ضمن ما يقصده إلى لفت الأنظار واستمالة قلوب المعجبين والمعجبات، فهذا وأمثاله شقيٌّ مسكين، ولعله ممّن يَحسَب في أتون الانشغالات اليومية أنه قد أحسن عملاً: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ الكهف [103، 104].

- أن يجدَّ في النشر على وسائل التواصل الاجتماعي ما بين منشور ومباشرٍ وتصوير، ويعكُفَ على هذه البرامج في كل وقت، لا يترك حدثاً إلا علَّق عليه، ولا صغيرة أو كبيرة في حياته إلا نقلها لجمهوره الذي لا يعنيه أكثر ذلك، متزيِّناً بثوب الثقافة والظرافة، قاصداً إلى الاستكثار من الإعجابات والمتابعات، ثم يلهث ليكون من ضمن المؤثرين في «السوشال ميديا»، وهذه آفة من آفات العصر، وباب من أبواب الرياء والتخليط في النوايا عظيم، يَهلك من يستغرق فيه، ثم إذا استيقظت نفسُه في لحظة صدقٍ أو واجَهَ وعظاً يَطرُقُ قلبَه ويهزُّه بعنف؛ أقنع نفسه اللوامة بأنه إنما يفعل ذلك نشراً للخير وبياناً للحق، وتحبباً إلى الناس ليُدَلِّيَ لهم الدين وليزين لهم الحق، وما هذا- لو دقق- هو الحق!

وسأسوق كلاماً عميقاً يناسبُ السياقَ لطبيبٍ من أطباء القلوب المتمرِّسين وخبرائه المتميِّزين الإمامِ الغزالي عليه الرحمة يصفُ فيه خلجاتِ النفس ودقائقَ مشاعرِها ويستمع فيه لهمساتها، وليأذن لي القارئ بمداخلات بين الأقواس للتنبيه على بعض ما تعُمُّ به البلوى من آفات القلوب في أعمالنا الدعوية والمقدسية اليوم، يقول:

«وكَمْ مِن أعمالٍ يتعَبُ الإنسانُ فيها ويظُنُّ أنها خالصةٌ لوجه الله ويكون فيها مغروراً ((تنبَّه إلى أن النفس لا تعترف بشكل واضح بأنها ليست مخلصة، ولا تقِرُّ - إن لم تُقَرَّر - بانحرافها عن الجادة واتباعها للأهواء، بل لعل النفس تبادر باختراع التآويل المختلفة لمواقفها المشبوهة))، لأنه لا يرى وجه الآفة فيها؛ كما حُكي عن بعضهم أنه قال: قضيتُ صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول[99]! لأني تأخرت يوماً لعذر، فصلَّيتُ في الصف الثاني فاعترتني خجلةٌ من الناس حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أن نظر الناس إليَّ في الصف الأول كان مسرَّتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر، ((لاحظ استخفاء النفس بمقاصدها الخسيسة، والحاجة إلى محاسبتها بالقرائن والاحتجاج عليها بما بدر منها حال ذهولها الطبعي))، وهذا دقيق غامض قلَّما تسلم الأعمال من أمثاله، وقلَّ من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى، .... وأشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة العلماء! ((ومثلُهم الدعاةُ والمجاهــدون، فإن الشــيطان يعرضُ

(99) هذه قضية لا علاقة لا الفقه والفتوى، انظر - رعاك الله - إلى حساسيتهم الإيمانية، وأخذهم نفوسهم بالمحاسبة الدقيقة!

لكلِّ عبد من زاوية يمكنه أن يلبِّس عليه فيها، ويدلِّيَ له الفتن التي تناسب حاله، فالفتن التي تعرض لقلب الشاب الحدَث ليست من جنس تلك التي تعرضُ للشيخ الهرم، والتي تعرِض للعالم ليست كالتي تعرِض للعامي الجاهل، والتي تعرض للقوي ذي السلطان ليست كالتي تعرضُ للضعيف المرتذل!))، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم: لذةُ الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطانُ يلبِّس عليهم ذلك ويقول: غرضُكم نشر دين الله، والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم! ((وهذا من أخطر كيد الشيطان واستحواذه على قلوب متَّبعيه! إذ يزيِّن القبيح من النوايا بزخرف الطاعات الموهومة، بل قد يستجرُّ المفتونَ إلى حيز المعاصي الظاهرة من الغيبة والحسد والنميمة والكيد لإخوة الطريق ورميِهم بكل نقيصة مهما فحُشت! والشيطانُ في كلِّ ذلك قائم فوق رأسه يستزيده ويحثه على حثو المزيد من القبيح بقالب كونه إنكاراً للمنكر وصدعاً بالحق وانتصاراً للمنهج!)).

يكملُ الغزاليُّ كلامَه قائلاً: «وترى الواعظ يمنُّ على الله تعالى بنصيحةِ الخلقِ ووعْظِهِ للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدَّعي أنه يفرح بما يُسِّر له من نصرة الدين! ولو ظهر من أقرانه مَن هو أحسن منه وعظاً وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه؛ ساءه ذلك وغمَّه! ولو كان باعثُه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهمَّ بغيره!!

((وبمثل هذه المَلاحظِ تظهرُ حقائق المقاصد، وتنكشفُ خفايا النفس التي لا تُغادِر أَكنانها[100] إلا بعد بذلِ الجهد في التفتيش والتنقيب والتعدين))!!

فلنتابع التبصُّر مع الإمام الغزالي:

«ثم الشيطان مع ذلك لا يخلِّيه، ويقول: إنما غمَّك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك؛ إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المُثاب، واغتمامُك لفوات الثواب محمود! **((لاحظ المعاني الرقيقة التي يزيِّن الشيطان بها وساوسه ويُخفي بها عيوب النفس عن صاحبها، ويجادله بها عنها))**، ولا يدري المسكين أن انقياده للحقِّ وتسليمَه الأمر أفضلُ وأجزلُ ثواباً وأعودُ عليه في الآخرة من انفراده، وليت شعري لو اغتم عمر رضي الله عنه بتصدي أبي بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة: أكان غمه محموداً أو مذموماً؟ ولا يَستريبُ ذو دِين أن لو كان ذلك لكان مذموماً، لأن انقياده للحق وتسليمَه الأمر إلى مَن هو أصلحُ منه أعودُ عليه في الدين مِن تكفُّلِه بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرِحَ عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال مَن هو أولى منه بالأمر! فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك!»[101] **((وما بال الدعاة لا يفرحون بذلك؟! وما بال العاملين في المجال المقدسي إذا رأى بعضهم شباباً يبرزون في المجال، أو محاضرين يؤثرون في الناس، أو مؤسسات جديدة تَنشأ؛ ما بالهم لا يفرحون بذلك؟!))**.

---

(100) الأكنان: مفرده: "كِنّ"، وهو البيت والمسكن الذي يُستتر فيه.

(101) إحياء علوم الدين، 3/ 452.

ولهذا المعنى المُشار إليه هنا تفصيلٌ بيَّنه الغزالي، ينبِّه فيه إلى خفايا تتعلق بهذه المكايد الشيطانية، يقول:

«اعلم أن الآفاتِ المشوِّشةَ للإخلاص بعضُها جليٌّ وبعضها خفيٌّ، وبعضها ضعيفٌ مع الجلاء، وبعضها قويٌّ مع الخفاء، ولا يُفهم اختلافُ درجاتِها في الخفاء والجلاء إلا بمثال، وأظهرُ مشوِّشات الإخلاصِ الرياءُ، فلنذكر منه مثالاً، فنقول:

الشيطانُ يُدخلُ الآفةَ على المصلِّي مهما كان مُخلصاً في صلاته، ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له: حسِّن صلاتك حتى ينظرَ إليك هذا الحاضرُ بعيْن الوقار والصلاح، ولا يزدريك ولا يغتابك، فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته، وهذا هو الرياء الظاهر، ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين.

الدرجة الثانية يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره، فصار لا يُطيع الشيطانَ فيها ولا يلتفتُ إليه ويستمرُّ في صلاته كما كان، فيأتيه في مَعرِض الخير، ويقول: أنت مَتبوعٌ ومقتدى بك ومنظور إليك، وما تفعله يُؤْثَر عنك ويَتأسَّى بك غيرُك، فيكون لك ثوابُ أعمالِهم إن أحسنتَ وعليك الوزر إن أسأت، فأحسنْ عملَك بين يديه فعساه يقتدي بك في الخشوع وتحسين العبادة، وهذا أغمضُ من الأول، وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول، ((تذكَّر ما بيناه قبل صفحات من أن لكل مرتبة من مراتب الناس نوعٌ من الفتن يُعرَض على قلوبهم يُناسبُ حالَهم))، وهو أيضاً عين

الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرضا لغيره تركه؛ فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة؟! ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعزَّ عليه من نفسه! فهذا محضُ التلبيس، بل **المُقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبُه فانتشر نورُه إلى غيره، فيكون له ثواب عليه**، فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس، فمن اقتدى به أُثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متَّصِفاً به!

الدرجة الثالثة- وهي أدقُّ مما قبلَها-: أن يجرِّب العبدُ نفسه في ذلك ويتنبَّه لكيدِ الشيطان، ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهَدة للغيرِ محضُ الرياء، ويعلمَ أن الإخلاص في أن تكون صلاتُه في الخلوة مثلَ صلاته في الملأ، ويستحيي من نفسه ومن ربه أن يتخشَّع لمشاهدة خلْقه تخشُّعاً زائداً على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسِّن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ ويصلي في الملأ أيضاً كذلك، فهذا أيضاً من الرياء الغامض! لأنه حسَّن صلاته في الخلوة لتَحسُن في الملأ، فلا يكون قد فرَّق بينهما، فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق! بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدةُ الخلق: على وتيرة واحدة، فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحيي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلا والملا، وهيهات!! بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلْق كما لا يُلتفت إلى الجمادات في الخلا والملأ جميعاً، وهذا من شخص مشغولِ الهمِّ بالخلق في

الملأ والخـلا جميعاً، وهذا من المكايد الخفية للشيطان. **((يا الله! ما أعجب هذا وما أغمضه!! اللهم إنا نسألك انكشافَ البصيرةِ والفناءَ عن الخلْق بدوام النظر إليك))**.

الدرجـة الرابعـة- وهي أدق وأخفى- أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له: اخشع لأجلهم؛ فإنه قد عرف أنه قد تفطَّن لذلك، فيقول له: الشيطان تفكَّر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحِ من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه، ويظن أن ذلك عين الإخلاص، وهو عين المكر والخداع! فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة، ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره! وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفُه في الخلوة كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر، كما لا يكون حضور البهيمة سبباً!

....

....

....

....

....

....

فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارجٌ عن صفْوِ الإخلاص، مدنَّسُ الباطن بالشرك الخفيِّ من الرياء، وهذا الشركُ أخفى في قلبِ ابنِ آدمَ من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء كما ورد في الخبر[102]، ولا يسلم من الشيطان إلا من دقَّ نظره وسعِدَ بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته... وغشُّ القلب ودغلُ الشيطان وخبثُ النفس أغمضُ من ذلك وأدقُّ كثيراً! ولهذا قيل: ركعتان من عالِمٍ أفضلُ من عبادة سنة من جاهل، وأُريدَ به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلُص عنها»[103].

ولا مطمَح في الحقيقةِ في النجاةِ من هذه المزالقِ جميعِها على اختلاف رتبها ثم تمحيضِ الإخلاصِ وتنقيتِه من كلِّ شائبةِ حظٍّ للنفس أو مراءاةٍ للخلْقِ إلا ببصيرةٍ خارقةٍ لأستار العمايات، وموقظةٍ لغفلات السِّنات، وتوفيقٍ ربانيٍّ من قبل ذلك ومن بعده، ثم تزكيةٍ للنفسِ وتطهيرٍ لها من أَدْرانِ التعلُّق بغير الله، واستغراقٍ تامٍّ في الإقبال عليه في غيبة عن الخلْق، على حدِّ قول من قال:

فليتك تحلو والحياة مريرة .. وليتك ترضا والأنام غِضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر .. وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هيِّنٌ .. وكل الذي فوق التراب تراب

---

(102) أخرجه الحاكم في المستدرك (ج2/ ص319/ ح3148)، وهو ضعيف، وفي الأدب المفرد للبخاري (ص250/ ح716): عن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ) وهو صحيح.

(103) إحياء علوم الدين، 4/ 380.

وقد أحكم الغزاليُّ في أثناء كلامِه رحمه الله توصيفَ العلاجِ الحاسمِ لمثلِ هذه الوساوسِ الشيطانيةِ الخفيَّةِ، فقال:

«فإذن علاجُ الإخلاص كَسْرُ حُظوظِ النَّفس وقطعُ الطَّمع عن الدّنيا والتجرُّدُ للآخرة بحيث يغلِبُ ذلك على القلب، فإذا ذاك يتيسَّر الإخلاص».

في فضائل الإخلاص والتخويف من معكِّرات الإخلاص

الحقُّ أن الكلام في الإخلاص كلام في صميم الدين، إذ لا دين للمرء بغير إخلاص، فالإخلاص تمحيض التوحيد كما جاءك من قبل، وما يُقبل من العبد عملٌ- ابتداء من الشهادتين فما بعدهما من شُعَب الإيمان- إلا بالإخلاص!

وجَرْيَاً على العادة الحسنة بحُسن التذكير بهذه الفضائل عبر حشدِ شيءٍ من نصوص القرآن والسنة التي تتناول فضائل الإخلاص وتبيِّن مكانه في الإسلام:

- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ البينة [5].

وإخلاصُ الدين: تنقيتُه من شوائبِ الشرك الجليّ والخفيّ، فلا يخالج الإيمان شكٌّ في الله، ولا يمازج التوجُّهَ إليه التفاتٌ إلى سواه.

وعن أميرِ المؤمنين عُمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه، قال: سمعْتُ رسول الله صلّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: «إنَّما الأَعمالُ بالنِّيَّات، وإِنَّما لِكُلِّ امرئٍ مَا نَوَى، فمن كانت هجرَته إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجْرَتُه لدُنْيَا يُصيبُها، أو امرأةٍ ينْكحُها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (104).

قال الإمام النووي في التعليق على هذا الحديث:

«هذا حديث صحيح متفق على صحته، مُجمَع على عظم موقعه وجلالته، وهو أحد الأحاديث التي عليها مدارُ الإِسلام، وكان السلف وتابعوهم من الخلف رحمهم الله يَستحبُّون استفتاح المصنفات بهذا الحديث، تنبيهاً للمُطالِع على حسن النيّة، واهتمامه بذلك والاعتناء به» (105).

وفي سياق كلامنا عن العمل المقدسي والدعوي يمكن أن نقول:

إن الواجبَ على كلِّ سائرٍ في الطريق ألا يخطوَ خطوة إلا وله بها نيَّة، فلا نُقيم فعالية إلا استحضرنا النية وأصلحنا القصد، ولا نكتب منشوراً إلا

---

(104) رواه البخاري في صحيحه (ج1/ ص6/ ح1).

(105) الأذكار، 6.

راقبنا الله ولم نلتفت عنه إلى سواه، ولا يخطب أحدُنا خطبة ليستعرض فيها بلاغته، ولا يلقي محاضرة لاستدعاء إعجاب الجمهور! بل كلُّ ذلك لله وبالله!

وعن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاريِّ رضي الله عنهما قال: كنا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم في غزاة فقال: «إِنَّ بالمدينة لرجالاً ما سِرْتُمْ مسِيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكُم حبَسَهُم المرَضُ»، وَفِي روايَةِ: «إِلَاّ شَركُوكُمْ في الأَجْر» (106).

وفيه دليلٌ على أن الأجرَ منوطٌ بالنية، والعملَ لاحقٌ لها، وأن الأجرَ يحصلُ بالعزم، وهذا بابُ فضلٍ عظيمٍ من أبواب الرحمة والجودِ الإلهيِّ على المؤمنين، والكيِّسُ من فتح هذه الأبواب، واستكثرَ من نوايا الخير، وإن لم يكن للعمل سبيلٌ ولا له في النفس طاقة، انظر إلى أن القوم الذين يذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث وقد خلَّفهم في المدينة لم يستطيعوا الخروج معه ولا تركوا بيوتهم وأهليهم، ومع ذلك فإن نيَّتهم بلغتْ بهم منازلَ المجاهدين الذين تركوا كلَّ ذلك!

(106) رواه مسلم في صحيحه (ج3/ ص1518/ ح1911).

وفي سياقنا نقول:

يقصد السائر إرضاء الله عز وجل والقيام بأمره، والاستعانة به على عدوه، وتطهير بيته المقدَّس من دنس الاحتلال، والانتصار لإخوانه المستضعفين في القدس وفلسطين وسائر بلاد المسلمين، ويقصد كذلك إلى قمع الفساد، والنهيِ عن المنكر المترتِّب على احتلال الأرض المباركة.

وينوي أنْ إذا يسَّر اللهُ له الجهادَ أن يجاهد، وإذا يسَّر له المال أن ينفق، ويتمنى الشهادة ويسألُها اللهَ تعالى بصدق؛ عسى أن يبلِّغه الله منازل الشهداء.

وعن أبي هريرة عبد الرَّحمن بن صخرٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلّى الله عليْه وسلَّم: «إِنَّ الله لا ينظر إلى أجسادِكم، ولا إلى صُوَرِكم، ولكن ينظُر إلى قلوبكم» [107].

القلوبُ محلُّ نظر الله، إذ هي مواطن النيات والمقاصد، أما الأجسام والصور التي هي محل عناية أكثر الخلْق فلا تعلُّق لها بالفضائل، ومنْ عرف ذلك لم يشغله التزيُّنُ للخلْق عن إصلاح القلب وتجويد النيات وصدق التوجه، ولا غرَّه رأيُ الناس في ظاهره، وإن أجزلوا الثناء! فالقلب الذي لا يطلعون عليه هو مناط النجاة أو الخسران.

(107) رواه مسلم في صحيحه (ج4/ ص1986/ ح2564).

وعن أبي موسى عبد الله بن قيسٍ الأشعريِّ رضي الله عنه قال: سُئل رسولُ الله صلّى الله عليه وسلَّم عن الرجُلِ يُقاتل شجاعة، ويقاتل حَمِيَّةً ويقاتِل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلّى اللهُ عليه وسلَّم: «مَن قاتَلَ لِتَكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله» [108].

فانظر كيف استوى العاملون في أداء العمل؛ الكلُّ قد قاتل، وإنما ميَّز بينهم مقصود كلٍّ منهم! وفي سياقنا نقول:

يحمل الناس على الانخراط في المعركة الشاملة مع الاحتلال كثيرٌ من الدواعي، قد يكون الرياء والانشغال بترقُّبِ عيون الناس أحدَها، وليس هذا من الجهاد في سبيل الله! وقد تكون الحمية القومية أو الشجاعة الطبعية داعيَ ذلك، وليس هذا مما له وزن عند الله كذلك، بل جهودٌ ضائعة وأعمال مهدورة وتضحيات لا قيمة لها.

وقد جمعني الله يوماً في مقتبل الشباب بأحد الأقارب ممن له علاقة بأحد فصائل العمل الوطني الفلسطيني من اليسار، وكان قد قضى سنواتٍ في سجون الاحتلال قبل تأسيس السلطة الفلسطينية، جاءني يريد نصيحتي أن لا أقترب من العمل المقدسي والفلسطيني، وقال ما معناه: إنه ومثلَه الكثير قد قدموا من أعمارهم زهرةَ شبابهم في سجون الاحتلال، ثم

(108) رواه البخاري في صحيحه (ج1/ ص36/ ح123).

لمّا تأسَّست السلطة الفلسطينية استحوذ المتنفِّذون على المناصب، وذهب أهل الدثور بالامتيازات والجوازات الحمراء، ورجع صاحبنا وأصحابه بخُفَّيْ حُنَين، فقلت له: يا عم؛ هذا هو الفرق بيننا وبينكم! أنتم عملتُم انتظاراً لأجر دنيويٍّ، فلمَّا فاتكم خسرتمُ الثمن الذي بذلتموه، وأما نحن فنعمل وأعيننُا لا ترى ما إليه سعيتم وما لأجله عملتم وبذلتم! نحن ننتظر الأجر ممن لا يُخشى ظلمُه ولا يُخاف هضمُه!

وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أوَّل ثلاثةٍ تُسعَّر بهم النار: قارئ القرآن، والمجاهد، والمتصدِّق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال: فلانٌ قارئ، وشجاع، ومتصدِّق؛ لم تكن أعمالهم لله [109].

وهذا الحديث من أخوف الأحاديث على الإطلاق فيما أرى، ذلك أن هذا العالِم القارئَ أو المجاهدَ المقتول في المعركة أو ذاك الذي أنفق المال في وجوه الخير لم يخرجوا بخسارة جهودهم فلا لهم ولا عليهم! بل خرجوا كأخسر ما يكون! إذ كانوا أول من تُسعَّر بهم النار قبل عبدة الأصنام!

وإنما كانوا كذلك لأنهم لم يقيموا لله تعالى وزناً في قلوبهم، وكان الله سبحانه عندهم أهونَ الناظرين إليهم، فاعتبَروا الضعفاء المحاويج ولم يعتبروا الرب العظيم!

(109) صحيح: رواه الترمذي (ج4/ ص591/ ح2382)، وهو عند مسلم في صحيحه بلفظ نحوه.

وفي الحديث الصحيح الإلهيِّ يقول الله عز وجل: «أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك، من عمل عملًا أشرك فيه غيري فهو للَّذي أشرك به، وأنا منه بريء»[110].

وهو دالٌّ على أن الشرِكَة في النية بقصد الله وغيره في عمل من الأعمال محبطةٌ للعمل، ولا حاجة لله تعالى في عملٍ غيرِ مُخلَص، ولا في سعيٍ مشوبٍ بقصد أربابٍ من دونه!

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بينما ثلاثةُ نفَرٍ يمشون أخذهم المطرُ فأوَوْا إلى غارٍ في جبلٍ، فانحطَّتْ على فم غارِهِم صخرةٌ من الجبلِ فانطبقتْ عليهم، فقال بعضهم لبعضٍ: انظُرُوا أعمالًا عمِلتموها صالحةً لله، فَادْعُوا الله بها لعلَّه يُفرِّجُها عنكم، قال أحدهم: اللَّهُمَّ إنَّه كان لي والدانِ شيخانِ كبيرانِ، ولي صبيةٌ صغارٌ كنتُ أرعى عليهم، فإذا رُحْتُ عليهم حلبْتُ، فبدأتُ بوالدَيَّ أسقيهما قبل بنِيَّ، وإنِّي استأخرتُ ذات يوم، فلم آت حتَّى أمسيْتُ، فوجدْتُهما ناما، فحلَبْتُ كما كنت أحلب، فقمت عند رؤوسهما، أَكْرَه أن أوقظهما، وأكْرَه أن أسقِيَ الصِّبية، والصِّبيةُ يَتَضَاغَون عند قدَمَيَّ حتَّى طلَع الفجرُ، فإن كنتَ تَعْلَمُ أنِّي فعلْتُه ابتغاءَ وجهِك فافرُجْ لن فرجَةً نرى منها السَّماءَ، فَفَرَجَ الله فرأوا

(110) رواه مسلم (ج4/ ص2289/ ح2985).

السَّمَاءَ، وقال الآخر: اللَّهُمَّ إِنَّهَا كانت لي بِنْتُ عَمٍّ، أَحْبَبْتُهَا كأَشَدِّ ما يحب الرجال النساء، فطلبت منها فأبت حَتَّى أَتَيْتُهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فبَغَيْتُ حتى جَمَعْتُهَا، فلَمَّا وقعتُ بين رِجْلَيْهَا قالت: يا عبد الله اتَّقِ الله ولا تَفْتَحْ الخاتَمَ إِلَّا بحَقِّهِ، فَقُمْتُ، فإن كُنْتَ تعلم أَنِّي فَعَلْتُهُ ابتغاءَ وجهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فَرْجَةً، فَفَرَجَ، وقال الثَّالثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي استَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وراعيها، فجاءنِي فقالَ: اتَّقِ الله، فَقُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرُعَاتِهَا فَخُذْ، فَقَالَ: اتَّقِ الله ولا تَسْتَهْزِئْ بي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بك فَخُذْ، فأخذه، فإن كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابتغاءَ وجهك، فافْرُجْ ما بقيَ ففرَجَ الله) [111].

وهذا الحديث العظيم دالٌّ على أن العمل الصغير حريٌّ بالنية الصادقة أن تعظمه وتسلكه في سلك أعظم الطاعات، وأن العمل الكبير قد يصغر بالنية ليكون وزراً مهلكاً لصاحبه.

ولنذكر شيئاً من كلمات العارفين في بيان معنى الإخلاص أو في التنبيه على علامة من علاماته أو أثر من آثاره، وسأعلِّق إن احتيج إليه بين الأقواس:

(111) رواه البخاري في صحيحه (ج8/ ص3/ ح5974).

قال سعيدُ بن جبير رحمه الله: الإخلاصُ أن يُخلِصَ العبدُ دينَه لله وعملَه لله تعالى، ولا يشرك به في دينه، ولا يرائي بعمله أحداً.

وقال الفضيل رحمه الله تعالى: ترْكُ العمل من أجل الناس رياء، والعملُ من أجل الناس شرك، والإخلاصُ هو الخوف من أن يعاقبك الله تعالى عليهما.

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله: الإخلاص: تمييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من الفرث والدم.

«وهذا يستلزم النظر والتفتيش والمتابعة، ويقتضي مراقبة القلب والتشديد عليه».

وقيل: هو ما يُرادُ به الحقُّ ويقصد به الصدق.

«يحتمل أن يكون المقصود بالحق: الحق سبحانه، فمدار الإخلاص على إرادة الله وقصده بالأعمال، ويحتمل أن يكون المقصود بالحق: ما يقابل الباطل من المقاصد والمسالك».

وقيل: هو ما استتر من الخلائق واستصفى من العلائق[112].

(112) قال الغزالي في التعليق عليه وقد نقله في الإحياء: وهذا أجمعُ للمقاصد.

وقيل: الإخلاص: استواءُ أعمالِ العبد في الظاهر والباطن، والرِّياء: أن يكون ظاهرُه خيرًا من باطنه، والصِّدق في الإخلاص: أن يكون باطنُه أعمرَ من ظاهره.

«وليس هذا هو عينَ الإخلاص، وإنما هو علامة من علاماته، وهو علامة دقيقة لعمرو الحق، فإن وجد المرء أي فوارق بين أعماله في الظاهر بين الناس وأعمالِه وحده خالياً؛ فليتَّهم نفسه، وليراجع قلبَه، فإن القرينة قويَّة على أنه إنما تزيَّن لأجل الناس، ولو لم يكن كذلك لَمَا كانت أعمالُه بينهم أفضلَ وأحسن!»

وقيل: الإخلاص: إفراد الحق في الطاعة بالقصد، وهو إرادة العبد بطاعته القرب إلى مولاه دون أحد من خلقه، فلا يتصنع للخلق، ولا يكتسب منهم الحمد، ولا يستجلب منهم الحب، ولا يدفع بها عن نفسه اللوم والذم.

وقيل: الإخلاص: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

«هذا ما يتعلَّق بالرياء كقادح من قوادح الإخلاص، وهو القادح الأشهر والأفتك بقلوب السائرين، والإخلاص: أن يَغفُل العبد عن ملاحظة الخلْق، كأنه لا وجود لهم البتة))!

وقال ذو النون رحمه الله أيضاً: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، «لأنهم غير مقصودين بالأعمال، ولأجل ذلك لا يهتمُّ لآرائهم فيه لا مدحاً فيفرح لها، ولا ذماً فيحزن!»، ونسيان رؤية الأعمال، «فتمام الإخلاصِ أن يهضمَ عملَه، فإنه إنما يقدِّمه بين يدي الله تعالى، وما دام كذلك فإن كل عمل يقدَّم بين يديه قليلٌ بالإضافة إلى ما يستحقّه وما تقتضيه عبوديته، والذي يخلِّصه من رؤية عمله: مشاهدتُه لمنَّة الله عليه وفضله وتوفيقه له، وأنَّه بالله لا بنفسه، وأنَّه إنَّما أوجد عملَه مشيئةُ الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ التكوير [29]، فهنا ينفعه شهود الجبر، وأنَّه آلة محضة، وأنَّ فعله كحركات الأشجار وهبوب الرِّياح، وأنَّ المحرِّك غيرُه والفاعلَ فيه سواه، وأنَّه ميِّت والميِّت لا يفعل شيئًا، وأنَّه لو خلِّي ونفسَه لم يكن من فعله الصالح شيءٌ البتَّة، فإنَّ النفس جاهلة ظالمة، طبْعُها الكسلُ وإيثارُ الشهوات والبطالة، وهي منبع كلِّ شرٍّ ومأوى كلِّ سوءٍ، وما كان هكذا لم يصدر منه خيرٌ، ولا هو من شأنه، كما قال ابن القيم »[113]، واقتضاء ثواب العمل في الآخرة، «أحسبه يقصد الاحتساب، وانتظار الأجر عليه في الآخرة لا في الدنيا» .

وقال سهل رحمه الله: لا يعرف الرياء إلا مخلِص.

(113) قال الغزالي في التعليق عليه وقد نقله في الإحياء: وهذا أجمعُ للمقاصد.

((ما أدقَّها من ملاحظة! كيف يتنبَّه إلى الرياء أصلًا مَنْ لم يعمد إلى التخلّص منه؟))

- وقال أبو عثمان رحمه الله: الإخلاص: نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق.
- وقيل: من شهد في إخلاصِه الإخلاصَ احتاج إخلاصُه إلى إخلاصٍ، فنقصان كلِّ مخلصٍ في إخلاصه بقدر رؤية إخلاصه، فإذا سقط عن نفسه رؤيةُ إخلاصه صار مخلِصًا مخلَصًا.
- وقال سري السقطي رحمه الله: من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله تعالى.

((لأنه قَصَد الناس على الرغم من ضعفهم وعدم غَنائهم وأنه لا نفعَ بهم ولا ضر، ولو صحَّ إيمانُه لَمَا التفتَ عن القويِّ إلى الضعفاء، ولا عن الغنيِّ إلى الفقراء، ولا عن الباقي إلى الفانين، ولا عن القدير إلى العاجزين)).

- وسئل سهل بن عبد الله رحمه الله: أيُّ شيءٍ أشدُّ على النفس؟ فقال: الإخلاص، لأنه ليس لها منه نصيب [114].

(114) الغنية لطالبي الحق، 2/ 110.، ومدارج السالكين،2/ 348.

لا يصلح دينُ المرءِ كلُّه دون إتقانِ الإخلاص، والتخليطُ في النوايا محبطٌ لأجر الأعمال، مستجلبٌ لغضب الربِّ سبحانه مستوجب لعقابه، والحقُّ أن الأمر لا يقف عند فساد دِينِ المرء وسوءِ عاقبتها في الآخرة، وإنما يتعدَّى إلى تضرُّر الأعمال الميدانية في الدنيا، وظهور الفساد في واقع العمل ونتائجه، وما أقبح أن تُدَنَّس معالي الأمور ومقدَّسات الأعمال بالتوافه من الحظوظ! ما أسمى أن نعمل لأجل القدس ولأجل القرآن ولأجل الدعوة إلى الرحمن! وما أقبح أن تَقتحِم دنايا النوايا هذه الأعمالَ السامية!

إن الذي لا بدَّ منه: أن يقف السائر بين الخطوات المتقاربة يطالع قلبه ويفتّش فيه تفتيشاً دقيقاً صارماً، فيجدد العهد بالقصد، ويتأكد من وحدة التوجُّه وسلامةِ السير، فإن تبيَّن له أن تخليطاً قد شاب المسير في لحظة غفلة سارعَ إلى العود وتدارَكَ الفوْت، واتَّجه إلى ربِّه مستغفراً من غفلته وانشغاله عن الأهم بالأتفهِ الدنيِّ من حظوظ النفس، في طريق كان من الواجب ألَّا ينشغل عنها ببُنَيَّاتِها، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لا عاصم من الزلل إلا هو، ولا هادي للطاعة غيره.

وسأحرص على أن أُلامِس الواقعَ فيما أَكتبه راجياً أن تلامسَ الكلماتُ القلوب، وأن تُسهِم في علاج المشكلات العميقة التي تنبتُ في قيعان

الانحراف عن الإخلاص وحلِّ عرى الصدق في التوجّه، أهمها- باختصار وبشكل مباشر- [115]:

إن للإخلاص علاماتٍ يحرص على ملاحظتها الطيبون من أبناء الطريق، ممن راقبوا قلوبهم وحرصوا على إتيان الله بها سليمة، خالصة من شوب الهوى والشهوة والنفاق والشرك، ومن أهم تلك العلامات:

- أن تكون علاقة السائر بالله تعالى علاقة متينة، وأن يظهر عليه الصلاح والتدين، وأن تبدو على محياه آثار التقوى، فيحافظ على العبادات ويلتزم بالأوراد، ويبتعد عن المعاصي ما استطاع، ويستقيم على أمر الله سبحانه، ووَجْهُ كون ذلك علامةً على الإخلاص أن يقال:

إنه لو كان يبذل ما يبذله في الطريق لأجل الله وحده، لا شهوة ثمة يقضيها، ولا مصلحة هناك يُمضيها؛ ولو كان ينفق من ماله وعمرِه ويعرِّض نفسه لسهام المعركة مع الباطل لأجل أمر الله لا شريك له؛ لم يكن معقولاً أن يكون مخلِصاً في أعماله صادق التوجه إلى الله وهو ضعيف العلاقة بالله، قليل الطاعة كثير المعصية، فإنه إن كان على هذه الحال دلَّت حاله على أن أعماله لم تكن نابعةً من الإخلاص لله الذي عصاه ولم يؤدِّ أساسيات ما افتَرَض عليه!

(115) فليسامحني القارئ الذي طالع زاد الفاتحين على إعادة بعض الأفكار والعبارات، لكنني لَمَّا أردت أن أكتب وجدتُني أحوم حول الأفكار ذاتها في هذه الجزئية، لأنها أفكار أساسية.

◆ من علامات الإخلاص: ألَّا يكترثَ العاملُ بظهور اسمِه فيما يُقام من الأعمال والفعاليات، إذ لا يليق به أن يُشاهد في عمله المقدسي والدعوي والقرآني نفسَه؛ حريٌّ به ألا يشاهد غير الله تعالى، ولا يحرص على العمل إلا قاصداً القيام بواجب التحرير والتغيير والدعوة، فإن رأى حرصَ نفسِه على الظهور، واشرئبابَها إلى إدراك الناسِ موقعَها، فليعلم أن هذا علامةُ انحرافِ القصد، فلْيعزم على المجاهدة، ولْيتذكَّر الهدف، وليحتسب الأجر، وما ضرَّه جهل الناس به إن كان علَّامُ الغيوب قد علم بذله وشهد عمله، والله على كل شيء شهيد!

◆ ومن العلامات كذلك: حرصه على نجاح إخوانه في أنشطتهم، ووصول كلمتهم إلى قلوب المسلمين بليغةً مؤثرة، وفرحُه لرؤية أحدهم ينجح في عمله المقدسيِّ وتأثيره الدعوي في الناس وتألُّقه في التعليم والمحاضرة، فيسعى إلى تكثير العاملين– وإن لم يكونوا تحت إمرته وفي غير مجموعته– ما داموا نافعين للعمل، بل ويسأل الله لإخوانه السداد، ويقدم لهم من المساعدة والتأييد والإرشاد.

◆ ومن علامات الالتزام بهذه المنزلة والانضباط بمؤَّدياتها بذلُ المزيد من الجهد، ووصل الليل بالنهار، وطرد اليأس والملل والتعب والسأم والكلل، في سيل عارم من العمل المتواصل المستهدِف نصرةَ ما نذر نفسه

لأجله، وهو إذ هو منهمك في العمل يستعين باحتساب الأجر، فيكون الإخلاص هنا زاداً له على طريق العمل، يستعين به على الاستمرار بالبذل والصدع بالحق [116].

هذا، ولنا عود باستقلال مع بعض هذه المعاني في القادم من المنازل.

أما إذا شاب الإخلاصَ فاسدُ المقاصدِ وتسلَّل إلى القلوب حظُّ النفس وسرى فيها الخللُ ظهر ذلك في شكل مؤشراتٍ عمليةٍ يمكن للمرء أن يرصدها في سلوكه أو يُقيِّمَ المربُّون والقادةُ الربانيون وَفْقَها مَن هم تحت أيديهم من الطلبة والعاملين، وإذا أُهملت استشرى خطرُها واستحكمت من نفس صاحبها واستحوذت على سلوكه حتى لم يستطع منازعتها ولا إخفاءها أمام الجمهور، وأهمُّ هذه المؤشرات وأخطرها:

أولاً: السعي وراء النجومية والتطلُّع إلى تحصيل إعجاب الجمهور.

من مؤشرات ذلك في سلوك العامل: عدمُ الإقبالِ على عملٍ لا يكون فيه بارزاً ونجماً يلفت الأنظار ويستدعي التصفيق، ثم لعله يَضِنُّ ببذل أيِّ جهد ما دام لا يعود عليه بمزيدٍ من الهتاف والالتفاف، ولا يلحظ من خلاله ملامح الإعجاب على وجوه الناس، وتراه ممتعضاً شديد الاحتقان إن لم يحظَ بكلمةٍ في كلِّ اجتماعٍ ولم يعتلِ المنبر في كل مناسبة ولم يستلم دروع التقدير في كل ملتقى!

(116) زاد الفاتحين، 112

وكثيرٌ من هؤلاء يعمل بجدٍّ حقاً؛ لكنَّ عمله للأسفِ قد فقَدَ الهدفَ الكبير الذي ينبغي أن يلحظه بعين قلبه! فَقَدَ الاتجاهَ القويم إلى الله، وضلَّ عن التوجُّه الصادق إليه، فسلَكَ مسلكاً رخيصاً في بناءِ أمجادِ النفسِ وصناعةِ نجوميَّتها واستقطابِ المُعجَبين والمعجبات، فيالَلضَّيعة!

وهذه آفةٌ عامَّةٌ تُصيبُ قلوبَ الرُّواد قبل الأَفراد! وتُنهِك قلوب الكبار قبل الصغار، ولا نجاة إلا بمحاسبة النفس على سوء اهتماماتها ودناءة مطالبها! ورصدُ هذه الطموحات في النفس سهل، وملاحظتها على سلوك السائرين والمريدين لا يستلزم النظر الدقيق، لكنه بلا شك يستلزم الاهتمام الكبير.

وفضلاً عما تورثه نيةُ السوءِ هذه في الآخرة من خَسَار؛ فإنها تُلقِي بُذور المُشاحَّة بين إخوةِ الطريق، وتزرعُ بينهم التحاسدَ والافتتان والتنافس المذموم على المكاسب المعنوية من العمل الدعوي والقرآني والمقدسي، ذلك أن هذه الأعمال المباركة رافعةٌ للعامل فيها بين الناس، تستجلب قلوبهم حوله وتَلفِتُ أنظارهم إليه، وهذا من لواحق بركات هذه الأعمال التي ينالُها العاملُ تبَعاً، فإن حصل له ذلك واستشعر «شعبيَّته» فلربما افتُتِن قلبُه ونسيَ دافع عمله السامي الذي هو نيل رضا الله عز وجل والقيامُ بأمره.

ووسائلُ التواصل اليوم ساحةٌ مهمةٌ من ساحات العمل، وهي في الوقت نفسه ساحة خطيرة- للأسف- من ساحات الاستعراض وتطلُّب النجومية والتزيُّن المبالغ فيه أمام الناس، وقد صارت الشغلَ الشاغلَ لكثيرٍ من الشباب الذي يكِدُّون في محاولات الاشتهار الفارغِ خلالها، ومفاسدُ هذا كثيرة؛ لعل منها: أن تتحوّل هذه الوسائل الاجتماعية إلى ثقبٍ يستنفد جهود هؤلاء ويستهلك وقتهم، ويريح ضمائرهم مِن هَمِّ الأعمال الميدانية الحقيقية، ويحقق لهم بعد ذلك من الشعور بالنجومية والشهرة ما يروي ظمأهم بأقل مجهود!

والذي أحثُّ السائر عليه ههنا:

- أن يراجع نفسَه وأن يعالجَ مرضه بأن يحدِّث نفسَه بأن هذا منه علامةٌ واضحةٌ على التخليط في النية والسقوط في الشُّرور الشيطانية، ولْيحذَر من تلبيس إبليس، فقد يُسَوِّل له أنه إنما أراد من إخوانه أن يُنزِلُوه منزلتَه اللائقةَ به، ولعلَّه يُحتجُّ عليه بالحديث: «أنزلوا الناس منازلهم» [117]!
- أن يتأخَّر عن مَواطِنِ الظُّهور وموارِدِ الغرور، ويؤثِرَ الصمت على الكلام إلا أن يتعيَّن عليه الكلام، ويتوارى إلى حينٍ عن الأضواء، ويعتذرَ لبرهة عن المشاركات العلنية، مع دوام العمل الخفيِّ والجهد السريِّ؛ فيداوي نفسه الماردة بالتي كانت هي الداء!

---

(117) ضعيف: رواه أبو داود في سننه (ج4/ ص261/ ح4842).

أن يراقب نفسه مراقبة شديدة وأن يحاسبها محاسبة دقيقة، فيفرضَ عليها العقوبات إن استكبرت، ويرغمَها أن تأبَّت، ويقلِّلَ من شأنها إن رأت لها فضلاً على الإخوان.

ثانيا: احتقارُه لأعمال الآخرين وجهودِهم، وتقليلُه من أهميتها.

وقد يكون هذا منه عن قصد أو عن غير قصد! ذلك أننا أمام شعور خفيٍّ عن الوعي، يتسلَّلُ من حيث لا يدركُه البصر، أما البصيرة فلا يفوتها!

وقد ابتُلينا في العديد من حقولِ العمل الدعوي والقرآنيِّ والمقدسيِّ بهذا الداء، حتى لا تكاد تجدُ مَن يقدِّر عمل إخوانه في أعمالهم وجهودهم، ولا ينظر إليها بعين الاحترام؛ خصوصاً إن كانوا يعملون في نفس الحقل الذي يعمل فيه، وباعث ذلك على التحقيق:

نفسٌ ماردة متكبرة ترى كلَّ سائر في الطريق خطراً ينافس على الأضواء ويقاسم «الغنائم» المعنوية أو المادية- إن كان ثمة-! فتراه يعمد إلى احتقار أعمالهم ليعظِّم عمله، وإلى استصغارِ جهدهم ليبدو عمله كبيراً!

ثم انظر- عصمك الله- إلى أثر ذلك على ميدان العمل، ومقدار التشاحِّ والتخاصم والتنافس المذموم بين العاملين، وكيف يؤول الأمر إلى أن يبذل بعضهم كلَّ جهده ويصرفَ كلَّ وقته في تحييد إخوانه عن العمل و«تهجيجهم» منه لتخلوَ له الساحة، ولترتاح نفسه من رؤية المنافسين!

وحسبك بانتشار الغيبة والحسد والغل والنميمة مفسدةً كبيرةً كافية في التنفير من هذه الأجواء!

والذي أحثُّ السائر عليه ههنا:

- أن يعترف أمام نفسه بالمرض، ويقرَّ بأن هذا الذي ظهر على فلَتاتِ لسانه علامةٌ على التخليط في النية، وقادحٌ في الإخلاص، ويعتقدَ وجوب التداوي، ويبحثَ عن الدواء الناجع والترياق القوي.
- أن يحدِّث نفسه أنه لو صدق اللهَ لرأى في كل سائرٍ مُعيناً على الوصول ومساعداً على تحقيق الأهداف!
- أن يُثني في السرِّ والعلن على جهود إخوانه وأن يمتدح أعمالهم، ويذكرَها بخير أمام الناس، وأن يعتقد ذلك حقاً، فإنه أعرف بنفسه وتخليطها وجهلها ومعصيتها وتركها للإتقان، وإنَّ عملاً خالصاً وإن صغُر وقلّ لأفضلُ من عمل كبيرٍ وجهدٍ مستطير إن شابَهُ التخليطُ وأفسده الرياء وداخلته الحظوظ!
- إنْ عمَّت الأهواء أجواء عملٍ من الأعمال ولم يستطع السائر البصير أن يُصلح فيها ويبصِّر إخوانه بالحق؛ فأرى له أن يعتزل هذا العمل وينتقل منه إلى غيره، ويبحث عن بيئة نظيفة من أدران الحظوظ ليضع فيها رحيق جهده وخلاصة بذْله، فهذا أرفق به وأكرم لنفسه وأسلم لقلبه، وميادينُ العمل الإسلامي كثيرة وثغورُ المواجهة مع الباطل ما تزال تطلبُ جند الله المرابطين.

ثالثاً: ضياعُ البوصلة وفقدانُ الأهداف

يعتور بعضَ السائرين في حقلِ العملِ الدعويِّ والمقدسيِّ حالةٌ من عدم النضوجِ الممتزجِ بضعف الإخلاص؛ عنوانُها: «غياب الهدف، وفقدان البوصلة»! توصيفُ هذه الحالة: أن العامل فيها قد يعمل بجدٍّ لكن بلا أهداف أو بلا أهداف لائقة، فلا الهدف الأُخروي- المتمثِّل بالسعي إلى رضا الله- واضحٌ في القلب، ولا الهدفُ القريب- المتمثِّلُ بالنتائج الواقعيةِ للعملِ الدعويِّ أو القرآنيِّ أو المقدسيِّ- محدَّدٌ في الاتجاه!

وهذا الداء مزيج من الضحالة الفكرية وافتتان القلب، ويصيبُ صنفين من العاملين:

الأول أغرارٌ قليلو الخبرة، لم يستكملوا مراحل التربية المتوازنة في نواحي الروح والفكر والحركة، وهؤلاء لم يهتدوا إلى العمل الموجَّه المهدَّف، الذي يتدرَّج لتحقيق مطلوبات وتحصيل مقصودات؛ أعظمُها: تحصيلُ رضا الله ودعوةُ الخلقِ إليه وتعريفُهم به، والانتصارُ لدينه وتحريرُ مقدساته وإبراءُ الذمة مما أوجبه الله تعالى في عُنُق كلٍّ منا تجاه قضايا المسلمين، فترى أحدهم- يا ويحه- على وجهه في كل واد، يتنقَّل من عمل إلى آخر؛ حيثما رأى بريقاً أقبل ممتلئ القلب حماسة، ثم لا يلبث أن يخبو ذلك البريق الذي رَآه؛ ليعاود البحث عن بريق آخر يجد فيه حلمه الضائع.

والصنف الثاني: خبراءٌ متمرسون، انتهَوا- ولو عملياً- من التلقي التربوي -وإن كانت التربية لا تنتهي-، وانطلقوا بعيداً عن ساحاتها، موغلين في بحار العمل، ومع انغماسهم في التفاصيل باتت رؤية الهدف البعيد ضعيفة، وبات الالتفات إلى حظوظ النفس وتحقيق أمجادها هو الروح التي تسري في التفاصيل اليومية للقاءاتهم وفعالياتهم ومنشوراتهم وحركاتهم وسكناتهم!

فهل يمكن أن يحقق هؤلاء الإنجازات؟

نعم، هم ثورة من العمل والنشاط، لكنه عملٌ متناثرُ الأشلاءِ موزَّع الاتجاهات والمقاصد، لا يؤدي إلى النتائج، ولا يحقِّق الأهداف! دع عنك شيئا من الزبد؛ فإنه سيذهب جفاءً! قد يغترُّ بعضهم بالنقع [118] الذي تُثيره أعمال هذا الصنف من الناس، لكنه سرعان ما ينكشف ضعفُه وتبدو قلة تأثيره: ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ البقرة [264].

◆ ومن مظاهر هذه الحالة:

« عدم اكتراث العامل باختلاط الرايات، وعدمُ تحسُّسه من العمل تحت رايات جاهلية أو دعوات منحرفة، لسان حاله أو مقاله: المهم أننا نعمل!

(118) النقع: الغبار.

فهل المهم حقاً أننا نعمل بغضِّ النظر عن السبيل المسلوكة للعمل والراية المرفوعة فوق الرؤوس؟ وهل تتحققُ الغايات الدعويةُ بعباءاتٍ جاهلية؟

- تقديمُ الوسائل على حساب الغايات، وتقديمُ «الاستعراضِ» على المضامين والرسائل الأساسية للعمل الدعوي أو القرآني أو المقدسيّ، فتظهر الخروقات الشرعية في الفعاليات بل في منهج العمل كله، وتضعف مظاهر التديُّن ويقلُّ سؤال الشريعة عن حكمها في اليوميات!

والذي أحثُّ السائر عليه ههنا:

- استحضارُ الهدف الأكبر من جملة العمل الدعوي والمقدسي؛ وهو: التحرير، ودلالة الخلق على الخالق وتعليمهم كتابه وتفهيمهم رسالته، والقيام بما أوجبه الله تعالى علينا في هذه السبيل، أَلَا إنّ كلّ ما لا يدخلُ تحت هذا المقصد ولم يراع هذا البُعد عَمل أبتر!
- التزام محاضن التربية بحيث تزكو النفوس ويستقيم السير، وتؤتي العملية التربوية الأُكُل المرجوّ، ثم إن الزهد فيها وازدراءها سببٌ أصيل من أسباب الانحرافات.
- التوازن التربوي، بمراعاة الشمولية للفكر والعلم وللروح والإيمان، وللحركة والدعوة، ثم إن الانغماس في العمل مع الاختلال في شيء من المذكور: سيُطرق الكثير من الخلل.

- مراقبة التفاصيل اليومية للأعمال، ومحاولةُ ضبط أهدافها، وقياسُ الفعاليات اليومية على مقياس الأهداف الكبرى والنظرُ في مدى تحقُّقها.
- التخطيطُ المسبق للأعمال وفْق المنهج العلمي بحيث ينبني بعضها على بعض لتأدية النتائج، ثم تقييمُ هذه الخطط بالنظر إلى ما حققته من أهداف.

وبعد؛

فأستميحكم عذراً أن أختم بهذا القدر الكلام في منزلة الإخلاص، مع علمي بأن من حقِّ هذه المنزلة أن تفصَّل أكثر لعموم البلوى فيها ولخطورة آثارها، لكن حسبي أن أُشير إلى أهم معالم الطريق وأنبِّه على أخطر المنعطفات دون استغراقٍ قد يندُّ عن المقصود ويُثقل كاهل الكاتب الضعيف.

....

....

....

....

....

....

....

....

....

التحقق بالعبودية والأنس بالطاعة

أيُّ ضياعٍ غرِقَ فيه مَن لم يهتدِ إليه؟ وأيُّ فقْدٍ فَقَدَه المحرومون من السجود بين يديه؟ وأيُّ لذةٍ بقيتْ لهم دون لذة محبته؟ وأيُّ جحيمٍ يحترقون فيه بعيداً عن ظلال الأُنس به؟ أيُّ شَظَفٍ ذلك الذي يعيشونه في صحراء شهواتهم وأهوائهم؟

لا يستقيم سيرُ العبد إلى الله تعالى دون ارتيادٍ للمحاريب وإظماءٍ للهواجر وتمريغٍ للجبهات على مدارج القرُبات، ولا زادَ للعبد في سيرِه في طريق الدعوة والتحرير والتغيير إلا بالتقوى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ البقرة [197]، والطريق طويلٌ وكثيرُ العقبات ومتعدِّد التحديات، إن لم يتزوَّد السائرُ فيه بخيرِ الزاد هلَك وانقطع وضلَّ.

والتقوى محلُّها القلب؛ كما في الحديث [119]، وإنما تحصُل نتيجةَ المعرفة وتنمو بالأداء القويم للعبادات التي دلَّت الشريعة عليها وأَمَرت بها، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ البقرة [21]، وهذا نصٌّ واضح في أن العبادة بالعموم مظنةُ حصول التقوى.

---

(119) هو قوله صلى الله عليه وسلم: (التقوى هاهنا) الذي رواه مسلم في صحيحه (ج4/ ص1986/ ح2564).

وفي شأن الصيام على التحديد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾البقرة [183]، وذلك أن من شأن إقامة هذه الشعائر استجابةً لأمر الله أن تنموَ بذرةُ التقوى في القلب، فلا يزال العبد يتقلب بين صلاة يُقيم فيها جسدَه ويتوجَّه إلى الله بقلبه، وصيامٍ يتنامى فيه شعور الانكسار أمام الملك الجبار، وصدقةٍ تَكْنُسُ الشحَّ من نفسه وتزكيها، وقيامٍ في جوفِ الليلِ يتعَلَّمُ فيه الإخلاص، وذِكْرٍ يستحضرُ فيه المعيَّة، وفِكْرٍ يُعمِّق فيه الإيمان؛ لا يزال كذلك حتى يتحقَّق بالعبودية، فيستجلبَ التأييدَ من الله ويستنزلَ نصرَه ويستدعيَ إجابتَه وتوفيقَه!

- وقد وصف الله تعالى خِيرةَ عباده بالعبودية في أشرف المواضع، ففي وصفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾الإسراء [1]، إنه مقام شريف لم يحصل لأحد من الخلق، وقد ناسبه من الأوصاف: العبودية، التي بلغ الغايةَ مِن الشرف مَن تحقَّق بها، فتلَقَّى من ربه فيوض الإنعام وشرفَ التقريب الإكرام.

- وقال في وصف نوح عليه السلام وقد كذّبه قومه واستطالوا عليه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩﴾القمر [9]، ومن

عادى لله ولياً فليُؤذن بالحرب، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ القمر [10] الذي يلوذ به ويلجأ إليه ويصدُر عن أمره ويقوم على مهامِّ البلاغ لرسالته: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾ القمر [10]: ألقى حِملَه بباب الله وأسلم أمرَه إليه وفوَّض التدبير إليه: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾ القمر [11، 12]، فانتصر حقاً، وأهلك الله أعداءه المكذبين.

وفي وصفِ داود عليه السلام قال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ سورة ص [17]، إنه عبدٌ لله، وما أشرفها من نسبة: «عبدنا»! وأبرز أوصافه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ سورة ص [17]، والأوَّاب كالتوّاب، وهو الراجع إلى الله تعالى بترك المعاصي وفعل الطاعات، ومنه قيل للتوبة: أَوْبَة[120]، هذا حال النبي الملك الذي مكَّن الله له في الأرض، وطوَّع له الحديد، ونصره على الطاغية العنيد[121]!

وذاك أيوب عليه السلام، الذي مسَّه الضر فدعا فأجاب الله دعاءه وأجزل عطاءه: متحقق بالعبودية متَّصف بها: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١﴾ سورة ص [41]، ومـــا دام عبـداً

(120) المفردات، 97، وانظر: تفسير الطبري،21/ 168، وتفسير الماتريدي، 8/ 611.

(121) في قول الله تعالى: (وقتل داود جالوت، وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء).

طائعاً سلك السبيل إلى الله فالله لا يخيِّب عباده ولا يردُّ أولياءه: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾ سورة ص [42]، فأجابه إلى سُؤْلِه، وأَتبَع تفريج كربته من تحت قدمه، وأجزل من بعد ذلك عطاءه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣﴾ سورة ص [43]، سبحانه إذا أعطى أدهش!

وكيف يستقيم سير السائر دون النزول في هذا المقام والارتواء من نبع العبودية الزُّلال؟ وبماذا يستعين على لأواء الطريق ووعورتها إن لم يكن له إمداد لدنّيٌّ وتأييد ربانيّ؟! ومن أين يرجو النصر قاصدُ التحرير إن لم يطرق أبواب السماء يستجدي القوي القدير؟! كيف وقد وصف الله تعالى الفاتحين الذين يمحقُ على أيديهم إفساد بني إسرائيل بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ الإسراء [5]، ولاحظ «عبادا لنا» تجد ملحظين:

الأول: أن لفظ «العباد» بالألف يُطلق - غالباً- في القرآن على الصالحين، و«عبيد» على الكل، فهو أعم.

والثاني: النسبة: «لنا»، وهي نسبة تشريف، إنهم عباد متحققون بالعبودية كاملون فيها، ربانيون منتسبون إلى الرب، قد شَرُفوا بنسبتهم تلك، فهؤلاء هم من يُجري الله على أيديهم الفتح ويُغيثهم بالنصر.

إن كثيراً من المنتسبين إلى العلم والدعوة والجهاد يعانون معاناة شديدة من الجفاف الروحي، وهو فتور يُخيِّمُ على الروح، يفقد فيه العبد الالتذاذَ بالطاعة والشعورَ بالقرب من الله، تظهرُ أعراضه في سلوكيات؛ أهمها: الكسل عن أداء الطاعات وفقدان الحضور في أداء العبادات، وارتفاع تأثير الشهوة على النفس والتسامح معها في الوقوع في المعاصي! وهو حالةٌ ثقيلةٌ على المؤمن تُؤلِمه ويحاول عند بروق الإيمان في قلبه أن يتخلص منها وأن يهجرها إلى واحات الطاعة والقرب والأُنس والخشوع والإخبات والانكسار والنشاط إلى العبادة والحضور فيها والالتذاذ بها.

وقد يطرأ شيءٌ من الفُتور بين الحين والآخر طبيعياً؛ وفي الحديث: «لكل عمل شِرَّة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد أفلح، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك» [122]، والشِّرَّة: الحرص على الشيء والنشاط فيه والرغبة والقوة في أدائه، والفترة: الضعف والسكون والانقطاع [123]، ففي الحديث أن شيئاً من الضعف قد يصيب القلوب بعد الإقبال والنشاط والاجتهاد، لكنْ فيه التوجيهُ إلى المسلك الصحيح في هذا الحال، قال ابن القيم:

---

(122) صحيح: رواه أحمد في مسنده (ج11/ ص547/ ح6958).

(123) انظر -مثلاً-: النهاية في غريب الحديث 2/ 459.

«فإن قلت: كل مُجِدٍّ في طلب شيءٍ لا بد أن يعرِض له وقفة وفتور، ثم ينهض إلى طلبه، قلتُ: لا بد من ذلك، ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليُجمَّ نفسه ويُعدَّها للسير، فهذا وقفته سير ولا تضرُّه الوقفة، فإن لكل عمل شِرَّة ولكل شِرَّة فترة.

وإما أن يقف لداعٍ دعاه من ورائه وجاذبٍ جذبَه من خلفه، فإن أجابه أخَّره ولا بد:

- فإنْ تداركه الله برحمته وأَطْلَعه على سبقِ الرَّكب له وعلى تأخُّره نهضَ نهضةَ الغضبان الآسِفِ على الانقطاع، ووثب وجمز واشتدَّ سعياً ليلحق الركب.
- وإن استمرَّ مع داعي التأخر وأصغى إليه لم يرضَ بردِّه إلى حالته الأولى من الغفلة وإجابة داعي الهوى حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل درَكاً، وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض، فإنها أخطر منه وأصعب، وبالجملة فإنْ تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوِّه وخلَّصه؛ وإلا فهو في تأخُّرٍ حتى المات، راجعٌ القهقرى ناكصٌ على عقبيه أو مُولٍ ظهرَه، ولا قوة إلا بالله والمعصوم من عصمه الله» [124].

---

(124) مدارج السالكين، 1/ 279.

وفي الحديث: «إن الإيمان ليَخلَق في جوف أحدكم كما يَخلَق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدِّد الإيمان في قلوبكم»[125]، فهذا هو التوجيه النبوي، والكلامُ في وسائل ذلك يطول، ولعل من أهمها:

الصحبةَ الصالحة التي سنأتي على ذكر شيء خاصٍّ يتعلَّق بها، ولأجل هذا المعنى كان من سنة السلف رضي الله عنهم أن يتعاونوا على تجديد الإيمان وإيقاد جذوة النشاط في العبادة والإقبال على الطاعة، ويتواصوا على ذلك ويُنهِضُ بعضهم بعضاً ويأخذ بعضُهم بيد بعض، فهذا عبد الله بن رواحة يقول لأبي الدرداء رضي الله عنهما: «هيا بنا نؤمن ساعة، فإن القلب أسرع تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً»، وذاك معاذ بن جبل يقول لصاحبه: «اجلس بنا نؤمن ساعة»، نسأل الله تعالى العون ودوام التيقظ وحيوية الإيمان، إنه قريب مجيب.

وبعد؛ فلنستعرض في هذه المنزلة المعالم البارزة التي تتحقق فيها ربانية السائرِ في الطريق:

أولا تجويد الفرائض

أوَّلُ ما تتوجّه همةُ السائرِ إليه أن يؤديَ ما افترضه الله عز وجل عليه وأن يُقِيمه حقَّ إقامته، فهذا القدر من الطاعات هو أعظم ما يُثيب الله تعالى عليه وأعظم ما يُعاقب على تركه، والصادقُ في السلوك إلى الله لا يُقدِّم على

---

(125) صحيح: رواه الطبراني في المعجم الكبير (ج13/ ص36/ / ح84).

هذا شيئاً؛ إذ قد يُلبِّس الشيطان على بعضهم، فيؤثرُ بعض النوافل على الفرائض، فتراه مثلاً يقدِّم قيام الليل على صلاة الفجر، أو يحبَّب إليه صيام النافلة على صيام رمضان، أو يؤثر عموم الصدقات المندوبة على الزكاة المفروضة!

والعبد إذا أقبل على القيام بالعبادة وَجَبَ أن يُقبل عليها نشيط النفس منشرحَ الصدر، وهذا من لوازم العبودية الحقة، فالإيمان بالله وتعظيمُه يُنتج تعظيمَ أمره، وهذا يَخرُج في صورة المسارعة إلى الطاعة والجدّ في أدائها، ثم اليقينُ بالآخرة يُنتج الاستعداد لها وعمارتَها بما يَزرع لأجلها من الطاعات في الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ آل عمران [30] يعني: فتسرُّ به وتسعد وتحظى!

ولذلك كانت علامةُ النفاق تَركَ العبادات الشاقَّة على النفس، والتكاسلَ عن أداء الفرائض؛ فضلاً عن النوافل! قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ النساء [142]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً» (126)

(126) رواه مسلم في صحيحه (ج1/ ص451/ ح651)، وهو عند البخاري بنحوه.

وقولُه: «أثقل»؛ يدلُّ على أن كلَّ الصلوات عليهم ثقيلة، والفجرُ والعشاء أثقلُها لِمَا فيهما من المشقَّة، فإن صيغةَ التفضيل تقتضي الاشتراكَ بين المفضَّل والمفضَّل عليه في أصل الصِّفة! وإنما ثقلت عليهم لضعف إيمانهم وقلة يقينهم، فتثقل الصلاة على نفوسهم لاعتقادهم أنها محض تعب لا فائدة منه! ومن اعتقد في شيء مثل هذا الاعتقاد ثقل عليه ولا شك!

ليست هذه حالَهم في الصلاة وحدها؛ وإنما في كل ما أمرت به الشريعة وأوجبته، انظر إلى حالهم في النفقة، ولعلها أشد عليهم من الصلاة: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ التوبة [98]، ولو عظَّموا الله لعظموا أمره! ولو آمنوا بالآخرة لبذلوا الصدقات طيبةً بها نفوسُهم فرحين بتقديمها بين يدي قُدومهم على الله في ذلك اليوم!

والسائرُ في طريقنا إلى نصرة الدعوة وتحرير القدس أولى الناس بنهج المؤمنين، وأسرعُ الناس إلى طلب الرضوان وطاعة الرحمن، إذ الطريق مبناها على البذل والتضحية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ التوبة [111]، فإن كان العامل ضعيفَ الهمة عن أداء العبادات كسولاً عن القيام بالمأمورات فقل لي كيف سيجود بنفسه وماله في سبيل الله؟ الحق أنه سيكون بهما أبخل، وفي إجابة النداء إلى الوفاء أعجز وأثقل!

وحفظ الله الإمام العلامة يوسف القرضاوي [127] الذي أنشد:

لا بد من صنع الرجال .. ومثله صنع السلاح
وصناعة الأبطال علم .. قد دراه أولوا الصلاح
لا يصنع الأبطال إلا .. في مساجدنا الفساح
في روضة القرآن في .. ظل الأحاديث الصحاح
شعب بغير عقيدة .. ورق يذرِّيه الرياح
من خان حي على الصلاة .. يخون حي على الكفاح

ثم المقصــود من العبــادة شيء وراء الحركات الظاهرة، فمقصودُها تعظيم الرب سبحانه، وحصول انكسار القلب على بابه وتعلقِه بأستار الربوبية، وترويض النفس على الانقياد للشريعة؛ نعم هذه العبادات البدنية تُعين عليه وهي السبيل الصحيح للوصول إليه، فإذا خلتْ من المعنى المقصود صارت أشباحاً بلا أرواح، وحركات بلا معان، وفي الحديث: «رُبَّ صائمٍ حظُّهُ مِن صيامِهِ الجوعُ والعطَشُ، وربَّ قائمٍ حظُّهُ من قيامِهِ السَّهرُ» [128]، فالواجب على كلِّ سائر في الطريق أنْ يجوِّدَ الفرائض، وهو أن يؤديها على الوجه الذي أراده الله تعالى منها في الظاهر وفي الباطن، ولنضرب لذلك مثالاً نقارن فيه بين صورتين:

- صورة رجل قام إلى صلاة الفجر، فتوضَّأ وصلى ركعتي الفجر بجانب

(127) توفي الشيخ الإمام العلامة الدكتور يوسف القرضاوي بعد كتابة هذه الكلمات وقبل طباعة الكتاب، وبذلك خسر العالم الإسلامي عالماً نحريراً موسوعياً، ومجدداً دعوياً، فرحمه الله رحمة واسعة وغفر لنا وله.

(128) صحيح: رواه أحمد في مسنده (ج14/ ص445/ ح8856).

فراشه ورجع إلى فراشه فور انتهائه من الصلاة حريصاً على أن يدرك دفء الفراش قبل أن يبرد!

وآخر قام من نومه وتوضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتي السنة قبل الفريضة، وخرج إلى المسجد وصلى وراء إمام حسن الصوت، وحلَّقت روحه في سماء المعاني القرآنية الرفيعة، فتفكَّر في آيات الفاتحة وما فيها من حمدٍ لله وتعظيم وتمجيد، واستحضر وقوفه بالباب ينتظر الإجابة ويستمطر الرضا ويتوسَّل متبرِّأً من الحول والقوة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ الفاتحة [5]، ولجأ إلى الله سبحانه يسأله مجامع الخير ومعاقد النجاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ الفاتحة [5-7]، وتفكَّر قلبُه بعظمة ربه راكعاً وساجداً، فأخذته مشاعرُ الحاجة إليه والخضوعِ والخُشوعِ والانكسارِ والحبّ، ودامَ جوَلان تلك المعاني بين قلبه وعقله إلى أن ختم صلاته مع الإمام.

ثم بدأ بأذكار ما بعد الصلاة، فاستغفر الله ثلاثاً؛ متنبِّهاً على أن ما تقرَّب به إلى ربه لا يليق بعظمته وقد اعتوره شيء من السهو والغفلة والقصور، وأتبعها بـ:

- لا إله إلا الله، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

- لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير (عشر مرات).
- سبحـان الله والحمـد لله ولا إلـه إلا الله والله أكـبر، ثلاثا وثلاثين، فالمجموع تسعة وتسعون، ثم أتمَّ المائة بقوله: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير).
- تلاوة آية الكرسي، وما فيها من تعظيم لله وتوحيدٍ صافٍ له سبحانه، وثناءٍ عليه جل وعز بالكمال.
- ثم بـدأ بتلاوة أذكـار الصبـاح مستـحضراً معـانيها الجليلة: أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه النشور، أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين.. اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر، فأتمم نعمتك عليَّ وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة، اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر.

حتى إذا انتهى من كل ذلك نظر في قلبه فوجده مطمئناً بذكر الله، ساكناً إلى توحيده، ممتلئاً حباً له، فهو الذي يستحق الحب لذاته سبحانه، معترفاً بنعمه عليه شاكراً له متوكّلاً عليه مقبلاً عليه راغباً بالمزيد من القرب!

هل يستوي هذا ومن كانت حاله على ما ذكرنا أولًا؟ لا يستويان! قد أدّى الأول وكان همُّه التخلُّص من العبادة وإسقاط الوجوب، وجوَّد الثاني الفريضة أيَّما تجويد، فلا جرم أنِ انتفع بها قلبُه، وأدّت مقصودها الذي شُرِعت لأجله!

ثم إذا طَرَد ذلك في سائر يومه، وتهيَّأ لكل صلاة مفروضة لم يكد قلبه يبتعدُ عن العرش الذي يطوف به منذ أصبح إلى أن أمسى! وقِس على هذا المثال حالَه في بقية العبادات تقعْ على الصورة الكاملة أو شبه الكاملة لحال هذا العبد الموفَّق.

ثانياً الاستكثار من النوافل

ما قدَّمناه من الكلام إنما هو في تجويد الفرائض، وما امتزج فيه من نوافل الرواتب والأذكار متعلِّقةٌ بتلك الفرائض ومكمِّلةٌ لها وجابرةٌ للنقص فيها، ولا يقف الخير عند هذا الحدّ، فالنفوس التواقة تتوق إلى مزيد من القرب، فتجوِّد الفرائض على ما مرَّ التمثيل عليه، ثم تنطلق متطلِّبة المزيدَ من الارتقاء، مستكثرةً من الخير المتاح لطلاب المعالي!

وتقديمُ الفرائضِ والاعتناءُ بها دليلُ الفقه عن الله، وفي الحديث الإلهي: «وما تقرب إليَّ عبدي بأحب إليَّ مما افترضته عليه»، وللحديث بقية باذخة الجمال: «وما يزال عبدي يتقرَّب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت

سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»[129]، فالطريق إلى منزلة المحبَّة إنما يكون عبر الاستكثار من النوافل، والمحبةُ منزلةٌ تطمح إليها قلوب العارفين وتتشوَّف للنزول فيها أرواحهم، «ومَن أدرك مقامَ المحبة لله لم يضرَّه فوتُ شيءٍ من المقامات، ومن فاتته المحبة لم يغبط بدرك شيء»[130]، كما في قوت القلوب.

والنوافل نهر جارٍ يستكثر المرء منه ما وسعته طاقته وتشوَّفت إليه نفسه ما دام لم يُحدِث في دين الله بدعة، ففي الحديث: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[131]، وفيه كذلك: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[132]، ولا يُتقرَّب إلى الله تعالى إلا بما شرعه الله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ الشورى [21]، فيراعي السائر في الطريق اتباعَ السنة واقتفاءَ الأثر النبوي، ولا يخرجه الفضول إلى مجاوزة الحدّ وابتداع العبادات التي لا أصل لها في الدين؛ فيأثم بدلاً من الأجر، ويعاقب بدلاً من أن يثاب! وفي المشروع من العبادات كفاية للسالكين، ولا خير فيما زاد على طريقة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

---

(129) رواه البخاري في صحيحه (ج8/ ص105/ ح6502)

(130) قوت القلوب، 2/ 111.

(131) رواه البخاري (ج3/ ص184/ ح2697).

(132) صحيح: رواه النسائي في سننه (ج3/ ص188/ ح1578).

وما أجمل أن يسارع العبد في السلوك إلى الله، وينافس في طلب رضاه! ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ المطففين [26] لا في غيره ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝٢٦﴾ المطففين [26]! ولعل من لطائف هذا اللفظ القرآني: «التنافس» أنه «تفاعل» من «النفس»، والتنافس بذل النفوس، ومنه النفيس وهو الثمين، فما من شيء يستحق بذل النفس والنفيس كالسعي إلى الجنة والاجتهاد في درْك الرضوان.

وما أبرع قول الحسن: إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة!

وقول وهيب بن الورد: إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل.

وما قاله بعض السلف: لو أن رجلا سمع بأحد أطوع لله منه؛ كان ينبغي له أن يحزنه ذلك.

وقال غيره: لو أن رجلا سمع برجل أطوع لله منه فانصدع قلبه فمات لم يكن ذلك بعجب!

قال رجل لمالك بن دينار: رأيت في المنام منادياً ينادي: أيها الناس! الرحيلَ الرحيلَ، فما رأيت أحداً يرتحل إلا محمد بن واسع، فصاح مالكٌ وغُشيَ عليه.

وقال عمر بن عبد العزيز في حِجة حجَّها عند دفع الناس من عرفة: ليس السابق اليوم من سبق به بعيرُه، إنما السابق من غُفر له [133].

---

(133) انظر لهذه الأقوال: لطائف المعارف (ص244).

ومصداق ذلك عملياً أنْ إذا رأى صاحباً يصوم الخميس من كل أسبوع حرَصَ على أن يُنافسه فيصوم الإثنين والخميس، وإن عَلِم بصدقةِ أخٍ له في كفالة مرابط على ثغر الأقصى أو غيره من الثغور أو إعانة عائلة مُثقَلة أو تفطير صائم حَملَه ذلك على أن ينفق كما أنفق ويزيد، وإن علم بوِرد أحدهم فأعجبه زاد عليه، وإن لقي صاحباً له في الطريق يصلي ركعتي الضحى صلى أربعاً، وإن قرأ أخٌ له جزءاً من القرآن يومياً قرأ جزأين، وهكذا.

ويحرص السـائرُ على أن يبذر من هذه النـوافل في كل ميدان؛ إن في الصلاة أو في الصيام أو في الصدقة أو في العمرة؛ سراً وجهراً، وقد استرعى انتباهي استدلالُ بعض المفسرين في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ البقرة [274]، قالوا: «هذا حثّ لجميع الناس على الصدقة؛ يتصدقون في الأحوال كلها وفي الأوقات كلها» [134]، فترى العبد الموفَّق يرى كل سانحةٍ للإنفاق فرصةً لطرق أبواب الجنة، فينفق كلما وجد باب إنفاق!

ولستُ أنسى وقد استضفتُ يوماً أحدَ التجارِ المحسنين في عَمّان جاءها زائراً، فقلت له: إن كان ثمة خدمة نخدمك بها أو معاملة لك نسهم في إنجازها؟ فقال لي: إن كان ثمة خدمةٌ يمكن أن تخدمني بها فبِدَلالَتي على

---

(134) بحر العلوم للسمرقندي، 1/ 182.

وجهِ خيرٍ أضعُ فيه مالي! فانظر إلى تفاوت همم الناس، واسأل الله من فضله!

وسبيل المؤمن في هذا الباب أن يجعل لنفسه وِرداً من الطاعات بموازاة الفرائض المجوَّدة، وليكن الوِرد وفق طاقته ولا يزيد، ففي الحديث: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا» [135]، وأنا أندب السائر في طريق الدعوة والرباط إلى برنامج مقترح:

صلاة النافلة

نعرض للرواتب ولصلاة الضحى ولصلاة القيام في الليل، فنحبُّ للسائر:

1- **أن يلتزم اثنتي عشرة ركعة من الرواتب يومياً:** فعن أم حبيبةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَن صلَّى اثنتَي عشرةَ ركعةً في يومٍ وليلةٍ؛ بُنِي له بهن بيتٌ في الجنة»، وفي رواية: تطوعًا» [136]، وللترمذي نحوه، وزاد: «أربعًا قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل صلاة الفجر» [137]، وأن يختمها بصلاة الوتر، وهي آكدها.

2- **أن يواظب على صلاة الضحى،** ولو ركعتين، فعن أبي ذر عن النبي

(135) رواه البخاري في صحيحه (ج1/ ص16/ ح39).

(136) رواه مسلم في صحيحه (ج1/ ص502/ ح728).

(137) صحيح: رواه الترمذي في سننه (ج2/ ص274/

صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يُصبِحُ على كلِّ سُلامى من أحدكم صدقة، فكلُّ تسبيحة صدقة، وكلُّ تحميدة صدقة، وكلُّ تهليلة صدقة، وكلُّ تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى» (138).

3- أن يخصص شيئاً من الوقت- ولو قلَّ- قبل أذان الفجر للقيام، فإن لم يستطع فلو فعلها في الأسبوع مرة لكان حسناً، كليلة الجمعة مثلاً (139)، فإن القيامَ عبادةُ الصفوةِ من المؤمنين، وقد قال تعالى في وصف فِعالهم ومآلهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ الذاريات [15-18]، فعُنوان إحسانِ هؤلاء وما بلغ بهم هذا المحلَّ بعد فضل الله: أنهم كانوا يُسهِرون ليلهم في طاعة الله، والهجوعُ النوم، والذي أقضَّ مضاجع القوم: غَلبةُ القلق من أمر الآخرة، وبمثل هذا وُصف عمر بن عبد العزيز، تقول زوجته فاطمة بنت عبد الملك:

«والله ما كان بأكثر الناس صلاة، ولا أكثرهم صياماً، ولكن والله ما رأيت أحداً أخوفَ لله من عمر، لقد كان يذكر الله في فراشه، فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول: ليصبحَنَّ الناس ولا خليفة لهم» (140).

---

(138) رواه مسلم في صحيحه (ج/1 ص/498 ح/720).

(139) تخصيص ليلة الجمعة بالقيام مكروه كما نص الإمام النووي -مثلاً- في منهاج الطالبين، لكني نصصت عليه هنا لاعتبار أنه ليلة إجازة عند أكثر الناس، فهو أنسب لهذا الاعتبار.

(140) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص47.

قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ السجدة [16]، فالخوف من عذاب الله والطمع في ثوابه هما ما جفيا بجُنُوب هؤلاء عن مضاجعهم، فهنيئاً لمن سبق!

وهو عمل دائم من أعمال الصفوة المباركة من ورثة النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤﴾ الفرقان [64]، فالتعبير بالمضارع للإشارة إلى التجدد، إنه عمل متجدِّد بتجدد الليالي ومرور الأزمان، وفي الحديث: «شرف المؤمن قيام الليل» (141).

وفي سورة الإسراء التي وضعت منهاج إعداد الجيل الذي يواجه إفساد بني إسرائيل، وفي المقطع الذي يُشير إلى مصانع رواد الأمة وقادتها قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ الإسراء [79]، والتهجُّدُ إزالةُ الهجود، والتهجُّد سبيلٌ إلى نيلِ المقامات المحمودة في الدنيا وفي الآخرة (142).

إن ما ينحتُه القيام في القلب أعظم وأكبر من أن يوصف بالكلمات، وإن تفكُّرَ العبد فيما يقرأه ويقوم به من أعمال الصلاة أبلغ أثراً في نفسه وأشدُّ مواطأة بين قلبه ولسانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ المزمل [6].

---

(141) صحيح: رواه الحاكم في مستدركه (ج/4 ص/360 ح/7921)...

(142) هذا على طريقة التفسير الإشاري للآية، وإلا فإن معناها: مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بأمره بالقيام، ووعده بنيل المقام المحمود يوم القيامة كما في الأحاديث.

ولمثل هذه المعاني اعتنى السلف بالقيام، وكان ذلك مِن حُسن تلقِّيهم للقرآن والانتقال به إلى حيِّز التنفيذ، وانظر إلى بعض ما روي عنهم في قيام الليل وحمل النفس عليه [143]:

- فقد كان ابن مسعود رضي الله عنه إذا هدأت العيون قام فيُسمَعُ له دويٌّ كدويِّ النحل حتى يصبح.
- ويقال: إن سفيان الثوري رحمه الله شبع ليلة فقال: إن الحمار إذا زِيدَ في علفه زِيدَ في عمله، فقام تلك الليلة حتى أصبح.
- وكان طاووس رحمه الله إذا اضطجع على فراشه يتقلَّى عليه كما تتقلَّى الحبةُ على المقلاة، ثم يَثِبُ ويصلِّي إلى الصباح ثم يقول: طيَّر ذكرُ جهنم نوم العابدين.
- وقال الحسن رحمه الله: ما نعلمُ عملاً أشدَّ من مكابدة الليل ونفقةِ هذا المال، فقيل له: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً؟ قال: لأنهم خَلَوا بالرحمن؛ فألبسَهم نوراً من نوره.
- وكان عبد العزيز بن روَّاد إذا جن عليه الليل يأتي فراشه فيمرّ يده عليه ويقول: إنك لليِّن، ووالله إن في الجنة لألين منك، ولا يزال يصلي الليل كلَّه.
- وقال الفضيل: إني لأستقبل الليل من أوله فيهُولني طولُه، فأفتتح القرآن فأصبح وما قضيتُ نهمتي.

(143) انظر: إحياء علوم الدين، 1/ 355.

- وقال الفضيل: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم وقد كثرت خطيئتك.
- وقال أبو الجويرية: لقد صحبت أبا حنيفة رضي الله عنه ستة أشهر، فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض، وكان أبو حنيفة يُحيي نصف الليل، فمرَّ بقوم فقالوا: إن هذا يحيي الليل كلَّه، فقال: إني أستحي أن أوصف بما لا أفعل، فكان بعد ذلك يحيى الليل كلَّه، ويُروى أنه ما كان له فراش بالليل.
- ويروى عن أزهر بن مغيث وكان من القوامين أنه قال: رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء أهل الدنيا، فقلت لها: من أنت؟ قالت: حوراء، فقلت: زوجيني نفسك، فقالت: اخطبني إلى سيدي وأمهرني، فقلت: وما مهرك؟ قالت: طول التهجد.

ولسنا نقصد إلى سردِ فضائلِ القيامِ، إنما أردنا شحذ الهمة وقدح زناد العزم على العمل، ولنرافق الإمام الغزالي في بيان الأسباب التي يتيسر بها قيام الليل، مع تصرُّف واختصار، قال:

«اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق إلا على من وُفِّق للقيام بشروطه الميسِّرة له ظاهراً وباطناً، فأما الظاهرة فأربعة أمور:

الأول: أن لا يُكثِرَ الأكلَ فيُكْثِرَ الشُّرب فيغلِبَه النوم ويثقل عليه القيام، كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول: معاشرَ المريدين؛ لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتتحسروا عند الموت كثيراً، وهذا هو الأصل الكبير، وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام.

الثاني: أن لا يُتعِب نفسَه بالنهار في الأعمال التي تعيا بها الجوارح وتضعف بها الأعصاب، فإن ذلك أيضاً مجلبة للنوم.

الثالث: أن لا يَترِكَ القيلولةَ بالنَّهارِ فإنَّها سُنَّةٌ للاستعانة على قيام الليل.

الرابع: أن لا يحتقب الأوزار بالنهار، فإن ذلك مما يقسِّي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة، قال رجل للحسن: يا أبا سعيد إني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأُعِدُّ طَهوري، فما بالي لا أقوم؟ فقال: ذنوبك قيَّدتك، وكان الحسن رحمه الله إذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم يقول: أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء، فإنهم لا يقيلون!

وقال الثوري: حُرمتُ قيامَ الليل خمسةَ أشهرٍ بذنبٍ أذنبته، قيل: وما ذاك الذنب؟ قال: رأيت رجلاً يبكي، فقلت في نفسي: هذا مُراء!

وقال أبو سليمان الداراني: لا تَفُوتُ أحداً صلاةُ الجماعة إلا بذنب!

وقال بعض العلماء: إذا صُمتَ يا مسكين فانظر عند مَن تفطر وعلى أي شيء تفطر؟ فإن العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود إلى حالته الأولى، فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل، وأَخَصُّها بالتأثير: تناولُ الحرام! وتؤثِّرُ اللقمةُ الحلال في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يؤثِّرُ غيرُها، ويَعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له، ولذلك قال بعضهم: كم من أكلة منعت قيام ليلة! وكم من نظرة منعت قراءة سورة! وإن العبد ليأكل أكلة أو يفعل

فعلة فيحرم بها قيام سنة، وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات ...

وأما **الميسرات الباطنة** فأربعة أمور:

الأول: سلامةُ القلب عن الحقد على المسلمين وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا، فالمستغرقُ الهمِّ بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام، وإن قام فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته، ولا يجول إلا في وساوسه! وفي مثل ذلك يقال:

يخبرني البواب أنك نائم ... وأنت إذا استيقظت أيضاً فنائم

الثاني: خوفٌ غالبٌ يلزم القلب مع قِصَر الأمل؛ فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه وعظم حذره، كما قال طاوس: إن ذكر جهنم طيَّر نومَ العابدين... وقال ذو النون المصري رحمه الله:

منع القرآن بوعده ووعيده ... مُقَل العيون بليلها أن تهجعا

فَهِمُوا عن الملك الجليل كلامَه ... فرقابهم ذلَّت إليه تخضُّعا

الثالث: أن يَعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار حتى يستحكِمَ به رجاؤُه وشوْقُه إلى ثوابه فيُهَيِّجُه الشَّوْقُ لطلبِ المزيد والرَّغبة في درجاتِ الجنان.

الرابع- وهو أشرف البواعث-: الحب لله، وقوَّةُ الإيمانِ بأنه في قِيامه لا يتكلَّمُ بحرف إلا وهو مناج رَبَّه وهو مُطَّلِعٌ عليه، مع مشاهدة ما يخطُرُ بقلبه، وأن تلك الخطراتِ من الله تعالى خِطَابٌ معه، فَإِذَا أَحَبَّ اللهَّ تَعَالَى أَحَبَّ لَا محَالَةَ الْخَلْوَةَ بِهِ وَتَلَذَّذَ بالمناجاة، فَتَحْمِلُهُ لَذَّةُ الْمُنَاجَاةِ بِالْحَبِيبِ عَلَى طُولِ الْقِيَام، ولا ينبغي أن يستبعد هَذِهِ اللَّذَّةُ إِذْ يَشْهَدُ لهَا الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ.

القرآن

ذكرنا ما يتعلَّق بالنوافل من الصلاة، وأما القرآن فأهل القرآن هم أهل الله وخاصَّته، وأنى لسائر في الطريق إلى التحرير وإلى إحداث النهضة والتغيير أن يستغني عن صحبة القرآن؟! فالقرآن به يحصل الهدى ولا هدى يحصل للمرء دونه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ البقرة [2]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الإسراء [9]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ يونس [57]، فما يصيب القلب من أمراض الشبهات والشهوات ففي القرآن شفاؤه، وفي الإقبال عليه دواؤه، وما يحتاجه المؤمنون للاستهداء في ظلمات الفتن ففي القرآن كفاية، ومَن قصد غيره ضل: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ٥٠﴾ سبأ [50].

مراتب التفاعل مع القرآن:

ثم إنه لا يكفي لصاحب القرآن أن يمرَّ بلسانه على كلماته وحروفه، فكمال التفاعلِ مع القرآن هو ما ينبغي أن يقصدُ إليه السائر، وللتفاعل مراتب يمكن أن نتلمَّحها، وسأعرِّج عليها في عجالة:

المرتبة الأولى قراءة القرآن وتجويده

وهي المرتبة الأساسية التي تنبني عليها المراتب القادمة وهي السبيل إلى بلوغها، ذلك أن مفتاح التفاعل مع القرآن أن نتلو القرآن أولاً وأن نجيد قراءته، وفي الحديث: «والماهر في القرآن مع السفرة الكرام البررة»[144]، والتلاوة عبادة مستقلَّة يؤجر عليها العبد، ففي الحديث الذي رواه عبدُ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألف لام ميم حرف، ألفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ»[145]، فإن انضاف إلى التلاوة قصد الاستهداء والاتباع والائتمار صار الأمر أعظم وأكثر أجراً.

والأمر في القرآن بتلاوة القرآن كثير، منه: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ۝٢٧﴾ الكهف [27]، وفي

(144) رواه مسلم (ج1/ ص549/ ح798)، والحديث عند البخاري بنحوه

(145) صحيح: رواه النسائي في سننه (ج5/ ص175/ ص2910)

الثناء على الذين يتلونه حق تلاوته قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾البقرة [121]، ويحتمل أن يكون معنى التلاوة في الآيتين وأشباههما: الاتباع، والقول بإرادة المعنيين أولى.

وفي الإشارة إلى فضل حفظه في الصدور قال: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾العنكبوت [49].

والمقصود أنه لا تفاعل مع القرآن إن لم يدخل الإنسان من مدخل تلاوة القرآن، فإن دخل فَتحَتْ له هذه المرتبةُ الطريق إلى ما بعدها، وإلا حُرِم نعمة القرآن، وحريٌّ بمن حُرِمها أن يهلك، نسأل الله السلامة.

المرتبة الثانية التفسير والتدبر

وذلك بأن يعرف معانيَ آيات القرآن، فلا يخفى عليه المعنى الإجمالي -على الأقل- لكل آية منه، ويتدبَّر بعد ذلك الدروس والعبر، ويقف مع الفوائد والإرشادات، ويستوحي التوجيه ويستقبل الإشارة.

وهذا المرتبة مركزية من بين المراتب؛ إذ هي نتيجة لما قبلها وطريقٌ إلى ما بعدها، وبها عُلِّل إنزال القرآن الكريم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾سورة ص [29]، وقد جعل الله

تعالى تدبره طريقاً إلى اليقين: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ النساء [82]، فمن تدبَّره تبدَّدت ظلماتُ الشك في قلبه، واستقرَّ إيمانُه بربانيَّة هذا الكتاب الحكيم، وثرَّب على من لم يتدبَّره تثريباً شديداً، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ محمد [24]، فدلَّ على أن القلب المحرومَ من التدبُّر مقفلٌ لا يستقبل الهدى ولا يعرف الخير!

والمقصود: أن هذه المرتبة التفاعلية مع القرآن الكريم حقيقة بالعناية والاهتمام، والترتيب فيها:

أن يبدأ السائر بضبط معاني القرآن عبر القراءة في التفاسير المعتمدة، وأن يبني على ما تعلمه مِن معاني الآيات تدبُّرَها والتأمل فيها والتفكر في دروسها وتوجيهاتها.

....

....

....

....

....

....

....

....

لم يرسل الله تعالى الرسل ولا أنزل الكتب إلا ليطاع: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ النساء [64]، فمن لم يستعن بالقرآن على العمل بما فيه أبطل في نفسه مقصود القرآن منه! وقد جاءك أن معاني التلاوة في الآيات: الاتباع، كما في قوله: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ البقرة [121]، وقوله: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ الكهف [27]، وهو قولٌ وجيهٌ، إذ الاتباع مقصودُ القراءة، والقراءةُ سبيل إليه ووسيلةٌ من وسائله.

ورحم الله الأستاذ سيد قطب الذي جعل ميزة جيل الصحابة: تلقي القرآن الكريم للتنفيذ، وسماهم لأجل هذا المعنى: «الجيل القرآني الفريد»، وعقد على هذا المعنى الفصل الأول من كتابه العجيب: معالم في الطريق، مما جاء فيه:

«إنهم في الجيل الأول لم يكونوا يقرؤون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع ولا بقصد التذوق والمتاع، لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأُ به جُعبته، إنما كان يتلقَّى القرآن ليتلقى أمرَ الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأنِ الحياة التي يحياها هو وجماعته، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه، كما يتلقى الجندي في الميدان «الأمر اليومي» ليعمل به فور تلقيه! ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة، لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف

يجعلها على عاتقه، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه ذكره ابن كثير في مقدمة التفسير.

هذا الشعور- شعور التلقي للتنفيذ- كان يفتح لهم من القرآن آفاقًا من المتاع وآفاقًا من المعرفة لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع، وكان ييسر لهم العمل ويخفف عنهم ثقل التكاليف ويخلط القرآن بذواتهم ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون الصحائف، إنما تتحول آثارًا وأحداثًا تحوِّل خط سير الحياة.

إن هذا القـرآن لا يمنـح كنوزه إلا لمن يُقبل عليه بهذه الروح؛ روح المعرفة المنشئة للعمل، إنه لم يجئ ليكون كتاب متاع عقلي ولا كتاب أدب وفن، ولا كتاب قصة وتاريخ- وإن كان هذا كله من محتوياته- إنما جاء ليكون منهاج حياة، منهاجًا إلهيًّا خالصًا» [146].

هذه الروح التي يقرأ بها القرآن إذاً؛ يقرأه لينزل به إلى الميدان وليطبقه في عالم الواقع كما طبقه من قبل في عالم الضمير، وليقيمه في الأرض كما أقامه من قبل في القلب.

---

(146) معالم في الطريق، ص17.

وصورة هذه المرتبة أن يلاحظ أوامر القرآن ونواهيه فيأتمر وينتهي: إن وجد أمراً بإقامة الصلاة اجتهد في إقامتها على أبلغ ما يستطيع، وإن لقي أمراً بالنفقة أدخل يده في جيبه فأنفق، وإن أُمر بغض البصر غضَّه كلما دعاه داعي الشهوة إلى إطلاقه مستحضراً قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ النور [30]، وإنْ أمَره القرآن بمجاهدة الذين كفروا شمَّر واقتحم سوح المعركة على حسب المتاح!

المرتبة الرابعة التخلق بالقرآن

هذه المرتبة هي غاية ما يمكن أن يصل العبد إليه من مراتب التفاعل مع القرآن: أن يتخلَّق به، وهو ما وَصفتْ به عائشة رضي الله عنها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لَمَّا سُئلت عن خُلُقه فقالت: «كان خلقُه القرآنَ» (147).

والتخلُّق بالقرآن ألَّا يفتقر العملُ به إلى تحضير مسبق ومعالجة نفسية، بل يصير العمل به تلقائياً بلا كلفة ولا تهيُّءٍ لَحْظِيٍّ، وهو درجة عالية من درجات التفاعل مع القرآن كما ترى إذا تأملت!

(147) صحيح: رواه أحمد في مسنده (ج41/ ص148/ ح2460).

وصورة ذلك لمزيد من البيان:

ما لو قلنا لأحدهم- مثلاً-: إنه يلزمك أن تكون بشوشاً، فتراه يحاول ذلك ويستعد له ويعالج نفسه للقيام به، فإذا ما داوم على ذلك حيناً واعتاده تحوَّل إلى عادة وخلُق، وتراه مبتسماً بلا كلفة ولا معالجة! وهكذا مَن داوم على العمل بالقرآن؛ نقلته المداومة من مرحلة العمل والتطبيق إلى مرحلة التخلُّق فصار كأنه قرآن يمشي على الأرض! ألم يرد مثل هذا في وصف أبناء الجيل القرآني الفريد: مصاحف تمشي على الأرض!

وبعد؛

فلنعرض للوظائف القرآنية التي نراها على السائر، فنقول- وبالله التوفيق-:

الوظيفة الأولى: ورد التلاوة.

القرآن حياة، وهجره موت، وهو مما يحتج به الرسول على أعدائه: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ الفرقان [30]، وفي الفوائد لابن القيِّم:

«هَجْرُ القرآن أنواعٌ:

أحدها: هجرُ سَماعِهِ والإيمان به والإصغاءِ إليه.

والثاني: هجرُ العملِ به والوقوفِ عند حلالِهِ وحرامِهِ، وإنْ قرأهُ وآمنَ به.

والثالث: هجرُ تحكيمِه والتحاكمِ إليه في أصول الدِّين وفروعِهِ، واعتقادُ أنَّه لا يُفِيدُ اليقينَ، وأنَّ أدلَّتَهُ لفظيَّةٌ لا تحصِّلُ العلمَ.

والرابع: هجرُ تدبُّرِه وتفهُّمِه ومعرفةِ ما أراد المتكلِّمُ به منه.

والخامس: هجرُ الاستشفاءِ والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها؛ فيَطلبُ شِفاءَ دائِهِ من غيره، ويَهجُرُ التداويَ به، وكلُّ هذا داخلٌ في قولِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ الفرقان [30]، وإنْ كان بعضُ الهَجْرِ أهونَ من بعضٍ» [148].

والضررُ الذي يحصل بتركه على قلب المؤمن ضررٌ بالغ لا يُقادَر قدره، ولا يجبر الكسرَ غيره!

ثم المُوطِّئ لهذه الوظيفة والمُعين عليها: تجويد قراءة القرآن وتصحيح تلاوته، بحيث يضبط النطقَ به ويقرأه قراءة صحيحة؛ فأول الفهم أن يُقرأ قراءة صحيحة، ويمكن لأجل هذا الالتحاقُ بدورات التجويد وتصحيح التلاوة، والمراكزُ القرآنية ومعلمو التجويد والتلاوة كثيرون، ولله الحمد.

فإن حصل على الإجازة في التلاوة فهو أولى، وإن حفظَ القُرآن كلَّه فهذا خير كثير، وهو مُعين جداً على الفهم والربط بين المواضع والتنبه للنكات وفهم الرسائل الكلية لكل سورة.

---

(148) الفوائد، 118.

والحقيقُ بالسائر في طريق الفتح وصناعةِ النهضةِ الإسلاميةِ أن يقرأَ في اليوم جُزءاً من القرآن؛ بحيث يختم في كل شهر مرة، ثم يزيد في رمضان ليقرأ الضعف على الأقل إذ هو في شهر القرآن.

فإن نزل عن الجزء فلا ينقص عن نصفه، وإن افتتح به يومه من بعد صلاة الفجر فهو أولى به وأحرى أن ينزل من القلب مَنْزِلَه اللائقَ به، وهو أشدُّ وطئاً وأقوم قيلا! وإن قام به الليل فهذا دأب الكبراء الخاشعين والفاتحين المنتظَرين!

ثم لا يكن هُّمه في التلاوة آخرَ الورد، فإن ذلك مُذهِبٌ للبركة سالب للخشوع ماحقٌ للتدبر، إنما يَقرأ على مهلٍ فارغَ القلب إلا من معاني القرآن يملأ بها قلبه ويجيل فيها فكرَه، وتُعِينُه الوظيفة الثانية على هذا.

الوظيفة الثانية: ورد التفسير والتدبر.

كما أحبُّ للسائر في الطريق وأندبُه إلى تخصيص شيء من الوقت للنظر في تفسير القرآن ومعرفة معانيه الإجمالية على الأقل ليرفع من قدرته على التدبر ويوسع مساحات نظره في القرآن، وأرشِّح للمبتدئ أن يقرأ بعض هذه التفاسير:

- تيسير الكريم الرحمن للشيخ السعدي.
- القرآن؛ تدبر وعمل، دار المنهاج.

- المُعين على تدبر القرآن الحكيم، لأخي الشيخ العالم المهذب مجد مكي.
- المختصر في تفسير القرآن الكريم إنتاج مركز تفسير.
- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي.

ويمكن أن ينتقل إلى المتوسطات، كتفسير ابن كثير أو أحد تهذيباته ومختصراته، وأرشح منها: تهذيب أستاذنا العلامة د. صلاح الخالدي رحمه الله تعالى، أو التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزيٍّ الكلبي إن كان مقبلاً على طلب العلم، وحريٌّ بكل سائر في الطريق أن يكون كذلك، وينتقل من هذه إلى غيرها من أسفار التفسير.

وبرمجةُ القراءة في هذه التفاسير مفيدةٌ للقارئ وضابطةٌ للإنجاز، فلو حدَّد لنفسه كلَّ يوم عددَ صفحاتٍ مناسباً لوقته وإمكانياته العلمية لكان حسَناً، وليقرأ في كل كَرَّةٍ تفسيراً أكثر عمقاً، ليصل بنفسه إلى ما يروم من تحصيل هذه الكنوز، وليحرص على التفاعل مع المقروء والتخطيط تحت الجديد من المعلومات، ولا بأس بتسجيل بعض الملاحظات التدبرية على صفحات مصحفه الخاص بقلم رصاص.

والتفسيرُ هذا هو مفتاحُ التدبُّر وسبيلُ استمطار الأفكارِ في الآيات، فليحرص عليه فإن الشفاء القلوب ثمة، ومغفرةً ورحمةً وكنوزَ علم وتربية وهداية!

ذكرنا الصلاة والقرآن، وبينَّا المقدارَ الذي لا يليقُ بالسائرِ أن ينزِلَ عنه في الوظائف الخاصَّة بهما، وهنا نعرِّجُ على ما يتعلَّق بصيام النافلة، ومما ورد فيه من الفضائل:

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ البقرة [183]، وهو وإن كان في صيام رمضان؛ فإن فيه بياناً لأثر الصيام على القلب، وهو حصول التقوى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، ووجه ذلك: أن الصيام لَمَّا أشبه العبادات الخفية التي لا يطلع عليها أحد كان ذلك أَمْرَن له على تنمية التقوى؛ إذ ما من صائم قد أتى بالصيام الشرعي إلا وقد دلَّ ذلك على حصول بذرة التقوى في قلبه، فالصيام لا ينعقد إلا بالنية، ولا يطَّلع على امتناعه عن الطعام والشراب أحد أو لا يطَّلع على سبب امتناعه- على الأقل- أحد، فيعمِّق بمزاولة ذلك وتكراره معاني المراقبة في نفسه، ثم إنه لَمَّا امتنع عما هو في الأصل مباح لأجل الله كان ذلك كالتمرين له أن يقف عند أمر الله ويعظِّمَ عصيانه، وأن يروِّض نفسه على الالتزام بأحكام الشريعة.

وأثنى الله عز وجل على الصائمين من عباده فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ الأحزاب [35]، وهذه باقةٌ من أفضل الأعمال جمعَها الموعودون بالمغفرة والأجر العظيم، والوعد الجميل ترتب على الجميل من الأعمال والعبادات والأخلاق.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «قال اللهُ عز وجل: كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ لهُ إلا الصِّيام، فإنَّهُ لِي وأنا أجْزِي به، والصِّيامُ جُنَّةٌ، فإذا كان يومُ صَوْمِ أحدكُمْ فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَبْ فإن سَابَّهُ أحَدٌ أو قاتَلَهُ فلْيَقُلْ: إنِّي صائمٌ، والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أطْيَبُ عِنْدَ الله مِنْ رِيحِ المِسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بفطره، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»، وفي روايةٍ له: «يَتْرُكُ طَعَامَه وَشَرَابَه وشهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، الصِّيَامُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا» (149).

وتنبه إلى قوله: «يَتْرُكُ طَعَامَه وَشَرَابَه وشهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي»، فإنها من أسرار قوله في أول الحديث: «كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ لهُ إلا الصِّيام، فإنَّهُ لِي وأنا أجْزِي به»، وتأمَّل الأثر الذي يتركه هذا الصيام على القلب!

---

(149) صحيح البخاري، 1904، وصحيح مسلم، 1151..

وتنبَّه كذلك إلى التوجيه التربوي العميق المصاحب للصيام: «والصِّيامُ جُنَّةٌ»، يقي صاحبه الولوغ في المحرَّمات لِمَا يتركه من أثر على النفس، ولتنميته ملكة التقوى في القلب، وكذلك قوله: «فإذا كان يومُ صَوْمِ أحدكُمْ فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَبْ فإن سَابَّهُ أحَدٌ أو قاتَلَهُ فلْيَقُلْ: إنِّي صائمٌ»، فليس المقصود إذاً مجرَّدَ ترك الأكل والشرب، إنما هناك ملحظ تربويٌّ خلُقيٌّ حريٌّ بالمؤمنين أن يعتنوا به، ومن هنا تفاضل الناس في صيامهم، وأتحفنا بناءً على هذا المعنى الإمام الغزالي في الإحياء ببيان مراتب الصائمين، وسيأتي ذكرُ ذلك إن شاء الله.

وعنه أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «مَن أنْفق زوجَيْنِ في سبيل الله نُودِيَ من أبوابِ الجَنَّةِ: يا عبد الله هذا خيرٌ، فمنْ كان من أهلِ الصَّلاة دُعِيَ مِن بابِ الصَّلاةِ، ومن كان مِن أهلِ الجهادِ دُعِيَ مِن بابِ الجهادِ، ومن كان منْ أهلِ الصِّيامِ دُعِيَ مِن بابِ الرَّيَّانِ، ومَن كان مِن أهلِ الصَّدقة دُعِيَ مِن بابِ الصَّدَقة»، قال أبو بكرٍ رضي الله عنه: بأبي أنت وأمِّي يا رسولَ الله! ما على مَنْ دُعِيَ من تلك الأبوابِ مِن ضرورةٍ، فهل يُدْعى أحَدٌ مِن تلك الأبوابِ كلِّها؟ فقال: «نعم، وأرجُو أن تكون منهم» [150].

وفي الحديثِ حرْصُ أبي بكر رضي الله عنه على قرع كلِّ باب من أبواب الخير، فإن المرء لا يدري ما الباب الذي يُفتح له، وكذلك أصحاب الهمم الكبيرة لا يَقبلون إلا بأعلى المراتب، والصديقُ رضي الله عنه إمام أصحاب

(150) صحيح البخاري، 3666، وصحيح مسلم، 1027..

الهمم، والسائرون في طريق التغيير والتحرير تُسامي هممهم النجوم، ويطمحون إلى قرع أبواب الجنة كلِّها، وباب الصيام أحدها.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي صلَّى الله عليه وسلم قال: «إنَّ في الجنَّةِ باباً يُقالُ له: الرَّيَّانُ، يَدخُل منه الصَّائمون يوم القيامة، لا يَدْخُل منه أحدٌ غيرُهم، يقال: أين الصَّائمون؟ فيقومون لا يَدخُل منه أحدٌ غيرهم، فإذا دخلوا أُغْلِقَ فلم يدخُل منه أحد» (151).

وأحسب أن الكلام عن الصيام في الحديث إنما هو في النوافل، وأحرى أن يكون الذين يُنادَون من باب الريان هم الذين يجمعون إلى صيام رمضان صيامَ غيره من الأيام الفاضلة المستحبِّ الصيام فيها، وقد مرَّ بي الكثير من الأصدقاء الذين أدمنوا عبادة الصيام لعقود؛ حتى لا تراهم في الأيام الفاضلة إلا صياماً، فهنيئاً لمن وفقه الله لطاعته.

وعن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «ما مِن عبدٍ يصوم يوماً في سبيلِ الله إلا باعد اللهُ بذلك اليومِ وجهه عن النَّارِ سبعين خريفاً» (152).

(151) رواه البخاري في صحيحه (ج3/ ص25/ ح1896).

(152) رواه البخاري في صحيحه (ج4/ ص26/ ح2840).

وهذا وعدٌ كريمٌ حقيقٌ بأن يعتنيَ السائرونَ به ويحرصوا عليه.

ولنتأمل- وأترك التعليق للقارئ- كلامَ الغزاليِّ في درجات الصوم؛ فإن فيه ما لا ينبغي أن يفوت، قال- مع تصرف واختصار-:

«اعلم أنَّ الصَّوْمَ ثلاثُ درجاتٍ: صَوْمُ العمُومِ وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص،

- وأما صومُ العمومِ فهو كَفُّ البطْنِ والفرْجِ عن قضاء الشهوة، كما سبق تفصيله.
- وأمَّا صومُ الخصوصِ فهو كَفُّ السَّمعِ والبصَر واللِّسان واليدِ والرِّجلِ وسائر الجوارح عن الآثام.
- وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدَّنِيَّة والأفكارِ الدُّنيويَّة، وكَفُّهُ عمَّا سوى الله عز وجل بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر، وبالفكر في الدنيا إلا دنيا تُراد للدين، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا...
- وأما صوم الخصوص وهو صوم الصالحين، فهو كفُّ الجوارح عن الآثام، وتمامه بستة أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: غضُّ البصرِ وكفُّهُ عن الاتِّساعِ في النَّظَرِ إلى كُلِّ ما يُذمُّ ويكرهُ وإلى كُلِّ ما يُشْغِلُ القلب ويُلْهِي عن ذكر الله عز وجل...

- **الثاني:** حفظ اللسان عن الهذيان والكَذِبِ والغيبة والنَّمِيمَة والفُحْشِ والجفاءِ والخصُومة والمِراءِ وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن فهذا صوم اللسان.
- **الثَّالثُ:** كَفُّ السَّمعِ عن الإصغاءِ إلى كلِّ مكروهٍ لأن كُلَّ ما حرُمَ قوله حرُمَ الإصغاءُ إليه، ولذلك سوَّى الله عزَّ وجلَّ بين المستمع وأَكْلِ السُّحْتِ فقال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ المائدة [42].
- **الرابع:** كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكارهِ، وكفُّ البطنِ عن الشُّبُهَاتِ وقت الإفطار، فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطَّعَامِ الحلالِ ثم الإفطارِ على الحرامِ... والحرام سمٌّ مُهلِكٌ للدين، والحلالُ دواءٌ ينفع قليلُه ويضر كثيره، وقَصَدَ الصَّوْمُ تقليلَه...
- **الخامس:** ألا يستَكْثِرَ مِن الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ جوفه... وكيفَ يُستفادُ مِن الصَّوْمِ قَهْرُ عَدُوِّ الله وكسْرُ الشَّهْوَةِ إذا تدارَك الصَّائِمُ عند فطْرِهِ ما فاتَهُ ضَحْوَةَ نهارِه وربَّما يزيدُ عليه في ألوانِ الطَّعام؟!... بل من الآداب ألا يكثر النوم بالنهار حتى يحسَّ بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى، فيصفو عند ذلك قلبه ويستديم في كل ليلة قدراً من الضعف حتى يخفَّ عليه تهجده وأوراده، فعسى الشيطان ألا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء.

السادس: أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً مُضطربًا بين الخوفِ والرَّجاء، إذ ليس يدري أَيُقْبَل صومُه فهو من المقرَّبين أو يُرَدُّ عليه فهو مِن الممقوتين! وليكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها... فهذه هي المعاني الباطنة في الصوم» [153].

- ولنختم ببيان **الوظيفة المقترحة**، فنقول:

أما صوم رمضان وتجويده فمحلُّه الكلام في تجويد الفرائض، ولم أتبسَّط بالكلام هناك حتى لا نحتاج إلى التكرار هنا، وبما قلناه هنا يُستفادُ هناك، وعلى كلِّ حال فذاك الكلام في فريضة الصوم، ثم يحسن بالسائر أَلّا يفوِّت الأيام المخصوصة في العام، مثل: صيام يوم عرفة، ويوم عاشوراء، ومعه يومٌ قبلَه أو يومٌ بعده، وصيام الستة من شوال.

ويحسُن به أن يصوم ثلاثة أيام من كلِّ شهر، ولتكنْ أيامَ البِيض: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر قمريٍّ.

وإن وجد في نفسه طاقةً لصيامِ الإثنين والخميس من كلِّ أسبوع فهذا خيرٌ كثير، وأفضلُ الصيام: صيامُ داود- كما في الحديث-: أن يصوم يوماً ويفطر يوماً [154]، وهو الغايةُ التي لا غاية وراءها في صيام النافلة.

---

(153) إحياء علوم الدين، 1/ 235.

(154) رواه البخاري في صحيحه (ج3/ ص40/ ح1976).

ومما يرتبط بعبادة الصيام: الاعتكاف وهو لزوم المسجد بنية، وليس مختصاً بوقت الصيام على الأصح، إلا أن ارتباطه بالصيام صريح، حتى إن الآية التي ذكَرت أحكام الاعتكاف في القرآن كانت في آيات الصيام: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ البقرة [187]، إلى قوله: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ البقرة [187].

فإنْ حرَص السائر على الإكثار من الاعتكاف في رمضان فهو حسن، وأحسنُه: أن يلزم المسجد في العشر الأخيرة منه، وأصل الاعتكاف: ألا يخرج من المسجد في هذه العشر ليلا ولا نهاراً، فإن لم يستطع لظرف العمل أو الدراسة وما أشبه فلا بأس بالاقتصار على الليالي دون الأيام.

وفي غير رمضان أحبُّ للسائر أن يعتكف مع إخوانه ليلةً واحدة من كل شهر، تجديداً للإيمان وتذاكراً مع الإخوان وإحياء للقلوب بذكر الله وتنبيهاً للنفس على سنة القيام.

والذي أحسبه أن تُورث هذه الوظائف قلب السائر خيراً كثيراً، وأن تعمِّق لديه الشعور بالقرب من الله، وترفع استعداده للتضحية لأجل الله، فليغترف السائرون من هذا النهر الجاري، والله يمنُّ على من يشاء.

لا يبخل السائرُ بنفسه- فضلا عن ماله- في هذه الطريق، ويملكُ الاستعدادَ التامَّ أن يبذلَها في سبيل الله، ومن أعجبِ الأحاديث الواردة في فضائل بيت المقدس: «وليوشكن أن يكون للرجل مثل شطن فرسه من الأرض حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعاً»، فإن فيه إخباراً نبوياً عن جيل مميز، لا يجِدُ حرَجاً أن يضحيَ بالدنيا جميعاً مقابل رؤية المسجد الأقصى فحسب؛ فضلاً عن تحريره وإرواء الظمأ من السجود في محاريبه المقدسة.

والذي تجتاحه مشاعرُ الحبِّ هذه ويتملَّكه الاستعدادُ لبذل الدنيا جميعاً في مقابل التحرير لا يبخلُ بالمال في سبيل الله، وكيف يضنُّ بماله وقد سمحتْ نفسُه ببذلِ الرُّوح؟! كيفَ وقد أخبرَ اللهُ تعالى عن خيارِ المؤمنين في الصفقة مع رب العالمين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾التوبة [111]؟! ألَا إن مَن بخِلَ بماله فهو بنفسه أبخل، ومن ضنَّ وقت الرخاء وقبض يده فلن يبسطها وقت الشدة والمحنة والابتلاء!

والصدقة برهان الإيمان، في الحديث: «والصدقة برهان»[155]، «معناه أنه يفزع إليها كما يفزع للبراهين، كأن العبد إذا سئل يوم القيامة عن مصرف ماله كانت له صدقاته براهين في جواب هذا السؤال فيقول: تصدقت به»[156]، وفي جامع العلوم والحكم: «وأَمَّا الصَّدَقَةُ، فهي برهانٌ، والبرهانُ: هو الشُّعاعُ الذي يَلِي وجهَ الشَّمس، ... ومنه سُمِّيَتِ الحُجَّةُ القاطعة برهانًا، لوضوح دلالاتها على ما دلَّتْ عليه، فكذلك الصَّدَقَةُ برهانٌ على صِحَّة الإيمان، وطِيبُ النَّفْسِ بها علامةٌ على وُجود حلاوة الإيمانِ وطعمه»[157].

نعم؛ يسهُلُ أن ينسِج الإنسان بطولات بلسانه وأن يدَّعي كمال الإيمان والرغبةَ بما عند الرحمن بجملٍ رنانة تَطْرَبُ لها الآذان، لكن كلَّ ذلك بلا برهان مجردُ ادَّعاء وزعم، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ الصف [2].

والمالُ عصَبُ الحياة كما يُقال، ويقول الدعاة: المال عصب الدعوة، ويقول المجاهدون: المال عصب الجهاد، ومقاومةُ المحتلِّ - الذي يخصِّصُ ميزانياتٍ هائلةً في حرب الإسلام وتهويد القدس وفلسطين - لا تكون إلا

---

(155) رواه مسلم في صحيحه (ج1/ ص203/ ح223).

(156) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد، 85.

(157) جامع العلوم والحكم، 2/ 23، وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، 3/ 458.

بأن يبذل المخلِصون خِيرةَ أموالهم في مقاومة الإفساد: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ الأنفال [73]، ومصدرُ أموال الأعداء: مؤسساتٌ دوليةٌ عملاقة، ودولٌ غنيةٌ تجعل من عداء الإسلام وتهويد القدس هدفاً مقصوداً لذاته أو لغيره، وأثرياء عالميون من اليهود والمتهودين يَضُحُّون أموالاً هائلة في أتون المعركة على القدس وعلى القرآن وعلى الهوية! ويتعيَّن على المسلمين في المواجهة الساخنة ألا يدَّخروا جهداً ولا مالاً ليزجُّوا به في تلك المعركة؛ مشاركةً فيها ودعماً للمتصدِّين لها من جند الحق في الصفوف الأولى، وليس ذلك منهم تفضلاً والله، إنما هو الواجب، والمالُ مالُ الله، ونحن مستخلَفون فيه: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الحديد [7]، فننفق فيما استخلفنا الله فيه على ما أمرَنا الله به!

ولنستحضر بعض فضائل الصدقة من الكتاب والسنة، وهي كثيرة ويكفينا منها إشارات تدلُّ على ما بعدها:

- قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ البقرة [261]، والآية وإن كان لفظها يشمل كلَّ نفقة فإنها بالنفقة في الجهاد أخصُّ، ودليلُ ذلك السياق العام للآيات حولها، وقد قال الإمام القرطبي:

«وهذه الآيةُ لفظُها بيانُ مثالٍ لِشرفِ النَّفقة في سبيلِ الله وحُسْنِها، وضمَّنها التَّحريضَ على ذلك...وسُبُلُ الله كثيرةٌ، وأعظمُها الجهاد لتكون كلمةُ الله هي العلْيا» [158].

وتأمُّلُ هذه الآية وإبصارُ بلاغة نظمها وجمالِ التمثيل فيها يوقع على الكثير من الفوائد، فعدْ- غير مأمور- إلى المراجع المناسبة، لكنني أقول:

أي تجارة في الدنيا تعود بالربح الوفير كهذه التجارة مع الله؟! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١﴾ الصف [10، 11]، والنفوسُ مجبولةٌ على حبِّ تحصيل الربح، ويحصلُ لها بذلك من الفرحِ ما لا يحصل بكسب المالِ بطرُقٍ أخرى، فكيف بمثلِ هذا الربح العجيب؟ الحبةُ وهي الصدقةُ تنبتُ سبع سنابل لا سبع حبوب! كل سنبلة محمَّلة بما لا عهد بمثله في دنيا البشر: محمَّلة بمائة حبة! فصارت الحبة الواحدة سبعمائة حبة، ولن يقف الجود الإلهي لأولئك الذين عاملوا الله عند هذا الحد؛ بل الله يُضاعِفُ فوق هذا لمن يشاء، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾ البقرة [261] فأنْعِمْ بها من تجارة لا خاب من تعاطاها! ولكنها تجارة الموقنين!

الأمر في القرآن بالإنفاق في سبيل الله كثيــر وفي خصـوص الجهاد منه

(158) تفسير القرطبي، 3/ 303.

كثير كقول الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ البقرة [195]، والإنفاق المأمور به هنا: الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، ولاحظ- وفقك الله- تسميةَ الإنفاق جهاداً في القرآن: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ الأنفال [72].

ولا شكَّ أن الجهاد بالمال قد يتوجَّب ويتعيَّن كما يتعين الجهاد بالنفس، بل مساحة الوجوب هنا أوسع، فإنه يسع كلَّ أحد باستثناء المُعْدَم، وقد لا يسع الجهادُ بالنفس كثيراً من الناس!

ولا يقتصر إنفاقُ السائرِ على هذه الباب، فأبوابُ الصدقات كثيرةٌ، ويحسنُ بالواجد أن يبذل في كلّ باب، تأمل قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ البقرة [274]، ففيه التنبيه على أن الممدوحين في الآية لا يَدَعون بابَ نفقةٍ إلا أنفقوا فيه، ولا فرصة للخير إلا اغتنموها، والآياتُ في بيان فضلِ الإنفاق في سبيل الله أكثرُ من أن تُحصى في مثل هذه العجالة، ومما ورد في السنة- وهو كثير كذلك-:

- ما روته أمُّنا عائشة رضي الله عنها أنهم ذَبَحوا شاةً، فقالَ النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما بقيَ منها؟»، فقالت: ما بقِيَ إلا كَتِفُها، قال: «بقِيَ كلُّها غيرَ كتِفِها» [159].

(159) صحيح: رواه أحمد في مسنده (ج40/ ص286/ ح24240)

وفي هذا الحديث تنبيهُ البصيرِ على أن الباقيَ للمؤمن هو ما قدَّمه لنفسه بين يدي الله تعالى، وأن ما سواه فإلى الفناء!

وقال رســـول الله صلى الله عليه وسلـــم: «الصَّدَقةُ تُطْفِئُ الخطيئةَ كما يُطفئ الماءُ النَّار» [160].

والسائر إلى الله تعالى قد تفرُط منه الذنوب فيتداركها بالتوبة، ويحرصُ على مكفِّراتها من فضائل الأعمال، ومن أهمها: الصدقة؛ التي تطفئ شرها وتمحو أثرها.

عن أبي هريرة أنه قال: يا رسولَ الله، أيُّ الصدقةُ أَفْضَلُ؟ قال: «جُهْدُ المُقِلِّ، وابدَأْ بمَنْ تَعولُ» [161].

أي: أفضل الصدقة ما قدر الفقيرُ الصابرُ على الجوع أن يعطيه.

والمراد بالغنــيِّ في قــوله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى»: مَن لا يصبر على الجوع والشدة؛ توفيقًا بينهما، فمن صبر فالإعطاءُ في حقه أفضل، ومن لا يصبر فالأفضلُ في حقه أن يمسك قُوْتَه، ثم يتصدق بما فضُل» [162].

---

(160) صحيح: رواه أحمد في مسنده (ج40/ ص286/ ح24240)

(161) صحيح: رواه احمد في مسنده (ج36/ ص447/ ح22133).

(162) صحيح: رواه أحمد في مسنده (ج14/ ص324/ ح8702).

وعن فاطمة بنت قيس أنها قالت: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن في المال لحقًا سوى الزكاةِ» [160].

والسؤال يصوغه الفقهاء على هذه الهيئة: هل في المال حقٌّ سوى الزكاة؟ ومَن أخرج الزكاة؛ هل يُطالب بغيرها؟ الذي أراه- وفي المسألة خلاف- أنه لا يُطالب إن كانت الأوضاع العامة طبيعية، فإن نزلت النوازل واحتيج إلى ماله وجب عليه أن يُخرجَ ما يزيد على الزكاة، كما في حالة جوع المسلمين وحاجتهم إلى طعام، أو احتياج المسلمين إلى مال لرد العدوِّ؛ فإنه يتوجب عليه في مثل هذه الأحوال أن يُخرج من ماله ما يعتذر به أمام الله.

عن أبي هريرة قال: قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: (السَّاعِي على الأرملة والمسكينِ، كالمجاهِد في سبيلِ الله، أو القائم الليل والصائم النهار).

وفي الحديث بيانُ فضلِ القائم على أَعمالِ الخير الساعي على سدِّ حاجة المحتاج وخُلَّة العاجز، ولهذه الأعمال من الأثر الدعوي واكتساب الأنصار للدعوة ما فيه، فليحرص عليها الدعاة والفاتحون.

عن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ قال: «جاء رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: إنِّي أُبْدِعَ بي فاحملْني [161]، فقال: ما عندي، فقال رجلٌ: يا

(163) ضعيف: رواه الترمذي (ج3/ ص39/ ح659).

(164) معنى: "أُبدع بي": "انقطع بي، ويقال: أبدعت الرِّكاب إذا كلَّت، قاله الخطابي، وفي النهاية: يقال: أبدعت الناقة إذا انقطعت عن السير بكلال"، عون المعبون ج14، ص31.

رسُولَ الله، أنا أَدُلُّهُ على مَن يَحْمِلُه، فقال رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "مَنْ دَلَّ على خيْرٍ فله مثلُ أجر فاعله» (165).

وفي الحديث مفتاحُ خَيرٍ لمن لا يَملِكُ المال، ذلك أنه يَسَعُه لتحصيل أجرِ المنفقين أن يدلَّ الأغنياء على مواطن بذل المال وعلى وجوه البر، فإن فَعَلَ كان له كأجورهم، وفي قضية بيت المقدس- مثلاً- ترى بعض الموفَّقين يسعى- متطوِّعاً- للحثِّ على إنفاق المال في سبيل نصرة القدس وتثبيت أهلها ومشاريع مواجهة التهويد، وفي حقل القرآن، تراه يدعو إلى دعم المراكز القرآنية ومشاريع العلم الشرعي، ويزكِّي للناس ما صفا منها- والصافي كثير والحمد لله-، وفي حمل الضعفاء تراه ساعياً على الأرملة والمسكين، ما بين سد الجوعة وحسن التوجيه والتربية.

عن أنسِ بن مالكٍ «أنَّ فتًى مِن أسلمَ قال: يا رسول الله، إنِّي أُريدُ الغزو وليس معي ما أتجهَّزُ، قال: ائْتِ فُلانًا، فإنَّهُ قد كان تجهَّزَ فمرِضَ، فأتاهُ فقال: إنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُقرِئُك السَّلام ويقول: أعطِني الذي تَجَهَّزْتَ به، قال: يا فُلانة، أعْطِيهِ الذي تَجَهَّزْتُ به، ولا تَحْبِسِي عنه شيئًا، فوالله لا تَحْبسي منه شيئًا فيُبارَكَ لكِ فيه» (166).

(165) رواه مسلم في صحيحه (ج3/ ص1506/ ح1893).

(166) رواه مسلم في صحيحه (ج3/ ص1506/ ح1894).

في الحديث أن من عجز عن الجهاد أو الدعوة أو التعليم بنفسه؛ فإن كفالته لمجاهد أو داعية أو معلم قرآن يقوم مقامَ ذلك، والحمد لله على وافر عطاياه! ويدل عليه ما رُوي:

عن زيدِ بن خالدٍ الْجُهَنِي عن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: «مَن جهَّز غازيًا في سبيل الله فقدْ غزا، ومَن خلَفَه في أهله بخيرٍ فقد غزا» (167).

فهذا غيضٌ من فيض، والمستزيدُ يجدُ في المظانِّ ما يروي الظمأ، ولننتقل إلى **الوظيفة المقترحة**:

أحبُّ للسائر أن يجعل للنفقة في سبيل الله من دخله الشهري أو الطارئ نصيباً، فيحدِّدَ نسبةً من راتبه إن كان موظفاً، ولتكن اثنين ونصفاً بالمائة- استئناساً بالنسبة الزكوية- ليجعلها في مشاريع القدس أو تعليم القرآن أو مساعدة الفقراء أو غير ذلك من وجوه الخير.

وإن كان رجلَ أعمال فليجعل لذلك نصيباً من كلِّ صفقة أو موسم؛ يباركْ له فيها، ويكون ذلك منه شكراً تُتطلَّب به زيادةُ النعم: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ابراهيم [7]، ويُخلف الله على المنفقين: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ سبأ [39].

(167) رواه البخاري في صحيحه (ج4/ ص27/ ح2483).

فإن باشر زيارة الفقراء والتواضع لهم فهو حسن، وفيه مِن ترقيقِ القلبِ بمعاشرةِ الضعفاءِ ورؤيةِ أحوالِهم ما لا يحصلُ بمعاشرةِ غيرهم.

والإنفاقُ تزكيةٌ للنفس من داء الشحِّ المجبولةِ عليه: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ النساء [128]، وهذا النوع من تزكية النفس لا يحصل بوسيلة أخرى غير الإنفاق.

ثالثاً الذِّكر والفِكْر

هذا عالَمٌ متداخلٌ مع كلِّ ما ذُكر من قبل، فالذِّكْر في الصلاة والقرآن واضح الحُضور، والفِكرُ فيهما وفي غيرِهما لا غنى عنه، ولا معنى للعمل دونه ولا رُوح، وإنما آثرنا تخصيصَ الذكرِ والفكرِ بالتنبيه هنا لمزيد تركيز وتأكيد، وهذه واحة واجبة الدخول في الدنيا ليلج المرء منها إلى جنة الآخرة وواحاتها.

ولا أجد باباً يوصل إلى الله تعالى أقرب من باب الذِّكر والفكر، ولا أخشع ولا آنس لقلب السائر منه، ولا أفضل في تخليص القلب من العلائق والمُلهيات والمُلفِتات والمُشغِلات.

يقول ابن عجيبة في شرح البديع على الحكم العطائية [168]: «الذِّكر: إذا

(168) سماه: إيقاظ الهمم في شرح الحكم، وهو تحفة سنية المضامين، محلَّاة بجياد العبارات عن العارفين، وفيه بعض المبالغات والعبارات التي يحسُن أن توضَّح ويزال اللبس الذي توحي به ظواهرها، ويحسن أن لا يطالعه إلا من عرف السبيل.

أُطلق ينصرفُ لذكر اللسان، وهو ركنٌ قويٌّ في طريق الوصول، وهو منشور الولاية، فمن أُلهم الذكر فقد أعطيَ المنشور، ومن سُلِب الذكر فقد عُزِل، فذِكْرُ العامة باللسان، وذِكرُ الخاصة بالجنان، وذِكرُ خاصة الخاصة بالروح والسر» [169].

وعَدَّ الإمامُ القشيريُّ الذكرَ ركناً قوياً في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر [170].

فهو يَمْلأ قلبَ السائرِ في طريقِ الدعوة إلى الله وتحريرِ بيتِه المقدَّس إيماناً بالله وخشوعاً لجلاله واستصحاباً لمعيَّته وشعوراً دائماً بقربه وامتلاءً بحبه، وهذا مِن ضرورات الطريق، وإلا فبأيِّ شيءٍ يصبر على لأوائها؟

ويقول القاشانيُّ: الذِّكْرُ: «الخلاصُ من النسيان بدوام حضور القلب مع الحق» [171]، وهذا تفسير بالمقصود، وهجرةُ دارِ الغفلة عن الله وعظمتِه وشهودِه ورحمتِه وجلالِه وجمالِه وسائرِ كمالاته إنما يكون بدوام الحضور مع الله بأن يلهج اللسان بذكرٍ يواطؤه قلبٌ يقِظ!

---

(169) ايقاظ الهمم، 201

(170) الرسالة القشيرية، 2/ 374

(171) الرسالة القشيرية، 2/ 375

ويحسُن التنبيه على كثرةِ الواردِ في شأنِ الذِّكر من الفضائل في الكتاب والسنة وفي المرويات عن السلف من الأقوال والأفعال، ونكتفي بالقليل المناسب مع شيء من التعليق والتنبيه على النكات والفوائد:

◆ فمما ورد من **فضائل الذِّكر في القرآن**:

« قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ الأحزاب [41، 42]، والأمر هنا للذين آمنوا هو بالإكثار من الذِّكر لا بمجرد الذِّكر، ولا نعلم عبادةً غيرَها أُمرَ العبد بالإكثار منها، ثم جاء الأمر بدوامِ التسبيح، وخُصَّ الوقتان- البكرة والأصيل: أول النهار وآخره- لأهمية ذينك الوقتين، ولكون التسبيح والذكر فيهما ذا أثر على قلبِ الذاكر وطمأنينتِه وشعورِه بالمعيَّة.

« وقولُه سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ الأنفال [45]، حيث علَّق الفلاح بكثرة الذِّكر، وما أحوج السائر في طريق نصرة الدين وتحرير بلاد المسلمين إلى الفلاح، فهو صاحب مشروع، ولا يصل العبد باجتهاده إلى شيء، إنما هو التوفيق، فإن نُزِعَ: شقيَ العبد ولم يسعد، وضلَّ سعْيُه وتبخَّرت آمالُه بالفلاح!

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأولُ ما يجني عليه اجتهادُه

ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾ الأحزاب [35]، وفيه زيادةُ بيانٍ للفلاحِ المُبهَمِ في الآية السابقة، فإن ما يَنتظرُ الذاكر والذاكرة عند الله عظيم، والعظيم سبحانه إذا وصف شيئاً بأنه عظيم فإنه عظيم حقاً، فالموعودُ يليقُ بالكرم الرباني، وقد قيل:

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائم .. وتأتي على قدرِ الكرام المكارم

وأعظم ما جاء في الوعد على الذِّكر قولُه سبحانه وتعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ البقرة [152]! وأيُّ فضلٍ أعظم من أن يذكرك الكريم الرحيم العظيم إذا ذكرتَه، ومن أنت أيها الإنسان الضعيف ليذكرك الله إذا ذكرته، وليكافئك على ذكره بذكرك؟!

قال ثابت البُناني رحمه الله: إني أعلم متى يذْكُرُني ربي عز وجل، ففزعوا منه وقالوا: كيف تعلم ذلك؟ فقال: إذا ذكرته ذكرني[172]!

وأثنى الله سبحانه على الملازمين لذكره، مع التفكر في دلالة مخلوقاته عليه وفي عظيم حكمته في صنعه: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ آل عمران [191].

(172) جامع العلوم والحكم، 2/ 510.

قال الإمام البغوي: «أراد به المداومة على الذِّكرِ في عُمُومِ الأحوال لأنَّ الإنسان قلَّ ما يَخْلُو مِن إحدى هذه الحالاتِ الثَّلاثِ، نظيرهُ في سورة النِّساءِ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء 103]، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما أَبْدَع فيهما لِيَدلَّهم ذلك على قُدرَة الله ويعرفوا أنَّ لها صانعًا قادرًا مُدبِّرًا حكيمًا، قال ابن عَوْنٍ: «الْفِكرةُ تُذْهِبُ الغفلةَ وتُحْدِثُ للقلبِ الخشيةَ كما يُحْدِثُ الماءُ للزرعِ النَّبات، وما جُلِيَتِ القلوبُ بمثْلِ الأحزانِ ولا استنارَتْ بمثْلِ الفكرة» (173).

وهذه الآية جمعت الذكر والفكر، وهو الحالة الفضلى، ذلك أن الذكر لا يخلو أن يكون:

- ذكراً باللسان وحده.
- أو ذكراً بالقلب وحده، وهو المعبَّر عنه بالفِكر.
- أو ذكراً بهما معاً- الذِّكر والفِكر- وهو أكمل الأحوال، وهو المذكور في آيات سورة آل عمران، وبه يحصل أفضل الأثر، ويُكتب أعظم الأجر.

ويحذر السائر إلى الله أن يترك طريق أهل الطريق إلى الله؛ فيقلِّلَ الذِّكر ويزهد بالفِكر؛ فيكونَ كالأشقياء المبعَدين من المنافقين، وقد قال تعالى

(173) تفسير البغوي، 2/ 152.

في ذَمِّهم وبيان طريقتهم في التديُّن المفلوج: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢﴾ النساء [142]! فهذا فرقُ ما بين المؤمن والمنافق في هذه السبيل، وهو مؤشِّر سلوكيٌّ دقيق يمكن للمرء أن يقيس نفسه عليه ويُصلِحَ حاله بالنظر إليه.

- ويقابل حالة الذِّكر الفُضلى هذه حالةُ الغفلة، التي هي طريقة المنافقين الغافلين عن عظمة ربهم، قال عز وجل: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ الأعراف [205].

- وقال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ٤٥﴾ العنكبوت [45]، وهذه الآية فيها توجيه ربانيٌّ جامعٌ لأولئك المصنوعين على عين الله: أن يحافظوا على أورادهم من القرآن ومن الصلاة ومن الذِّكر، وقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يحتمل وجوها في التفسير، منها:

- أن ذكره تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه، وحَسَنٌ أن نذكِّر في هذا المقام بقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ البقرة [152]، وهو الذي رجَّحه الإمام الطبري رحمه الله.
- أن ذكركم الله أفضلُ مما سواه مما أُمرتم به، وأبلغُ في تحقيق المقصود في قلوبكم، ذلك أنه أَمَره بالصلاة فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ثم علَّل أمْره بها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ بسبب ما

تتركه في القلب من تعظيم لله ولأمره واستحضار للمقام بين يديه، ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من ذلك كلِّه في تحصيل التعظيم للأمر وللآمر سبحانه؛ فإنه يمكن أن يُصاحب السائر إلى الله في كل حين بخلاف غيره من العبادات الموقتة، والله أعلم.

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ الرعد [28]، ثناء على المؤمنين بالإيمان وثناء عليهم بجمع الطمأنينة إليه، والطمأنينةُ تحصلُ بذكر الله عز وجل، فيستقرُّ القلبُ وتسكُنُ النفس وتجدُ الروح أُنسها وراحتها، وفي لطائف الإشارات:

«قومٌ اطمأنت قلوبُهم بذكرهم الله، وفي الذِّكر وجدوا سلْوَتهم، وبالذكر وصلوا إلى صَفْوتهم، وقوم اطمأنَّتْ قلوبهم بذكر الله فذَكَرَهم الله سبحانه بلطفه، وأثبت الطمأنينة في قلوبهم على وجه التخصيص لهم، ويقال: إذا ذكروا أنّ الله ذكرَهم استروحت قلوبهم واستبشرت أرواحهم واستأنست أسرارهم، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ لِمَا نالتْ بذكره من الحياة، وإذا كان العبد لا يطمئن قلبُه بذكر الله، فذلك لخللٍ في قلبه، فليس قلبُه بين القلوب الصحيحة» [174].

(174) لطائف الإشارات، 2/ 230.

◆ **وأما الأخبار فكثيرة**، منها:

- قول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديث الإلهي: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ: أنا معَ عبدي ما ذكرَني وتحرَّكتْ شفتاه بي»[175].

- وقال صلى الله عليه وسلم: «ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل»، قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله؛ إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع»، فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَعَ في رياضِ الجنَّةِ فلْيُكْثر ذِكْرَ الله عز وجل»[176].

- عن أبي هريرة «أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم مَرَّ على جبَلٍ يقالُ له: جُمْدَان، فقال: سِيرُوا هذا جُمْدَان، قد سَبَقَ المُفَرِّدُون، قالوا: ومَن المُفَرِّدُون يا رسول الله؟ قال: الذَّاكِرون الله كثيرًا والذَّاكِراتُ»[177]، وخرَّجَهُ الإمامُ أحمدُ، ولفْظُه: «سبق المفرِّدونَ! قالوا: وما المفرِّدون؟ قال: الذين يُهْتَرُون في ذِكْرِ الله»، وخرَّجَهُ التِّرمذيُّ، وعنده: «قالوا: يا رسول الله، وما المُفَرِّدُون؟ قال: المُسْتَهْتَرُونَ في ذِكْرِ الله، يَضَعُ الذِّكْرُ عنهم أثقالهم، فيأْتون يوم القيامةِ خِفافًا».

---

(175) أخرجه ابن ماجه (3074)، والحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (ج2/ 167)

(176) ضعيف: روى بنحوه أحمد في مسنده (ج19/ ص498/ ح12523)، والصواب أنه من كلام معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(177) أخرجه مسلم في الصحيح (2676)، وأما الزيادة عند الترمذي فضعيفة (سنن الترمذي ج5 ص577/ 359).

ووجه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما مرَّ على جمدان أنه لَمَّا سبَق الرَّكْبُ وتخَلَّف بعضُهم نبَّهَ النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم على أنَّ السَّابقين على الحقيقة همُ الذين يُدمِنون ذِكْرَ الله ويُولَعون به، فإنَّ الاسْتِهْتارَ بالشَّيْء: هو الوُلوعُ به والشَّغَفُ حتى لا يكادَ يُفارِقُ ذِكْرَهُ، وهذا على رواية مَنْ رواه: «المُسْتَهْتَرُون»، ورواه بعضهم فقال فيه: «الذين أُهْتِرُوا فِي ذِكْرِ الله»، وفسَّرَ ابن قُتَيبة الهتْرَ بِالسَّقْط في الكلام، كما في الحديث: «المُسْتَبَّانِ شيطانان يتكاذبانِ ويتهاتران»، قال: «والمرادُ من هذا الحديثِ مَن عُمِّرَ وخرِف في ذِكْرِ الله وطاعتِه، قال: والمرادُ بالمُفَرِّدِين على هذه الرِّواية: مَنِ انفرَد بالعُمْرِ عن القرنِ الذي كان فيه، وأمَّا على الرِّواية الأولى فالمرادُ بالمُفَرِّدِينَ المُتَخَلِّين مِن النَّاسِ بذكْرِ الله تعالى، ويُحتملُ- وهو الأظهر أنَّ المُراد بالانفرادِ على الرِّوايتين الانفرادُ بهذا العمل وهو كَثْرةُ الذِّكْرِ دون الانفرادِ الحسِّيِّ، إمَّا عنِ القَرْن أو عن المخالطةِ، والله أعلم.

ومِنْ هذا المعنى قوْلُ عُمَرَ بنِ عبد العزيزِ ليلة عرفة بِعرفة عند قرْبِ الإفاضَة: ليْس السَّابِقُ اليومَ مَن سبق بعيرُهُ، وإنما السَّابِقُ مَنْ غُفِرَ له [178].

(178) جامع العلوم والحكم، 2/ 512.

عن عبد الله بنِ بُسرٍ قال: «أتى النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم رَجُلٌ، فقال: يا رسولَ الله، إنَّ شرائع الإسلامِ قد كَثُرَتْ علينا، فبَابٌ نَتَمَسَّكُ به جامعٌ؟ قال: لا يزالُ لسانُك رَطْبًا مِن ذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ» [179].

وقد شرح ابن رجب هذا الحديث في جامع العلوم والحكم على أروع ما يكون من الشرح وأكثره إفادة وتحفيزاً على الذِّكر والإكثار منه، ونقل ألواناً من تفنُّن الصالحين فيه، وأنصح بمطالعته هناك.

وقال صلى الله عليه وسلم: يقول الله تبارك وتعالى: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» [180]، يعني بالهرولة: سرعةَ الإجابة، والحديثُ بمعنى الآية: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ البقرة [152].

وقال صلى الله عليه وسلم: «سبعةٌ يظلُّهُم الله عز وجل في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه»، وذَكَر مِن جملتِهم قولَه: «ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» [181].

(179) صحيح: رواه أحمد في مسنده (ج29/ ص227/ ح17681).

(180) رواه البخاري في صحيحه (ج9/ ص121/ ح7405).

(181) جامع العلوم والحكم، 2/ 512.

وخَلْوتُه: إشارةٌ إلى إخلاصه وتَحَرُّكِ قلبه بفعلِ الذِّكر المجرَّد من المؤثِّرات، وصدقِ استحضاره وحُسنِ تفكُّره في عظَمة من أبكتْه خشيتُه!

- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخيرٍ لكم من إعطاء الوَرِقِ والذهب، وخيرٍ لكم من أن تلقَوا عدوَّكم؛ فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله عز وجل دائماً»[182].

- وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: «قال الله عز وجل: «مَن شغله ذكري عن مسألتي أعطيتُه أفضلَ ما أعطي السائلين»[183].

وقد رسم ابن القيِّم رحمه الله بريشة قلمِه البارعةِ صورةً بديعةً لفضائل الذِّكر بالإجمال، فقال:

«والذِّكْرُ مَنشُورُ الوِلايَةِ الذي مَن أُعطِيَه اتَّصل ومَن مُنِعَهُ عُزِلَ، وهو قُوتُ قلُوبِ القومِ الذي متى فارقها صارَتِ الأجسادُ لها قُبُورًا، وعِمارَةُ ديارهمُ التي إذا تعطَّلَتْ عنه صارَتْ بُورًا، وهو سلاحُهم الذي يُقاتلون به قُطّاعَ الطَّريق، وماؤُهم الذي يُطفئون به الْتهابَ الطَّريق، ودواءُ أسقامهم الذي متى فارقَهم انْتكستْ منهم القلوب، والسَّببُ الواصِلُ والعلاقةُ التي كانت بينهم وبين علّامِ الغيوبِ.

إذا مَرِضْنا تَداوَينا بِذِكْرِكُمُ ... فَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أحْيانًا فَنَنْتَكِسُ

---

(182) صحيح: رواه أحمد في مسنده (ج36/ ص34/ ح21702).

(183) ضعيف: رواه الترمذي في سننه (ج5/ ص184/ ح2926).

به يستَدفعون الآفاتِ ويستكشفون الكُرُباتِ وتَهُون عليهم به المُصيباتُ، إذا أظَلَّهم البلاءُ فإليه مَلْجأهم، وإذا نزلتْ بهم النَّوازِلُ فإليه مَفزَعهم، فهو رياضُ جنَّتهمُ التي فيها يتقلَّبون ورؤوسُ أموالِ سعادتهم التي بها يَتَّجِرُون.

يَدَعُ القلبَ الحزينَ ضاحكًا مسرورًا، ويُوصِّلُ الذّاكِرَ إلى المذكورِ، بل يَدَعُ الذّاكِرَ مَذْكوراً، وفي كُلِّ جارحةٍ مِن الجوارِح عبوديةٌ مُؤَقتة، والذِّكرُ عبوديَّةُ القلبِ واللِّسانِ وهي غيرُ مؤقتة، بل هم مأمورون بذِكْرِ معبودهم ومحبوبهم في كُلِّ حالٍ: قِيامًا وقُعُودًا وعَلى جنوبهم، فكما أنَّ الجنَّة قِيعانٌ وهو غِراسُها، فكذلك القلوبُ بُورٌ وخَرابٌ وهو عِمارَتُها وأساسُها.

وهو جَلاءُ القلوبِ وصِقالُها ودَواؤُها إذا غشِيَها اعتلالُها، وكلَّما ازدادَ الذّاكِرُ في ذِكْرِه استغراقًا: ازدادَ المذكُورُ محبةً إلى لقائِه واشتياقًا، وإذا واطَأَ في ذِكْرِه قلبُهُ للسانه: نَسِيَ في جَنْبِ ذكْرِه كلَّ شيءٍ وحفظ الله عليه كلَّ شيءٍ وكان له عِوَضًا مِن كُلِّ شيء.

به يَزُولُ الوَقْرُ عن الأسماعِ والبَكَمُ عَنِ الألْسُنِ وتَنْقَشِعُ الظُّلْمَةُ عَنِ الأبْصارِ.

زيَّن الله به ألسِنةَ الذّاكِرين كما زيَّن بالنُّورِ أبصارَ النّاظِرين، فاللِّسانُ الغافِلُ: كالعَينِ العَمياءِ والأُذُنِ الصَّمّاءِ واليَدِ الشَّلاءِ.

وهو بابُ الله الأعظمُ المفتوحُ بينه وبين عَبْدِهِ ما لم يُغْلِقْهُ العَبْدُ بغفلته... وبالذِّكْرِ: يَصْرُعُ العَبْدُ الشَّيْطان كما يصْرَع الشَّيطانُ أهلَ الغفلة والنِّسيانِ... وهو رُوح الأعمالِ الصالحة، فإذا خلا العملُ عن الذِّكْرِ كان كالجَسَدِ الذي لا رُوحَ فيه" [184].

وهو نصٌّ ذهبيٌّ حريٌّ أن يقف السائر أمامه يتملَّى أبعاده ويتعرَّف دلالاته، ويستشهد على كلٍّ منها بقبس من القرآن أو السنة، ويستحضر من أحوال القلوب ما يتنزَّل الكلام عليه.

مدارج الذاكرين

ويلحظ السائر في مدارج الذاكرين أن **صورة الذِّكر في البدايات: الذكرُ الظاهر باللسان، ومدخله: لزومُ ذلك وتكرارُه بحيث لا ينفكُّ عنه في عامة أحواله، ويلزَم أوراداً في اليوم والليلة**، ويخصِّص أوقاتاً يترك الاشتغال فيها بغيره، ويجلسُ لأجلها في محرابه منكسِرَ القلبِ طالباً الحضور، فإذا واطأ القلبُ اللسان، وصار حالُ الحضور غالباً؛ **فلعله ينتقل إلى حال الشهـود،**

(184) مدارج السالكين، 2/ 396.

بحيث لا يَسكنُ ولا يتحرَّك إلا بالله ولله، وكأنه يرى الله تعالى في كل ذلك! عندئذٍ يعيشُ الدنيا بطعْم الآخرة ولا فرق! يعيش مع الناس بجسده، وقلبُه معلَّقٌ بالعرش، وروحُه تطُوفُ مع الملائكة المسبِّحة لله الحامدةِ له مع الأنفاس!

جِسْمِي معي غيرَ أنَّ الرُّوحَ عِندكُم ... فالجسمُ في غُربةٍ والرُّوحُ في وطنِ

وأما **في النهايات فشهودُ ذكرِ الحق إياك، والتخلُّص من شهود ذكرك إياه!** فما يعود العبدُ يلاحظ نفسه أصلاً في بحر ملاحظته لربِّه واعتكاف قلبه في سجود طويل لا يرفع منه رأسه!

ومن هنا نعرِف أن مدخل هذا الخير الكثير إنما هو في الابتداء بالذكر ولو باللسان وحده، وبترتيب الأوراد المناسبة، إذ من شأن الصادق في طلبه والمخلِص في توجُّهه إلى الله عز وجل أن يرتقي بالحال إلى حيث يأمل، قال ابن عطاء الله السكندري:

«لا تتركِ الذِّكر لعدم حضورِ قلبِكَ مع الله فيه لأن غفلتَك عن وجود ذِكْرِه أشدُّ من غَفْلَتك في وجودِ ذِكْرِه، فعسى أن يرفعَك مِن ذكْرٍ مع وجودِ غفلةٍ إلى ذكْرٍ مع وجود يقظة، ومن ذكْرٍ مع وجود يقظةٍ إلى ذكرٍ مع وجود حضور، ومِن ذكْرٍ مع وجود حضورٍ إلى ذكرٍ مع وجود غَيْبةٍ عما سوى المذكور» [185].

(185) الحكم العطائية، 47

السائر إذاً يراعي طبيعة مدارج هذه المنزلة في السير إلى الله، ويلاحظ المنزلة التي تَلي المنزلةَ التي يَحِلُّ فيها، ويجعلها هدفَ سَيْرِه، وكذلك حالُه في مراحل سيرِه في هذه المنزلة من الخير حتى يُدرك الغايات، يقول ابن عجيبة:

«الذاكر إذا تجوْهرتْ روحُه بأنوار ذكرِ الله هاجتْ في قلبِه لواعجُ المحبة؛ فلا يَقِرُّ له قَرار ولا يمسُّه نصَب ولا يعتريه ملَلٌ ولا يقهرُه عطشٌ ولا يصدُّه نومٌ ولا يَثنيه هَمٌّ، ولا يعبأ بقيل وقال، ولا تُفتِر هِمَّتَه دنيا ولا مال، ولا تَشغَلُه تجارةٌ ولا عيال، فلا راحة له ولا مقيل إلا في رحاب حضرة حبيبه الجميل الجليل، ومن استدام على الحضور مع الله استمدَّ من أنوار العظمة الإلهية ما يُقيمُ في نفسه وازعَ الحياء، ويوقدُ في قلبه أشواقاً بها الهيبة، فيجد حلاوةَ الأدب مع الحق، ويتذوَّق طعمَ حسن الخلُق مع الخلْق»[186].

وكلَّما قَوِيَت المعرفةُ صارَ الذِّكْرُ يجرِي على لسانِ الذَّاكر مِن غيرِ كُلْفَة، حتى كان بعضهم يَجرِي على لسانِه في منامِه: الله الله، ولهذا يُلْهَمُ أهل الجَنَّةِ التَّسبيح كما يُلْهَمُون النَّفَس، وتصير «لا إله إلا الله» لهم كالماءِ البارد لأهل الدُّنيا، كان الثَّورِيُّ يُنشدُ:

لا لأنِّي أَنْسَاك أُكثرُ ذِكْرَا ... كَ ولكِنْ بذاكَ يَجْرِي لساني[187]

(186) إيقاظ الهمم، 206

(187) جامع العلوم والحكم، 2/ 520.

والذِّكر علامة المحبة، فالمُحِبُّ لا يَغيبُ اسمُ محبوبِه عن قلبه، ولو كُلِّفَ أن ينسى تذكُّرَه لَمَا قَدِر، ولو كُلِّف أن يَكُفَّ عن ذِكْرِه بلسانه لَمَا صَبَر.

كيف ينْسَى المحِبُّ ذِكْرَ حبيبٍ ... اسمُه في فؤادِه مكتوبُ

كان بلالٌ كلَّما عذَّبه المشرِكون في الرَّمضاءِ على التوحيد يقول: أَحَدٌ أَحَد، فإذا قالوا له: قُل: واللَّاتِ والعزَّى، قال: لا أُحسِنُه!

يُرَادُ مِن القلْبِ نِسيَانُكم ... وتأبَى الطِّبَاعُ على النَّاقِلِ

وإذا سمعَ المُحِبُّ ذِكْرَ اسم حبيبه مِن غيره زاد طربُه، وتضاعف قلقُه:

سَمِع الشِّبْلِيُّ قائلًا يقول: يا الله يا جواد، فاضطَرب!

ودَاعٍ دعا إذ نحن بالخَيْفِ مِن مِنَى ... فهَيَّجَ أشواق الفؤادِ وما يدري

دعا باسم ليلى غيرَها فكأنما ... أطارَ بليلى طائرًا كان في صدري

بل نَبْضُ القلب يَنْزَعِجُ عند ذِكْرِ المحبُوب ويتسارع!

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكِ هَزَّةٌ ... كما انْتفضَ العُصفورُ بَلَّلَهُ القطرُ [188]

(188) انظر: جامع العلوم والحكم، 2/ 520.

وأبلغ من ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ الأنفال [2]، قال أبو الدرداء رضي الله عنه يصفُ ما يجده قلبُ المؤمن إذا ذُكر الله: الوجل في القلب كإحراق السَّعَفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى! قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله، فإن الدعاء يذهب بذلك[189].

إن أثر تعظيم الله في قلب المؤمن إذا ذُكر الله أشبهُ بسريانِ تيارٍ كهربائي يتحرَّك له القلب وما فيه من أحاسيس وتضطرب دقَّاتُه وتختلف معه الأنفاس إجلالاً ومهابة! ولْيُجرِّب المرءُ قلبَه عند ذكرِ الله، وليُحضِر هذه الحالة إن لم يجده، وليصنعها وليُدرِّب قلبه عليها؛ فإنها بحكم الآية مؤشِّرُ الإيمان المشحونِ بالتعظيم!

ولا يزال السائرُ يرتاضُ هذه الطريق حتى يَستَوحِشَ مِن كُلِّ شاغلٍ يشغَلُ عن الذِّكْر، فلا شيء أَحبَّ إليه مِن الخلوة بحبيبه!

قيل لمحمَّدِ بن النَّضْر: أما تستوحشُ وحدك؟ قال: كيف أَستوحِشُ وهو يقول: أنا جليسُ مَن ذكَرَنِي؟!

---

(189) تفسير الطبري، 13/ 387.

كَتمْتُ اسمَ الحبيبِ مِن العبادِ ... ورَدَّدْتُ الصَّبابَةَ في فؤادي

فواشوقًا إلى بلدٍ خَلِيٍّ ... لعلِّي باسم من أهوى أُنادي (190)

الوظائف المقترحة

الوظائف المتعلِّقة بالذكر والفكر كثيرة؛ منها ما هو مرتبط بالأسباب ومنها ما ليس كذلك، والسائر إلى الله يتطلَّع إلى التفرُّد والسبق.

فمن الوظائف المتعلقة بالأسباب:

- الأذكار التالية للصلوات، فإنه يُسنُّ بعد كلِّ مكتوبة أن لا يُفارق العبدُ مجلسه حتى يستغفر ويأتي بمجموعة معروفة من الأذكار المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يَحسُن بالسائر أن يحافظ عليها، ثم فليحرصْ على أن يكون حاضرَ الذهن خاشعَ القلب لينتفع بها.

- الأذكار المتعلِّقة بالأسباب المتنوِّعة؛ كأذكار الاستيقاظ وما قبل النوم والدخول إلى البيت والخروج منه، ودخول الخلاء والخروج منه، ورؤية الهلال، والتَّرداد وراء المؤذن وما أشبه، ومحلُّ بيان ذلك كتبُ الأذكار المشتهَرة، جاء في الإحياء:

(190) جامع العلوم والحكم، 2/ 522.

«وأمَّا ما يفعلُه الإنسانُ في آنَاءِ اللَّيل والنَّهارِ مِن مصالحِ دينهِ ودُنياهُ فعامَّةُ ذلك يُشْرَعُ ذِكْرُ اسم الله عليه، فيشْرَعُ له ذكرُ اسم الله وحمدُهُ على أَكْلِه وشُرْبِه ولباسه وجماعِه لأهلِه ودخُولِ منزِله، وخرُوجِه منه، ودُخولِهِ الخلاء وخُرُوجِهِ ...» [191].

أما الوظائف غير المتعلِّقة بالأسباب؛ فمنها:

- أذكـار الصبـاح والمساء، فحرِيٌّ بالسائر أن يُحافظ عليها ولا يتركها، فإنها سببٌ من أسبابِ البركةِ في الوقت، ومن شأنها أن تَعْمُر قلبَه بشعورِ القُربِ اللذيذ، الذي تتطلَّبه القُلوب المُحبَّةُ لله.

والأصل فيه أن يجعل لهذين الوقتين وِرْداً محفوظاً من المأثورات المعروفة، يمكن أن يجدها في حصن المسلم، أو كتيِّب المأثورات المعروف، أو في كتاب «فاذكروني» الذي حقَّق أخي المتفنّن الدكتور محمد الجوراني وقد خرج أحاديثَ الأذكارِ فيه وحقَّق تحقيقات طيبة.

ولا يستغني صاحب هذه المنزلة عن كتاب الإمام النووي: «الأذكار»، حريٌّ به أن يقرأه ويستخلص الأوراد منه ويحفظها.

(191) جامع العلوم والحكم، 2/ 527.

- كما أحبُّ للسائر أن يجعل له من الأذكار العامَّةِ- التي وردت الآثار بفضلها- وِرْداً ثابتاً:

لا بأس بأن يأتي بها أو ببعضها أثناء قيامه بأعماله اليومية العادية، وفي لقاءاته مع الناس وفي تنقُّلاته، وإن خصّص لها أو لبعضها وقتاً في محرابه فهو أفضل.

- يمكن أن يستعين بمسبحة أو بعدَّاد التسبيح الألكتروني، وهو أعون له على إنجاز الأوراد الألفية.

- يُحضِر قلبَه ما استطاع.

وبالمجمل فهذا النوع من الأوراد عظيمُ الأثرِ على القلب للزومه لِلسانِ الذاكرِ أثناء يومه وليلته، وفيه الامتثال للوصية النبوية: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله» [192].



- **مقترح الورد الألفي:**

المقصود من الأوراد الألفية: تنبيهُ القلب بكثرةِ طرْقِه ببروق الإيمان والتعظيم، وإنْ كَثُر الذِّكر- على الوجه الذي أمرت به النصوص- كانت

(192) صحيح: رواه أحمد في مسنده (ج29/ ص227/ ح17681).

الفرصةُ لاستجلاب الواردات على القلب أكبر، ومصادفةِ لحظات الانشراح آكد، والتأثيرِ الذي تُحدثه مضامين الأذكار عليه أخطر وأظهر!

ومثاله:

- التسبيح والتحميد؛ وهما: تنزيهٌ عن النقص وإثباتٌ للكمال، وهذا يورثُ القلبَ التعظيم، وفي الحديث: «من قال: حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده، مائة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة، بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه»[193]، فإنك إذا قلت: سبحان الله: كان ذلك منك تنزيهاً لله عن كلِّ نقص على الإجمال، وإذا قلت: الحمد لله: فأنت تثبت له صفات الكمال وتُثني بها عليه، فإن الحمد ثناءٌ بالجميل من الصفات، وقولك: «سبحان الله وبحمده» يجمع المعنيين، والباء للمصاحبة، والمعنى: أُنزِّه الله تعالى عن النقائص تنزيها مصاحباً لوصفه بكل صفات الكمال، وهذا هو الغاية في التوحيد، وملازمتُه تورثُ القلب تعظيماً لله الموصوفِ بمضمون هذا الذِّكر الذي وردت الآثار بتعظيمه.

- الاستغفار، وفي الحديث: «مَن لزم الاستغفارَ جَعلَ الله له من كلِّ همٍّ فرجا، ومن كلِّ كرب مخرجاً، ورزقه من حيث لم يحتسب»[194]، ومضمون الاستغفار: الاعتراف على النفس بالذنب، وطلب العفو والمغفرة من

(193) رواه مسلم في صحيحه (ج4/ ص2071/ ح2692).

(194) ضعيف: رواه أبو داود في سننه (ج2/ ص85/ ح1518).

الرب، فإن كرَّر هذا الذِّكر مع استحضار المعنى أورثه ذلك انكساراً وشعوراً بالحاجة إلى الله والمسكنة بين يديه والافتقار إلى جوده وكرمه، وهذا هو قلبُ العبودية وحقيقتها!

- الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع استحضار كونه عليه الصلوات سبباً في أعظم النعم الإلهية على العبد، وهي نعمة الإيمان ومعرفةِ الطريق إلى الرحمن، فإنْ أكثر منها مع استحضار هذا المعنى أورثه ذلك حباً خاصاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعلُّقاً به، ورغبة شديدة في لقائه وشوقاً إلى المثول بين يديه الشريفتين، وصارت رؤيته صلى الله عليه وسلم بالنسبة إليه أعظمَ المرغوبات وأبلغ المطلوبات، وبمثل هذا الحب تُرتجى الشفاعة، ويكون العبد أحظى برسول الله صلى الله عليه وسلم من غيره في ذلك اليوم الذي يأتي فيه كلٌّ منا بين يدي الله فرداً!

وأقترح هذه الباقة من الأذكار لتكون وِرداً يوميًّا للسائر في طريق التغيير والتحرير:

- الاستغفار ألف مرة، وإن جعلها ليلاً فهو أفضل لقول الله: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ الذاريات [18].
- الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مرة، وفي يوم الجمعة وليلتها يزيد.

- «سبحان الله وبحمده» ثلاثمائة مرة.
- «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير»، مائة مرة.
- باقة منوَّعة من الأذكار الأخرى: لا حول ولا قوة إلا بالله، حسبنا الله ونعم الوكيل، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

فبمثل هذا الوِرد وعلى غراره أحسب أنه يدخل في عِداد: الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، الموعودين بالمغفرة والأجر العظيم.

والوقت ما بين المغرب والعشاء وقتٌ يحسن أن يُجعل محَلًّا لأوراد القرآن والذكرِ والدعاء، قال ابن رجب: «ويُستحبُّ أيضًا إحياءُ ما بين العشاءين بالصَّلاة والذِّكر» (195).

الاجتماع على ذِكر الله

والاجتماعُ على ذِكر الله من المحفِّزات القلبية على الحضور والخشوع ما دام على الطريقة السُّنِّية، فقد جاء فيه من الفضائل:

- قول رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «ما جلس قوم يذكرون الله، إلا حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده» (196).

(195) جامع العلوم والحكم، 2/ 526.

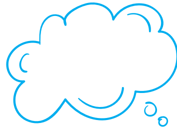
(196) صحيح: رواه أحمد في مسنده (ج18/ ص44/ ح11463)

والمروي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم» قال: «فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا» قال: «فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قالوا: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك» قال: «فيقول: هل رأوني؟» قال: «فيقولون: لا والله ما رأوك؟» قال: «فيقول: وكيف لو رأوني؟» قال: «يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا وتحميدا، وأكثر لك تسبيحا» قال: «يقول: فما يسألوني؟» قال: «يسألونك الجنة» قال: «يقول: وهل رأوها؟» قال: «يقولون: لا والله يا رب ما رأوها» قال: «يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟» قال: «يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا، وأشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعوذون؟» قال: «يقولون: من النار» قال: «يقول: وهل رأوها؟» قال: «يقولون: لا والله يا رب ما رأوها» قال: «يقول: فكيف لو رأوها؟» قال: «يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة» قال: «فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم» قال: «يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم» [197].

(197) رواه البخاري في صحيحه (ج8/ ص86/ ح6408).

فهذه الأحاديث وأمثالها تدلُّ على فضيلة الاجتماع على الذِّكر، وقد رُوِّينا في فضل تلاوة القرآن ومدارسته قوله صلى الله عليه وسلم: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» [198].

وهذه الأحاديث وغيرها تُظهرُ المعنى المراد بمجالس الذِّكر، وفي موسوعة أحاديث القيم: «ويؤخذُ من مجموع الروايات المرادُ بمجالس الذِّكر، وأنها التي تشتمل على ذِكر الله بأنواع الذِّكر الواردة من تسبيحٍ وتكبير وغيرهما، وعلى تلاوة كتاب الله سبحانه، وعلى الدعاء بخيري الدنيا والآخرة [199].



وعليه فالمقترح **كوظيفة أسبوعية**:

أن يعقد السائرون إلى الله في طريق التغيير والتحرير جلسات يتدارسون فيها القرآن، يتفهَّمون آياته ويتدبرونها، وأن يذكروا ما تيسر من الأذكار، مع الحرص على اقتفاء السنة والابتعاد عن الابتداع، ويحسُن بين يدي الذِّكر أن يبيِّن الشيخُ شيئاً من معاني هذه الأذكـار ويذكِّر بظلالهـا الوارفة

---

(198) رواه مسلم في صحيحه (ج/4 ص/2074 ح/2699).

(199) موسوعة أحاديث القيم، 1/ 124.

حتى يعين الذاكر على استحضار المناسب من المعاني أثناء الذِّكر، وأن يختموا ذلك بدعاء خاشعٍ يسألون الله تعالى فيه المغفرة والقبول وصلاح الحال والمآل، ويسألونه لأُمتهم الرشد وحسن التدبير، وولاية الصالحين، وأن يسلكهم الله في سلك الفاتحين المحررين.

ثم لعل الله الذي أكرمهم بالاجتماع ههنا يكرمهم بالاجتماع في تلك الساحات المقدَّسة في المسجد الأقصى وتحت قبابه يتدارسون كتابه ويلهجون بتعظيمه والله ُعلى ذلك قدير.

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

التعلق بالآخرة والزهد في الدنيا

من أبرز صفات العباد المصطفَين: تعلُّقهم بالآخرة، واستحضارُها في كلِّ خطوة من خطوات حياتهم، واليقينُ بها كأنها رأيُ العين، وقد قال الله تعالى في حقِّ أئمة الدين من الأنبياء: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٧﴾ سورة ص [46، 47]، إنها ميزةٌ حقاً أن تعيش الدنيا بطعم الآخرة! ميزةٌ تتذوق حلاوتها في الدنيا نفسِها قبل الآخرة! وكم لله من عبدٍ يمشي بين الناس ويمشي في مناكب الأرض يبتغي من فضل الله، وقلبُه معلَّق هناك حيث يلقى الله ويلاقي على الحوض رسول الله، إذا نظر إلى مشهدٍ ما أذكره بالجنة أو بالنار، فأنار وجهُه إشراقاً أو ارتعدت فرائصُه خوفاً!

وفي الحديث: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل» [(200)]، قيل: إن «أو» هنا للإضراب بمعنى «بل»، فالغريب قد يركنُ إلى غربته، أما عابر السبيل فلا! وهذه النصيحة النبوية منهج حياة يضعه المؤمن نُصب عينيه، فلا اغترار بزخرف هذه الدار، ولا ركون ولا قرار، فحقيقتُها تجلتْ للبصائر المستنيرة بنور الوحي، وزوالُها عن قريب لا تخطئه عيون ذوي

(200) صحيح: رواه احمد في مسنده (ج8/ ص383/ ح4764).

الحِجا! والانخداعُ ببريق الزخرف الدنيوي علة كلِّ علة، وسببُ هلاك أكثر الهلكى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾ البقرة [86]، وأولئك هم من ينبغي أن يهملهم المؤمن ولا يلتفت إليهم ولا إلى ما هم فيه من وهمِ النعيم: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ الأنعام [70].

ومعقدُ النجاة: انكشافُ الحجُب دون رؤية حقيقةِ كلٍّ من الدنيا والآخرة، ومعرفةُ وزن كلٍّ منهما وقيمتِه، فمن عظُمت الآخرة في قلبه صرف همته إليها واشتغل بعِمارتها واعتنى بغِراسها وتهيَّأ لمقامه فيها، ومن عظمت الدنيا في قلبه لم يُجاوزْها نظرُه، ولم يشبع منها قلبُه، وكلما طال عمره ازداد بها تعلُّقه وغرقه في شهواتها وتطلُّبه مزيدها، أما الموفق فهو من وفقه الله!

وحرِيٌّ بمن ملكت الآخرة قلبَه وملأتْ همَّه أن يُقبِلَ على طَلَبِها؛ باذلاً الدنيا في مقابلها: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ التوبة [111]، فتراه مشمّراً عن ساعد الجد، ساعياً في ركب المجاهدين القائمين على أمر الله وعلى ثغور الدعوة إليه والانتصار لدينه، يطلب بدنياه شرف الآخرة، ويقتحم كلَّ عقبة، ويخوض في كلِّ هول، لا يشغله عن أداء الواجب حبُّ الدنيا أو الرغبة بالاستكثار منها، ولا الأمل الطويل بالبقاء فيها وصحبة أهلها!

وإنه ما هلك الهالكون والله ولا سقط في الطريق الساقطون إلا بالتعلّق بها، وإلا فقل لي: ما الذي أجبن أقواماً عن مواجهة الاحتلال؟ وما الذي حملهم على التنازل عن ثوابت الدين والعرف والمروءة؟ وما الذي دفع آخرين إلى الانزلاق في وحل التطبيع؟ وما الذي أسقط آخر في جريمة العَمالة للاحتلال؟ أو التصفيق للطغاة والظلمة والهتاف بأسمائهم؟

لا أحسب أن أحداً جبُنَ أو تنازل أو انزلق أو سقط أو تملَّق وركن إلى الظالمين إلا بخوف من زوال شيء من الدنيا أو برغبةٍ في شيء منها!

فإن عالج السائرُ في الطريق هذا الداء سَلِم من تسعة أعشار العوائق، تأمل قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ التوبة [38]!

وانظر في سياق قريب إلى الوعيد الشديد لمن كفَر بالله من بعد إيمانه: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ النحل [106]، وتأمل التفسير النفسي لهذا العمل المُشين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ النحل [107]، إنهم قد وقفوا على الحقّ

وتجلتْ أمام عيونهم آياتُه، وقامت في قلوبهم براهينه، لكنهم آثروا الكفر فعادوا إليه، وما حملهم على ذلك شبهةٌ ولا طرق أبوابَ قلوبهم شك! غيرَ أنهم رأوا أن إقامتهم على الكفر فيها استجلابُ مزيدٍ من الدنيا التي أعماهم بريقُ فتنتِها وأصمَّهم صراخ عشاقِها!

إنه قد جمع الشَّر من رضي بالدنيا وغفل عن الآخرة وأورد نفسه شرَّ الموارد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ يونس [7، 8].

وما أحسن الوصية الربانية التي خاطب الله عز وجل بها الناس؛ كل الناس فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ فاطر [5]! إنه خطاب دافئ من رحيم؛ يحذر فيه عباده من مهلكهم، ويُنبئهم بأن ما وعدهم إياه من نعيم الآخرة وعذابها حقٌّ لا مرية فيه، وينبههم إلى أن لا يَنشغلوا عما خُلِقوا في الدنيا لأجله بما خُلِق من الدنيا لأجلهم!

◆ وزن الدنيا وحقيقتها ◆

ذكـرنا أن معـرفة وزن كلٍّ من الدنيا والآخرة معقِد النجاة، فلنبيِّن ما يدلُّ على ذلك بالإشارة التي تحصل بها الذكـرى، ونحن إذ نفعل ذلك لا

نضيف جديداً إنما هي الذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين.

وخالق الدنيا والآخرة سبحانه هو أعلم بكلٍّ منهما، فلنحسن التأمُّل في كلامه ووصفه لحقيقة الدنيا وهداياته للمؤمنين في ذلك:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ الكهف [45].

مثلٌ للتقريب ضربه الله تعالى لنا لنعقل المقصود: إن مثَل هذه الحياة الدنيا في سرعة انقضائها وزوال نعيمها وسؤدَدها كمثلٍ يعرفه الناس من مشاهداتهم: أرأيتَ أيها العاقل إلى نزول المطر في فصل الشتاء ورِيِّه للأرض، وكيف أنه بمجرد دخول فصل الربيع تبدأ الأرض باكتساء الحُلَّة الخضراء؟! أرأيت كيف أننا نستعد في كلِّ عامٍ للاستمتاع بالربيع بترتيب النُّزهات والرحلات، أرأيت إلى سرعة انقضاء الربيع، وكيف أنه لا يوشك ذلك النبات البهيِّ بالبدء والانتشار والازدهار حتى يبدأ اللون الأصفر بالسريان فيه والاشتعال! وكيف أنه لا يلبث حتى يستحوذ عليه ويذهب ببهائه!

ولا والله ما فهمتُ هذه الآية ومثيلاتها إلا بعد عودتي إلى الأردن بعد غياب طويل أمضيته في مدينة طيبة في صحراء الجزيرة العربية لا ترى فيها تقلُّب الفصول ولا اخضرار «الحقول»! فلمّا عدتُ: عُدتُ وقد ملأني الشوق إلى رحلات الربيع، وأيامُ الأسبوع ممتلئةٌ بالأعمال، والجمُعات زمان التنزه، فصادفَنا عارضٌ في الجمعة المناسبة الأولى حال دون الخروج فيما خططنا له، وأمطرتْ في الجمعة التالية، وانشغلنا في جمعة أو جمعتين أخريين؛ فما هو إلا أنني أدركت أن ذروة الربيع قد ولَّت وانقضى بهاء اللون الجميل! عندها استحضرت الآية وعرَفت مقصودها على الدقة:

إن عمر الإنسان قصير جدٌّ قصير، ما إن يتهيّأ للاستمتاع بالدنيا وقد لانت له- إن لانت- حتى يدرك أنه على وشك المغادرة، فما أسرع تفصِّيَها وتقضِّيَها؟! وما أسرع زوال نعمها ونعيمها! وما أحمق من اكتفى بها عن الآخرة وركن إليها!

وتأمل قول القشيري في لطائف الإشارات:

«من وطّن النّفس على الدنيا وبهجتِها غرَّتْهُ بأمانيِّها وخدعتْه بالإطماع فيها، ثم إنها تُخفي الصّاب في شرابها والحنظلَ في عسلها والسراب في مآربها، تَعِدُ ولا تَفِي بِعِدَاتِها، وتُوفِي آفاتُها على خيراتِها! نعمُها مشوبة بنقمها، وبُؤْسُها مصحوبٌ بمأنوسها، وبلاؤها في ضمن عطائها، المغرورُ من اغترّ بها، والمغبون من انخدع فيها» ، نسأل الله العافية، وإنه لعمرو الحق لبلاء!

من اغترّ بها، والمغبون من انخدع فيها» [201]، نسأل الله العافية، وإنه لعمرو الحق لبلاء!

وقريبٌ من هذا المعنى وأخوفُ ما قاله الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يونس [24].

ضَرب تبارك وتعالى مثلاً لِزَهرة الحياة الدُّنيا وزينتها وسُرعة انقضائها وزوالها، بالنَّباتِ الذي أخرجَهُ الله مِن الأرضِ بما أَنْزَله من السّماءِ من الماء، ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ مِنْ زَرْعٍ وثِمارٍ على اخْتلافِ أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام مِن أَبٍّ وقَضْب وغيرِ ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: زينتها الفانية، ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي: حَسُنت بِما خَرَجَ من رُباها مِن زهُورٍ نَضِرة مختلفةِ الأشكالِ والألوانِ، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: على جَذاذها وحصادها فبينا هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح بادرة، فأيبستْ أوراقَها، وأتْلفتْ ثِمارَها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ أي: يَبَساً بعد تلك الخضرة

(201) لطائف الإشارات، 2/ 398.

والنَّضارة، ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ أي: كأنَّها ما كانت حسناءَ قبل ذلك...
وهكذا الأمورُ بعد زوالها كأنَّها لم تكنْ؛ ولهذا جاء في الحديثِ: «يُؤْتى بأنعم أهلِ الدُّنيا، فيُغمَس في النَّارِ غَمْسَة ثمَّ يُقال له: هل رأيتَ خيراً قطُّ؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قطُّ؟ فيقول: لا، ويُؤتى بأشدِّ النَّاسِ عذابًا في الدُّنيا، فيُغمَسُ في النَّعيمِ غمسةً، ثمَّ يقالُ له: هل رأيتَ بُؤْساً قطُّ؟ فيقول: لا» [202].

إدراك ذلك هو العلم والله، فإنه فرعٌ عن معرفة الله، ولا يتمُّ إيمان العبد ولا يستقيم ما لم تسقط الدنيا من قلبه وما لم يفهم سبب خلق الله لها والسرَّ في تزيين الله تعالى إياها: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧﴾ الكهف [7]، والعلمُ بذلك واجبٌ لا يسعُ مؤمناً جهلُه، ودليلُ الوجوب: «اعلموا» في قوله سبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ الحديد [20]، وسبيل حصول هذا العلم:

- التفكُّرُ في مثل هذه النصوص من القرآن والسنة، والاستغراقُ في تفهُّمها.

(202) انظر: تفسير ابن كثير، 4/ 260، والحديث صحيح: روى بنحوه مسلم في صحيحه (ج4/ ص2162/ ح2807).

◆ التأملُ في حالِ الدنيا وسرعةِ انقضائها وتبدّلِ أحوالها، وفي أحوالِ أهلِها وقصر أعمارهم وتنغُّص استمتاعهم بها وتحوّل عافيتهم، نسأل الله السلامة.

وحريٌّ أن تتأمل كلام الراغب الأصفهاني الفذّ:

«ولا يحصل الزهد في الحقيقة إلا لمن يعرف الدنيا ما هي ويعرف عيوبها وآفاتها، ويتحقق ما يُستغنى عنه منها، ويَعرف الآخرة وافتقارَه إليها، ولأجل أنه لا بدَّ في ذلك من العلم قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ القصص [79، 80]، ولأن الزاهد في الدنيا راغب في الآخرة، وهو يبيعها بها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ التوبة [111]، ومُحَالٌ أن يبيع كيِّسٌ عَيْنًا بأثرٍ إلا إذا عرفها وعرَف فضلَ المبتاع على المبيع، وقد قيل لبعض الزهاد: ما أزهدك وأصبرك؟ فقال: أما زهدي فرغبة فيما عند الله، وهو أعظم مما أنت فيه، وأما صبري فلجزعي من النار»[203].

(203) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني، 227.

الصورة واضحة في ذهن المؤمن القرآنيّ، الذي أدرك الحقائق بالقرآن وصار يرى بالقرآن ويسمع ويُحسّ، يتحرَّك في الدنيا ويضرب في الأرض مبتغياً من فضل الله، وما آتاه الله تعالى منها حمده عليه، ولم ينشغل به عنه، ولم يُعْمِهِ البريق، بل يدرك أن الله المحمود على ما أنعم به من نعمها مرغوبٌ إليه بالإنعام بنعم الآخرة وبالهداية إليه وبالستر بين يديه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠﴾ القصص [60]، يراها كما هي على حقيقة من غير تزيين، وبعيداً عن تزييف الشياطين: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ العنكبوت [64]، و«الحيوان» من الحياة، والألف والنون المزيدتان لإفادة الكثرة والامتلاء، فالحياةُ الحقيقيةُ واللذةُ الكاملة والنعيمُ الدائم إنما هو في الدار الآخرة، نسأل الله من فضله.

أما الأشقياء فهم الذين اكتفوا بالقريب وخدعتْهم الظواهر، وحُرِموا من الولوج إلى عالم الحقائق، مأسورين وراء قيود الشهوات الدنيوية الخسيسة: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ الروم [7]، فيالحسرتهم! ويالبؤس حالهم!

قال الفضيلُ بن عياضٍ رحمه الله تعالى: «جُعِل الشَّرّ كلُّه في بيتٍ واحد، وجُعِلَ مفتاحُه حبُّ الدُّنيا، وجُعِل الخيرُ كلُّه في بيتٍ واحد، وجُعِل مفتاحه الزُّهدُ في الدنيا» (204).

والكلام عن السلف في الزهد كثير ومفصَّل، ولعمرو الحق إنهم قد أدركوا أن الطمع في الدنيا مفتاح كلِّ الشر، وأن إسقاطها عن درجة النظر والاهتمام مفتاحٌ لأبواب الخير؛ فاعتنَوْا به وأكثروا من الوعظ به وقدَّموا نماذج عملية عالية لتطبيقاته.

ولا يتوهمنَّ أحدٌ أننا ندعو إلى ترك السعي في طلب الرزق وتحصيل المال؛ فهذا مما لا يتوافق مع روح الشريعة ولا مع مقاصدها، بل الحقُّ أن مهمَّةَ الاستخلاف منوطة بالمُكنة المالية، وامتلاكُ الأمة لقرارها متعلقٌ باستقلالها الاقتصادي، واستقرارُ المجتمع منوطٌ به كذلك، وراحةُ الفرد وهدوءُ باله وانطلاقُه في العمل الدعوي وأداؤه لعبادة من أعظم العبادات؛ وهي الزكاة؛ كل ذلك منوط بوفور المال بين يديه!

(204) تنبيه الغافلين للسمرقندي، 2245.

وقد جاء في سورة المزمِّل مما نزل مبكراً قول الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾المزمل [20]، وفي تفسير القرطبي: «سَوَّى الله تعالى في هذه الآيَةِ بين درجة المجاهدينَ والمُكْتسبِين المالَ الحلالَ للنَّفقةِ على نفسهِ وعِياله، والإحسانِ والإفضالِ، فكان هذا دليلًا على أنَّ كَسْبَ المالِ بمنزلة الجهادِ، لأنه جَمَعَه مع الجهادِ في سبيلِ الله» [205].

لكن المقصود: أن تملك المال بيديك لا بقلبك، وأن تملك المال لا أن يملكك المال، وقد قال بِشْرُ بن الحارث: «ليس الزُّهد في الدُّنيا تَرْكَ الدنيا، إنما الزهدُ أن يُزْهَد في كلِّ ما سوى الله، هذا داود وسليمان عليهما السَّلام قد ملكا الدُّنيا وكانا عند الله من الزَّاهدين» [206]، بل لا تحصل حقيقة الزهد إلا لمن أتته الدنيا فاغرة فاها فأعرض عنها ولم يلتفت إليها!

لأجل هذا ينبغي تحقيقُ معنى الدنيا التي يلزم السائر في طريق الله أن يزهد فيها؛ إذ قد تسرَّب في ظلِّ النهم الشهوانيِّ والإقبال المبالغ فيه على الدنيا مفاهيمُ مختلطةٌ أفسدتِ المعنى الشرعيَّ للزهد، لعلها كانت ذات أثرٍ سلبيٍّ في مسيرةِ الأمة وفي تحقيقِ صالحيها لمرادِ الله في سيادةِ شريعته، فنقول:

(205) تفسير القرطبي، 19/ 55.

(206) الزهد الكبير، 74.

إن الدنيا المذمومةَ في النصوص هي ما كان منها اتباعاً للهوى وتحكيماً للشهوة وتغليباً لحظوظ النفوس في مقابل التجرُّد لله واستسهال البذل لأجل دينه، واستعذاب التضحية لنيل رضاه! مصداق ذلك من القرآن في سورة النازعات قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٣٩﴾ النازعات [37-39]، ثم قال في مقابل ذكر هذا الذي آثر الدنيا: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١﴾ النازعات [40، 41]، فصارت الدنيا: طاعةَ النفس للهوى، تأمل: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٣٩﴾ النازعات [37-39]»[207].

ثم إن من الكياسة التنبُّه إلى وجوب مراقبة مقدار الدنيا في القلب وملاحظةِ اهتمام النفس بها، فإن الانغماس فيها مُسكِرٌ من المسكرات التي تُذهل صاحبها عن الإدراك!

وهذه المراقبة والملاحظة دواء أكثر الصالحين، وإن كان ثمة منزلةٌ فوق هذه المنزلة، فهي ذروةُ سنام الزهد وما هو أعلى منه: «أن يستوي عنده وجودُ المال وفَقْدُه، فإن وَجده لم يفـرح به ولم يتأذَّ، وإن فقدَه فكذلك؛ كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرَّقتها من يومها، فقالت خادمتُها: ما استطعتِ فيما فرَّقتِ اليوم

(207) قوت القلوب، 1/ 410.

أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟ فقالت: لو ذكرتيني لفعلتُ! فمَن هذا حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه لم تضره! إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه، فلا فرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره.. تأمل!

يضيف الغزالي رحمه الله إلى هذا الكلام فيقول:
«واعلم أن الزهد درجةٌ هي كمالُ الأبرار، وصاحبُ هذه الحالة من المقربين، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصاناً؛ إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين، وهذا لأن الكاره للدنيا مشغولٌ بالدنيا، كما أن الراغب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى..» [208].

وقال أبو سُليمانَ الدارانيُّ: «الزَّاهِدُ حقًّا لا يذُمُّ الدُّنيا ولا يمدحها ولا ينظُرُ إليها، ولا يفرحُ بها إذا أقبلَت، ولا يحزنُ عليها إذا أدبرت» [209].

ومن بليغ دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم- وكل دعائه صلى الله عليه وسلم بليغ-: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا» [210].

---

(208) إحياء علوم الدين، 4/ 191.

(209) الزهد الكبير للبيهقي، 63

(210) حسن: رواه الترمذي في سننه (ج5/ ص528/ ح3502).

اعلم- أيها السائر- أن الطريق إلى الزهد يمرُّ بمحطات لا بدَّ منها، وأهمها:

1- ما ذكرناه لك من ضرورة **معرفة مقدار كلٍّ من الدنيا والآخرة وحقيقة كلٍّ منهما**، وقد استعرضنا من ذلك ما يقوم مقام الإشارة، قد سمّى الله تعالى أهل الزهد: الذين «أوتوا العلم» بقوله سبحانه إذ وصف قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ القصص [79]، إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ﴾ القصص [80] [211]، ولا عجب، فالزُّهد أثرٌ من آثار العلم بالله وبالنفس وبالدنيا وبالآخرة، ولا يبلغ المرء أن يكون من الزاهدين ما لم تنكشف له هذه الحقائق!

2- تنميةُ وازع الوَرَع، فإن مبنى الورَع على ترك ما لا بأس به خوفاً من الوقوع فيما به بأس، «والورعُ أولُ الزُّهد» كما في قوت القلوب [212]، فإذا ما اعتاد السائرُ تركَ الفضول في المال والطعام والمخالطة وغيرها خوفاً من الوقوع في الحرام أو في الشبهة قادَه ذلك إلى اعتياد التقلُّل من الدنيا واجتناب طاعة الهوى.

---

(211) قوت القلوب، 1/ 403.

(212) قوت القلوب، 1/ 327.

3- التوقِّي من مرض الطمع المناقضِ لفضيلة الزُّهد، فإن مبنى الزُّهد على التقلُّل من الدنيا وقلةِ الاعتناء بزخرفها وتركِ تعظيم شهواتها، مع صرْفِ الهمَّةِ إلى الآخرة- على المعنى الذي بينَّاه من قبل-، والطمعُ: نَهَمٌ يتعلَّق بالاستكثار من الدنيا والرغبةِ في جمعها من غير شبع منها ولا رِيٍّ! وإنما يحصل ذلك بترك النفس من غير عِقَالٍ تَرْعى في خضرائها السامَّة!

والعجب أن الولوغَ في شهواتها لا يورث الشبع كما قد يتبادر إلى ذهن المرء بادي الرأي؛ إنما يورث مزيد نَهَمٍ وجشع وجوع! ولا علاج إلا في فطامها عن مرغوباتها وترويضها على مقتضى الشريعة وحملها على الحق:

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وتلك سياسة للنفس يؤتاها الموفَّقُون الحكماء من عباد الله، ويُحرَمُها الجاهلون!

4- المجاهدةُ، التي لا مَناصَ منها في مدافعة شهوات النفسِ ووساوسِ الشيطانِ؛ ما كان في المرء عرقٌ ينبض!

والمجاهدةُ بذلُ المجهود في كبحِ جماحِ النفس، وإشهارُ سلاح التقوى في وجهِ جيوشِ الهوى، ومجالدة وساوس الشيطان بهدايات الرحمن، ولا فلاح للعبد في احتمال مشاقِّ التكاليف والخلوص من تكدير الشهوات إلا بالمجاهدة.

ومما يحضرني في هذا السياق مجلس سَمَرٍ في صحبةٍ ذاكرةٍ في يوم من الأيام، وقد اشتكى أحد الجالسين انحباسَه عن صلاة الفجر رغم أنه حاول كثيراً علاج المشكلة كما وصف، وبدأ الحاضرون الفضلاء باقتراح الوسائل المُعِيْنَة، فمِن ناصحٍ له بإبعادِ المنبِّه عن سرير النوم، وآخرَ بالاتفاق مع صديق على الاتصال وقت الصلاة، وثالثٍ بالطلب من أحد الجيران أن يطرُق عليه الباب...، وفي كلٍّ يجيب بأنه جرَّب ولم ينجح، حتى وصل الدور في الكلام إليّ، فقلت له - وهو طبيب -: يا دكتور؛ هذه مشكلة لا تحلُّ بشرب شيءٍ من الأدوية ولا بصورة طبقية! هذه مشكلةٌ يستلزم حلُّها المجاهدةَ لأجل النجاة!

إن الاستسلام أمام عوائق الطريق وعقبات النفوس عجزٌ مذمومٌ وقلةُ اكتراثٍ بالعواقب وتسليمٌ في حربٍ مع النفس والشيطان لا يسعك فيها إلا الانتصار! ولا سبيل إلا بدوام المجاهدة والاستعصام مع طلب العون من العزيز الرحيم، والالتجاء إلى حِمَاهُ والثقةِ بوعده الكريم.

- الصحبة الصالحة والقدوة الحسنة والنظر في سير الزاهدين، وسيأتي كلام مفردٌ إن شاء الله يتعلَّق بهذا، والمقصودُ هنا التذكيرُ والتنبيه، فهذا طريقٌ لا بدَّ فيه من نموذج عمليٍّ وشيخٍ مربٍّ وقدوة عالية، كما «قيل للإمام أحمد رضي الله عنه: بأي شيء ذُكِر هؤلاء الأئمة ووصِفُوا؟ فقال: ما هو إلا الصدق الذي كان فيهم، قيل له: وما الصدق؟ قال: هو الإخلاص،

قيل له: فالإخلاص ما هو؟ قال: الزهد، قيل: وما الزهد؟ فأطرق ثم قال: سلُوا الزُّهاد، سلُوا بشرَ بن الحارث» ، على طريقة: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ١٤﴾ فاطر [14]!

◆ الزهد سمة الفاتحين ◆

مواجهة المؤمن لعدوِّه في حرب العقيدة المفتوحة اليوم عنيفةٌ شاملة، لا يقتصر الاحتراب فيها على سوح القتال، وإنما يمتدُّ ليشمَل العقيدة نفسَها والتديُّنَ والثقافة والفِكرَ وأسلوبَ الحياةِ والهُويةَ والثوابت والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد! وعليه فالاستعداد لخوض المعركة يقتضي كثيراً من الاستعداد، ومن شأن السائر في الطريق أن لا يَتْركَ لِعدِوِّه باباً مفتوحاً يمكن أن يقتحمَ عليه منه، ولا نقطةَ ضعفٍ يدخل عليه منها، ولا ثغرةً بلا مرابَطَة يمكن أن يُغِير عليه من خلالها!

ألَا إن من أعظم ذلك: التعلُّق بالدنيا والاهتمام بالاستكثار منها والانغماس في شهواتها والافتتان بزينتها الخادعة! وكلما احتمل المرء منها واستكثر صار أثقل حركة في طريق الجهاد والدعوة والمواجهة، وأحوط في الاتقاء لها والذبِّ عنها، وأقرب إلى سلوك سبل السلامة لها؛ وإن ألجأه ذلك إلى تركِ واجباتِ الدعوةِ والجهادِ والحركة! وهذا ما يُشير إليه قول الله

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ التوبة [38]!

إنها معالجة للنفس بشفافية تفضح النفس أمام النفس، وتكشف سترها وتَقِفُها أمامها عارية من الأعذار الواهية والحجج الفارغة، فالمرء قد يتعذّر أمام نفسه ويتأول لها ويختلق المعاذير هروباً من اتهامها بالنفاق والضعف والقصور، وأيّاً ما اختلق من ذلك فإن الحقيقة أنه رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، فأيُّ إيمان بقي لها والأمر كذلك؟! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨﴾ يونس [7، 8].

بل إن تسلُّل الدنيا إلى نفوس جند الدعوة المخلصين وإلى قلوب الفاتحين المرتقبين أخطر ما قد يتهدَّدهم أمام أعدائهم، فكم من سائر انحرفت به الطريق وهو يتتبَّعها! وكم من بصير أعماه بريق زخرفها فضَلَّ أو هوت به الريح في مكان سحيق! بل كم من ساقط في براثن العمالة للعدوِّ طمعاً في حصول شيءٍ من حُطامها!

ثم السائر في طريق الفتح والدعوة والقرآن صاحبُ رسالة إلى الناس؛ فهو حريصٌ على إيصالها، ولا يتأتى له ذلك حتى يستشعر الناس أنه ليس

له حاجة في دنياهم، وأن عينه لا تمتدُّ إلى ما بين أيديهم من متاعها، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ طه [131]، وقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ الأنعام [90]، وقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ هود [51]، والآيات في هذا المعنى كثيرة دالَّةٌ على محورية هذه القضية في الفكر الدعويِّ كلِّه.

وصاحبُ الرسالة الحقُّ حريصٌ على جمع الناس على طريقه وإبلاغِهم رسالتَه، وهذه سبيلٌ لا تُزاحم في بلوغ مقصده وتحقيق غايته.

وفي الإحياء:

«ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه، فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان، وهذا مُلك بالاستحقاق؛ إذ به يصير صاحبه حراً، وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه، فيكون مسخَّراً مثل البهيمة، مملوكاً يستجرُّه زمامُ الشهوة آخذاً بمُختَنَقِه إلى حيث يريد ويهوى، فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال المُلك بأنه يصير مملوكاً، وينال الربوبية بأن يصير عبداً!

ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً في الدنيا منكوساً في الآخرة؟! ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد: هل من حاجة؟ قال: كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك؟ فقال: كيف قلت؟ مَن أنت عبدُه فهو عبدٌ لي؟ فقال: كيف ذلك؟ قال: أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك، وقد ملكتُ هؤلاء كلَّهم فهم عبيد لي! فهذا إذن هو الملك في الدنيا، وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة، فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعاً، والذين وُفِّقُوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعاً» [213].

ومن أبرز سمات قادة الفتح عبر التاريخ لو تأملت: الزهد، انظر ذلك في وصف أمير المؤمنين وقائد الفتح الأول: عمر بن الخطاب، وقائد جيوشه أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما، والْحظه في شخصية نور الدين محمود بن زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، صانعَي الفتح الثاني وقائدَيْه، وفي شخصية شيخ المجاهدين في فلسطين الشيخ أحمد ياسين وغيرِه من القادة المخلِصين والأئمة العاملين، انظر ذلك في شخصيات هؤلاء واقرأْه في سِيَرِهم تجدْ ما يحفِّزُك للتشبه واللحاق!

- ففي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول طلحة بن عبيد الله رضي الله

(213) إحياء علوم الدين، 4/ 79.

عنهما: «ما كان عمر بن الخطاب بأولنا إسلامًا، ولا أقدمنا هجرة، ولكنه كان أزهدنا في الدنيا، وأرغبنا في الآخرة» [214].

وقد دخل عمر بن الخطاب على أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما فإذا هو مضطجع على طنفسة رحلِه متوسِّداً الحقيبة، فقال له عمر: ألا تُحدِث كما أحدث أصحابك، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا يبلِّغُني المقيل [215].

وكان نور الدين مقتصداً في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا [216].

وفي صلاح الدين يقول صاحبه ومؤرخ سيرته القاضي بهاء الدين بن شداد: «وكان الرجل إذا أراد أن يتقرَّب إليه يحثه على الجهاد، ولو حلَف حالف أنه- يقصد صلاح الدين- ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارًا ولا درهمًا إلا في الجهاد أو في الأرفاد، لصدَقَ وبرّ يمينه» [217].

---

(214) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (ج44/ ص287)

(215) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (ج7/ ص115/ ح34619)

(216) البداية والنهاية لابن كثير، 12/ 278.

(217) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، 2/ 222

أما الشيخ أحمد ياسين فقد رأى الناس زهده في الدنيا وإعراضه عن الترفُّه في الملبس والمسكن، يكتب أحد مرافقي الشيخ والمقربين منه فيقول: «الكثير من أحرار أمتنا العربية والإسلامية كانوا يقدمون هدايا شخصية للشيخ ياسين؛ لكنه يرفض أن يأخذها، ويدّخرُها لصالح المقاومة وخدمة المحتاجين»، ويذكر أن «أحد الأشخاص أرسل ملابس فاخرةً للشيخ ياسين؛ لكنه رفض لبسها وأرسلها للفقراء قائلاً: أنا لست أفضل منهم».

ويلفت إلى أن الشيخ رفض ترميم منزله المتواضع بحي الصبرة جنوبي المدينة، وما زال حتى اليوم نصفه من «الإسبست»، والنصف الآخر تم ترميمه بعد إصرار كبير من قيادة حركته؛ ليكون قاعة استقبال للناس والشخصيات الوطنية [218].

هذه طريقة القوم، أما نحن فنسأل الله السلامة والعافية!

....

....

....

....

....

....

---

(218) موقع صفا، فضل مطر، مقالة.

◆ الزهد في الرياسة من خصائص الأتقياء ◆

بقيتْ مسألة لا بدَّ من الإشارة إليها وهذا موطنُها، ولأْمهِّد لها بهذا البيان الموجز:

العاملون في الحقل الدعوي والمقدسي بل حتى في حقول القرآن والعلم الشرعي يُعانون كثيراً من تفشِّي ظاهرة الحرص على المناصب والتسابق للوصول إلى الرئاسات، صحيحٌ أن السياق سياقُ خير بالمجمل، لكن الحرص عليها والمسابقة إليها والتنافس عليها قد يُنتجه حبُّ الرئاسة المركوز في جبلَّة البشر، وقد عجبتُ من سلوكٍ شرسٍ لبعضهم في ساحةٍ دعويةٍ ما؛ سلوكٍ أشعرني أن حرصَه ذاك الذي نازع فيه أصحابه وفارقَ لأجله إخوانَه وحوَّل محبِّيه إلى شانئين، ومقرَّبيه إلى مبعَدين؛ ناتجٌ عن استفادة مالية خفية، فلما استقصيتُ- وقد بلغ النزاع أَوْجَهُ- لم أجد له استفادة مالية أبداً، حتى وقعتُ على مقالة تلخِّص دراسة عما سماه كاتبها: شهوة حب الرئاسة، المعدودة- وفق الدراسة- من أخطرِ الشهوات الآدمية، وأكثرِها تسبباً في سفك الدماء، وفيها: أن شهوتَي المال والجنس الأكثر شهرة هما دونها -عند التحقيق- في إثارة حرص النفس واستخراج عدوانيتها!

وتأمَّل هذين الأثرين من كلامَ أطبَّاء القلوب:

قال سُفْيَان الثوري: «الزهد في الرِّئاسة أشدُّ من الزُّهد في الدُّنيا».

وقال أبو عبدِ الله المَغربي: «مَن زهِد في نصيبِ نفسه من الرَّاحة، وزهد في العزِّ والرِّئاسة، ومنْ زهدَ في العِزِّ والرِّئاسة كُتِب اسمُه في ديوان الولاية»[219].

ولقد مرَّ بنا في مسير نشاطنا الدعويِّ والمقدسيِّ من الأمثلة التي تجعل من معالجة هذه الظاهرة ضرورة لا ينبغي إغفالها، فقد كانت السببَ في أكثر الأحيان في إثارة النزاعات بين إخوة الطريق وزرع العداوات بين الأحباب، وتعمَّقت إلى حدٍّ رأيْنا فيه نَيْلاً من الأعراض، وحرصاً على إيقاع أكبر قدر من الأذى في بعضهم، وانحلَّ عِقد الأخوَّة وسالت دماء الدعوة على أعين الجميع، وسالت معها دموع المخلصين على مصابهم في إخوانهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم الداهية الأخرى أن هذا الصفَّ المُعَدَّ للانتصارِ لدعوة الله ودينه، ولمواجهة الاحتلال الغاشم قد ينصرف عما أُعدَّ له لينشغل بالمواجهات الداخلية والاحتراب التنظيمي الأثيم!

(219) الزهد الكبير، 72.

وعبثٌ محاولةُ علاج هذه الظواهر بعيداً عن المحاضن التربوية ومسالك التزكية والتربية والتذكير بالله، فهذه مشكلة تربوية عميقة، ودليلُ جفافٍ روحيٍّ ومؤشرُ رقةٍ في الدين سوَّغت التجرؤ على اقتحام حمى الأخوة الحرام!

إن الزُّهد عند تشاحِّ النفوس علامةُ تربيةٍ عميقةٍ وإيمانٍ وبصيرةٍ ونفسٍ ترنو للمعالي ولا تلتفت إلى السفاسف والتوافه، وإن الخوض مع الخائضين والذوبان في جوِّ المشاحنات والاستغراق في معارك الصف الهامشية دليلٌ على نقيضِ ذلك، ولا يقنع القلب اليقِظُ بتأوُّلات المتماحكين وادعاءات المتنازعين الذين لا يَعدَمُ كلٌّ منهم ألف حجةٍ على صوابية موقفِه وحكمةِ تصلُّبه! والحكمةُ تدور عليها رحى التقدير، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة [269].

◆ الاستقلال المالي والاستقرار الاقتصادي ◆

مما يلزم السائر في طريقنا هذا أن يعمل على صناعة استقلاله الماليِّ ما أمكنه فإن الوظيفةَ أضيقُ سبل العيش كما قيل، واستقلالُ السائر في أعماله وعدم اعتماده في تحصيل قُوْتِه وقُوتِ عياله على ما يمكن أن يستعمله الخصوم في التضييق عليه وتوجيهه وفق مرغوباتهم أمر لازم لا يسع الزهد فيه! فإن عَمِل على ذلك أغلَق باباً خطيراً من الأبواب التي تتهدّد مسيره في العمل الدعوي أو المقدسيِّ، واعتيادُه الزُّهد والتقلُّل من الدنيا

صِمامُ أمانٍ به تكتمل الحلقة؛ فيعيش هادئَ البال مرتاحَ النفسِ ساكنَ الفؤاد، غيرَ عابئٍ بمحاولاتِ التضييقِ وحربِ الاقتصاد.

وحتى نكونَ واقعيين في ملامسةِ حياتنا؛ حريٌّ أن نقول قبل مجاوزةِ عتبةِ الموضوعِ إلى غيرِه:

إن الاستقرارَ الاقتصاديَّ للسائرِ في الطريق عنصرٌ مهمٌّ من عناصر انطلاقته في العمل وثباته في مواجهة الباطل وتفرِّغِه الذهنيِّ لممارسةِ الدعوة والمقاومة بأشكالها.

والزاهدُ حقاً مَن ملك المال فأنفقه على أعمال الدعوة المباركة التي يقوم بها بنفسه، فيجمع الله له بهذا بين حسنيين: عمل وجهاد بنفسه، وإنفاق وجهاد بماله، وذلك غاية الكمال!

وليتنبه السائر إلى أن لا تعارض بين هذا المعنى وبين ما قدَّمناه، وليتأمله في ضوء قول الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ النساء [134]، وليقرأ بعين قلبه الأثرَ: «من أصبح وهمُّه الدنيا شتّت الله تعالى عليه أمره وفرَّق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه ولم ينل من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله همَّه وحفظ عليه ضَيْعتَه وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة» (220).

(220) قوت القلوب، 1/ 406.

وكان الحسنُ كثيرًا ما يقول: «يا معشر الشَّباب، عليكم بالآخِرةِ فاطلبوها؛ فكثيرًا رأينا مَن طَلَبَ الآخِرَة فأَدْرَكَها مع الدُّنيا، وما رأينا أحدًا طَلَبَ الدُّنيا فأدرك الآخِرَة مع الدُّنيا» [221].

استحضارٌ وانتظار

المشاقُّ التي تحفُّ الطريق تستلزم قدراً كبيراً من التزوُّد بالصبر للمضيّ، والجنة محفوفة بالمكاره [222]، وسلعة الله غالية لا ينالها إلا الحقيق بها بعد رحمة الله وتوفيقه:

يا سلعة الرحمن لستِ رخيصة   بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس ينالها   في الألف إلا واحد لا اثنان
يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها   إلا أولو التقوى مع الإيمان

وقد قيل: مَن لَمح فجـر الأجر هان عليه ظلام التكليف! وإن العَضَّ على الجرح وابتلاعَ آلام الطريق وتتابعَ التضحيات لا يتأتّى إلا ببصيرةٍ ترى الآخرة رأي العين، ونفسٍ مُوقنةٍ تسعى لأجلها دؤوباً، وتُقدِّم لبلوغ الآمال فيها بلا استكثارٍ لمقدار البذل والتضحيات، وهو في كلِّ ذلك يحتسبُ ما يحتمله من مشاقٍّ وما يلحقُ به من أذى ويلحظ الأجر من الله،

(221) الزهد الكبير، 65.

(222) في الحديث: "حفَّت الجنة بالمكاره، وحفَّت النار بالشهوات" رواه مسلم، 2822.

وفي الحديث: «إِنَّهُ لَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ، وَلَا أَجْرَ لِمَنْ لَا حِسْبَةَ لَهُ »[223].

وهذا مَلْمَحٌ أساسيٌّ في السير إلى الله لا ينبغي أن يغادِر قلبَ السائر، والمُشغلاتُ كثيرةٌ؛ حتى من الطريق ذاته، إذ قد يَضيعُ هذا المعنى في النفس في خِضَمِّ اليوميات الإدارية وضجيجِ الفعاليات وبريقِ الكاميرات وتنافسِ إخوَةِ الطريق! فإن حصلْ زادت فرص الافتتان وانحرافِ البوصلة وضلالِ الأهداف!

إن العملَ الدعويَّ بأشكاله والعملَ لقضايا الأمة- وعلى رأسها قضية القدس وفلسطين- ضربٌ من الجهاد في سبيل الله في هذا الزمان الذي يُنافح هؤلاء فيه عن دين الأمة وهُويَّتها ومقدساتها، ويقفون على أهم الثغور الفكرية والحقيقية؛ يذبُّون العدوَّ الصائل ويحفظون عقيدة الأمة ودينها، وينوبون عنها في وجه عواصف التهويد والتغريب والشذوذ والإلحاد! وإذا كان كذلك فحريٌّ بهم إذاً أن يستحضروا نية الجهاد وأن يضعوا نصب أعينهم ما ينتظر المجاهدين من الأجر العظيم، تأمل قول الله تعالى يصف حال المؤمنين في ممارساتهم الجهادية:

(223) رواه البيهقي في سننه (ج1/ ص76/ خ179).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ التوبة [120].

ومن أعظم ما ينبغي استحضاره كذلك أجر التعليم والرباط والشهادة وما أعده الله تعالى لهؤلاء من الثواب العظيم وما يحوطهم به من اللطف الخفيِّ، وما يجدونه في حياتهم وأموالهم وأولادهم من البركات التي لا تخطئها العين!

إنهم في سعيٌ دؤوب يحدوهم وعدُ الله بالنعيم المقيم، قلوبهم ترتقب ذلك النداء يوم اللقاء: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ الزخرف [68]! إنه اليوم الذي يأمنون فيه بعد ذلك الخوف ويرتاحون بعد التعب ويفرحون بعد الحزن ويترجَّلون عن خيل الرباط والجهاد والعمل والدعوة! ألَا فليهنأوا!

القدوة الحسنة والصحبة الصالحة

هذه المنزلة من المنازل لا بدَّ لسالك الطريق منها بحيث تصاحبه طولَ سيره، لا يَسَعُه تركُها إلى غيرها، فالسفر طويل والعقبة كؤود والزاد قليل ووحوش الفتن والمضلَّات وافرةٌ وكاسرة، ولمّا كان الأمر كذلك لم يكن بدٌّ من رِفقةٍ آمنة؛ فيها القدوةُ الماثلةُ والصحبةُ التي تذكِّر بالخير وتحثُّ عليه، والأمرُ كلُّه في ثنايا قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ العصر [3]، فالتواصي بالحق وبالصبر ضرورةٌ تلك الطريق الطويل الشَّاقِّ!

ولو اسْتحضرنا الحالةَ التربويةَ العامةَ لأصحاب رسولِ الله صلى الله عليه وسلم- الجيلِ القرآنيِّ الفريد- لسجّلنا ملحظين:

الملحظ الأول — مثول القدوة الصالحة

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بينهم المَنْهَلَ الروحيَّ الذي يرتوون منه، والنورَ الذي يقتبسون منه، وكان أحدهم بمجالسته صلى الله عليه وسلم تكاد تصافحه الملائكة ويرى أهل الجنة فيها يتنعَّمون، وأهلَ النار فيها يُعذَّبون، يرى الوحيَ يتنزَّل على القلبِ الشريف فيزدادون إيماناً،

ويتْلُون القرآن بعد سماعه منه غضّاً طرِيّاً، فلْنقرأ على مهلٍ هذه الحوارية الثلاثية بين صحابيين فقيهين ثم بينهما وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم:

عن أبي ربعي حنظلة بن الربيع الأسيدي قال: لقيني أبو بكر رضي الله عنه فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة! قال: سبحان الله ما تقول؟! قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكِّرنا بالجنة والنار كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، قال أبو بكر رضي الله عنه: فوالله إنا لنلقى مثلَ هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده، لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، لكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات» [224].

(224) رواه مسلم في صحيحه (ج1/ ص2061/ ح2750).

وفي الحديث من الملاحظ ما يستوجب الوقوف والتأمل، منها:

تلك الصحبة الصالحة الْمُذكِّرة بالله، تأمَّلْ تلك النفسَ الشفافة لحنظلة، كيف أرَّقَهُ وأزعج قلبَه ذلك التغيُّر الذي وجده بين الحالين؛ حالِ كونه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحالِ مفارقته له! وكيف استجاب أبو بكر بشفافيةٍ لملحظ حنظلة رضي الله عنهما! لقد الْتقى القلبان على طريق واحد، وحملا هَمًّا واحداً، وأشغلَهما هدفٌ كبير، وأقلقَهما ما وجداه في قلبيهما من ذلك التغيُّر؛ حتى خشيا أن يكون ذلك نفاقاً!

أما الثـاني فهو التجـاؤهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو المرشدُ والمربي والموجِّهُ، فقد دفعهما إليه وذهب بهما ليبثَّا إليه صلى الله عليه وسلم ما يجدانه: يقينٌ تامٌّ بأن الجواب لديه، وأن سكونَ قلبيهما إنما هو في كلماته المباركة!

إن أحدنا إذا جالس أحد الأتقياء العارفين والعلماء الربانيين خرج من عنده وقد امتلأ قلبه إيماناً وارتقت روحه محلِّقة بعيداً عن الأرض وشهواتها وهمومها، فكيف كان حال الصحابة وهم يجلسون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسكبون كلامَه العذبَ في آذانهم، ويملأون بالإيمان الذي جاء به قلوبَهم!

ولأجل هذا المعنى- والله أعلم- كان فضلُ الصحبة أعظمَ الفضائل كما قال الإمام النووي رحمه الله: «وفضيلة الصحبة- ولو لحظة- لا يوازيها عمل، ولا تُنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بالقياس، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» [225].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل؛ لمشاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما من اتفق له الذبُّ عنه والسبق إليه بالهجرة أو النصرة أو ضبط الشرع المُتلقَّى عنه وتبليغُه لمن بعده، فإنه لا يعدله أحدٌ ممن يأتي بعده، لأنه ما مِن خصلة إلا وللذي سبق بها مثلُ أجر من عمل بها مِن بعده، فظهر فضلهم» [226].

إن مجرَّد رؤيته صلى الله عليه وسلَّم كانت كافية لإحداث جُرْعةٍ إيمانيةٍ هائلةٍ لا تَعدلُها أعمال اللاحقين، فكيف بما هو فوق ذلك؟! وإن كان هذا صحيحاً فهو دالٌّ على أثر المربِّي على قلب السائر في طريق الإيمان عموماً، وعلى أهمية وجوده في حياة القاصد الموفق!

---

(225) شرح النووي على مسلم، 93/ 16

(226) فتح الباري، 9/ 7

وأما السائر في الطريق إلى القدس والعاملُ في حقول الدعوة فهو شديد الحاجة إلى شيخٍ مربٍّ يذكّره بالله ويدلُّه عليه ويأخذ بيده إليه، ويؤدِّبه بالآداب النبوية ويُنير قلبه بالإشراقات الرَّحمانية، ويضعُ له معالمَ الطريق وَفق المنهج القرآني والهديِ النبوي، ويرقِّق قلبه إذا قسَّاه الانغماس في التفاصيل، ويلوِّح له بمعالم الإخلاص إذا تسلَّلت إلى قلبه الأسقامُ، ويحتضنه في المحضن التربويِّ الدافئ الذي يَهلك في البُعد عنه الهالكون!

ولا ينبغي للسائر -في الوقت نفسه- أن يَهَبَ هذه المنزلةَ لكلِّ مدَّعٍ، إنما ينبغي أن يبحث عن الشيخ المربّي والعالم الرباني حتى يجده، فيحطَّ الرحل ببابه ويلزمه، فيدرسَ على يديه العلم، ويأخذ القرآن، وينظر الهديَ النبوي، ويتعلمَ السمتَ والأدب، ويتلقى أنوار الإيمان، قال الشيخ سعيد حوى: «من خلال النصوص التي ذكرناها ندرك بعض صفات الولي المرشد أو الوارث الكامل أو المرشد الكامل أو الشيخ، فهو: ولي مرشد حكيم، داعية إلى الله، معلِّم لآيات الله، معلم للكتاب والسنة، قادر على تزكية الأنفس، قادر على نقل القلب البشري إلى آفاق الاستشعار لكثير من أمور الغيب، قادر على النقل إلى مقامات الإسلام، وهذا كله يقتضي أن يتجمع فيه علم معينٌ وعمل معين وحالٌ معين؛ ليكون معلماً مربياً من خلال القدوة والتعليم بآن واحد، وعليه أن يتحقَّق بصفات الصادقين التي من جملتها الجهادُ بالنفس والمال عندما يتعيَّنان عليه، وقد رأينا أدلَّتها من قبل، هذه قضايا لها حكم البديهيات في أن الوارث الكامل ينبغي أن

يتحقق بها لظهورها في النصوص ووضوحها..»[227].

الملحظ الثاني وُفور الصحبة الصالحة

الأخوَّةُ الإيمانيةُ والصحبةُ الصالحةُ هي المُنعِشةُ للإيمان في القلوب، المُذكِّرة بالله الحاثَّة على الطاعة، الناهية عن المعصية والمُخجِلةُ منها، هذا ما وصفه لنا العارف المُلهَم الحسن البصري حين قال: «إخواننا أحبُّ إلينا من أهلنا وأولادنا؛ لأن أهلنا يذكِّروننا بالدنيا، وإخواننا يُذكِّروننا بالآخرة»[228].

وهذا الاجتماع الأَخويُّ الدافئ هو نعمة يمنُّ الله تعالى بها على المؤمنين: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ آل عمران [103]، وشكرُ النعم إنما يكون بحسبها عملاً بما لأجله كانت وما لأجله وُهبَت، فالأُخوَّةُ سبيلٌ إلى تجويد عبادة الله والاجتماع على ذكره: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ طه [29-34].

قد كان بعضهم يحملُ بعضاً، شعارُهم في ذلك: «اجلس بنا نؤمن ساعة»[229]، وكان أحدهم إذا رأى أخاه الربانيَّ ذَكَر الله واستنار قلبُه

(227) تربيتنا الروحية، 186.

(228) إحياء علوم الدين، 2/ 176.

(229) فتح الباري، 1/ 63، وإسناده صحيح.

ونشطت همَّتُه، وكم من أقوام تحيى القلوب بذكرهم وكم من أقوام تموت القلوب برؤيتهم! نجح القوم في إقامة بيئة إيمانية تشجِّع على الخير وتثير مكامن الإقبال عليه، وفي بناء مجتمعٍ يتسابق للفداء ويتنافس على الخير.

والأخوة سبيلٌ متعيِّنٌ إلى مواجهةِ الباطل الْمُجْتَمِع الْمتوالي: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾ الأنفال [73]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾ الصف [4]، إن بنيان هذا الصف لا يمكن أن يكون مرصوصاً قادراً على المواجهة إلا بتلاحم القلوب وتعانقها وائتلافها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب!

وعلى عكس ذلك ما يحدث في البيئة الفاسدة المثبِّطة عن الخير والمقرِّبةِ للشرِّ والْمُدلِّية للمعصية والمهوِّنة من شأنها المشغولةِ بالدنايا من الاهتمامات والأهداف، والصحبةُ المبنيةُ على غير الحقِّ والصدقِ والتعاهد على الموافاة على الإيمان صحبةٌ منقطعة، والخُلةُ القائمةُ على المعصيةِ خلَّةٌ مؤقتة، آيلةٌ إلى عداوةٍ وحنَقٍ وبغضاء: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ الزخرف [67].

◆ أساس الأخوة شعورٌ دافئ ◆

وأساسُ الأخوة شعورٌ قلبيٌّ دافئ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ الحجرات [10]، وإن الجزاء لمن جنس العمل، فكأن في الآية إشارة إلى أن رحمة الله تغشاهم كما تغشَّاهم التراحمُ وعمَّهم وكان أساسَ ترابطهم.

هذا الشعور القلبي هو لُحمة التماسك التي تحوِّل الصف إلى بنيان مرصوص، قادرٍ على المواجهة والانتصار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ الصف [4]، وبمثل هذا الصف القوي المتماسك تُبلَّغ رسالةُ الله وتُتخطَّى عوائقُ الطريق وينجو القوم من الفتن، فالذئب إنما تأكل من الغنم القاصية كما في الحديث[230]، ويُستنزل النصر وتُحرَّر المقدسات، وهل لجسدٍ ضعيف مُنحَلِّ الأعضاءِ أن يقاوم عدوًّاً عاتياً كثيرَ الأذى؟!

وفي الحديث: «مَثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسَّهَر والحمَّى»، هذا هو الانعكاسُ الإجرائيُّ لمشاعر القلوب، فالأخوةُ إذاً ليست مشاعرَ باردةً

(230) صحيح: أخرجه أبو داود (547)، والنسائي (847).

ولا ضحكاتٍ متبادلة ولا مصالح دنيوية قريبة ولا مجرَّدَ تَوافُقِ طِباع! إنما هي شعور عميق في القلوب يحمل- بلا تكلُّف- على مشاركة الألم والأمل والإصابة بالمُصاب: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه»، «إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى» (231).

إن للأخوة حقوقاً تجب بنفس الإيمان، «والتزامُها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج، والمعاهدةُ عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله، وهذه ثابتةٌ لكل مؤمن على كلِّ مؤمن وإن لم يحصل بينهما عقد المؤاخاة» (232).

هذا الشعور العميق الذي انعكس إجراءاتٍ عمليةً هو ما شكَّل ذلك المجتمع النبويَّ النموذج، الذي نجح في مهمة الدين، وحاز مجد الدنيا وفلاح الآخرة، والعبقريةُ النبوية ولعله الوحيُ المسدِّد هو ما اقتضى إعلان وثيقة المؤاخاة فور بداية تشكيل المجتمع الإسلاميِّ في المدينة المنوَّرة، إنه أول عقد اجتماعيٍّ يقرُّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وإذا نظرتَ في المحملِ الجدِّ الذي اتخذه الصحابة في هذه المؤاخاة أدركتَ سرَّ قوة الجسم

---

(231) رواه البخاري في صحيحه (ج1/ ص12/ ح13).

(232) رواه البخاري (ج8/ ص10/ ح6011)

الإسلامي الصاعد الذي زلزل عروش الباطل في الأرض وأزال جبروت الطغاة وحرَّر الدنيا من عبودية البشر وتألُّههم على البشر!

لا أريد أن أنحى بالموضوع إلى المنحى الفكريِّ؛ فإنه ليس مقصوداً من هذا الكتاب، وإنما أريد لأبينَ وجه اختيارنا هذه الخصلة من خصال الإيمان في كتاب تزكية خاصٍّ بالعاملين للإسلام وللقدس ولقضايا الأمة.

آفاتُ الاجتماعِ ودواخلُ التآخي

ولا بدَّ من التـذكير هنا بما أشرتُ إليه في مقدِّمة الكتاب من وجود عوائق في طريق السائر؛ بعضها مصدره هذا الاجتماع بين إخوة الطريق! لا تعجب؛ إنما القوم من البشر، تتسرَّب إلى قلوبهم نوازع التشاحِّ، وقد يدبُّ بينهم الخلاف وتتضارب وجهات النظر!

قد يتنافس القوم على نيل سلطةٍ ما حتى وإن كانت دعوية أو رمزية! وقد يتسابقون على مكسب ماديٍّ يقتات عليه بعضهم مقابل التفرغ لأداء بعض المَهَمَّات التي لا بدَّ منها، وقد تتداخل الصلاحيات وتشتجر الآراء فتَبِيْنُ قلوبهم عن ائتلافها أو يفرِّقهم اختلاف في أمر إداريٍّ محض، وقد تتعارض اتجاهات تفكيرهم في مناهج العمل لخدمة الدعوة أو لخدمة القدس، فينزغ الشيطان بينهم ويهوِّل خلافاتهم!

- تزكيةُ النفوس وترويضُها على الانقياد لمقتضى الشرع جزءٌ مهمٌّ من علاج مشكلات الطريق.
- ووضوحُ الهدف والانغماس في الإنجاز يرتفعُ بالموكب الكريم عن احتواش أشواكِ الهوى.
- والتجردُ من الحظوظ والانتصارُ على الرغائب يحسم مادة المشكلات في ميدان العمل.
- والإخلاص لله حجابُ القلوب عن مطالعة نَهَمِ النفوسِ الأمارة!

إلا أن هناك نوعاً آخر من المشكلات التي يُنشئها الاجتماع؛ تنبع من:

- اختلاف طبائع البشر.
- وتفاوت عقولهم.
- وتعدد زوايا نظرهم.
- وتنوِّع بيئاتهم.
- واختلاف بِنياتهم العِلْميةِ والثقافية.

هذا أمرٌ- إذاً- لا يمكن اجتنابه؛ إذ هو من طبيعة التكوين الآدميِّ والاجتماعِ البشريّ، نعم لا يمكن اجتنابُه، لكن لا بدَّ من تهذيبه والسيطرةِ عليه وحسنِ إدارته، وإلا أَكَلَ جرادُ الجِبِلَّات نتائجَ العمل وأحرقتْ نيرانُ التنازعِ بركةَ البذل!

وأخطرُ ما في الأمر أن تتسع الفجوة بين الإخوة، وتتحوَّل دماء الدعوة إلى ماء؛ ماءٍ مُراقٍ في زوايا اللقاءات وزِقاق الاجتماعات وجلسات الأُنس، ويتحوَّلَ مع التهويل والتجييش إلى تدارؤٍ للاتهامات العريضة؛ إنْ في المنهج أو في النوايا وصولاً إلى الأعراض! وهنا فلْتُقرَعْ نواقيسُ الخطر، ولتبكِ البواكي ولْتعتصر الأكباد ألماً!

فقد تبخَّرتْ دموعُ الخشوع التي سالت في محاضن التربية، وجَمحتِ النفوس التي طالما عَقَلَها الإيمانُ عن الولوغ في المحرَّمات والانطلاقِ في الشهوات؛ جَمَحَتْ لِتلِغَ في دماء الدعوة المقدسة، ولتقع في أعراض إخوَةِ الطريق ورفقاء الدرب وشركاء المشروع! حقاً ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾ الإسراء [53]!

ضاعت من بين أيدي بعضهم الكثيرُ من الحقائق:

- حقيقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ الحجرات [12]، فصار الأصلُ عندهم أن يجنَحوا نحو أسوأ الظنون بدعوى اليقظة وقُبْحِ البلاهة!
- وحقيقة: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، فصار أحدُهم يتتبَّع سقطات أخيه، يبحثُ له عن زلَّة يخاصمُه بها ويضطره إلى أضيق الطريق.
- وحقيقة: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾؟! فنال بعضهم من لحوم بعضٍ أمواتاً وأحياء، وبدعوى: أن هذا من التعديل والتجريح، وقالوا: هذه سنةُ العلماء في بيان حال رواة الحديث! فأوغلوا- ولم يوغلوا برفق- في أعراض إخوانهم، وصارت بعض مجالسهم مجالسَ غيبة واستطالةٍ على شركاء المشروع!
- وحقيقة: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ المائدة [54]، وحقيقة: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ الحجر [88]، فغفلوا عن عمقِ هذه الحقيقة القرآنية الدعوية، والفلسفة النفسية والاجتماعية التي ينبني عليها مشروع الدعوة وبنيان الأمة: صاروا إلى بأسٍ بينهم شديد، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى قريب مما وصف الله تعالى به اليهود: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾ الحشر [14]! فترى بعضهم داعيةً إلى الانفتاح مع المخالفين منغلقاً مع إخوانه متشنجاً قاسياً عنيفاً! وتحوَّلت اللُّحمة بينهم إلى قسوةٍ خَلَفاً للرحمة التي تعلَّموها في محاضن التربية ورضعوها مع أوائل ما تعلموه من هذا الدين العظيم!

فأيُّ شكر لنعمة الأخوَّة بقي بعد ذلك: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ آل عمران [103]؟!


نصائح إجرائية لتؤتي الأخوة أُكلها المأمول:

- معالجةٌ نفسيةٌ لمفهوم الأخوةِ الإيمانيةِ وأساسِها، وعلمٌ بفضائلها والمرغِّبات فيها، وقراءة في سير الصالحين وفي مسلكهم مع إخوانهم وفي طريقتهم مع خلَّانهم، وتكرارُ هذا بين الحين والآخر.

- التعاهد على برنامج الطاعات والتواصي به، وأذكر أني سمعت أحد إخواني الطيبين من أهل القرآن يتكلم عن مجموعة أنشأها هو أصحابه وأقرباؤه للتذكير بتلاوة الوِرد اليومي من القرآن، بحيث يكتب من أنهى منهم ورده كلمةً واحدة فقط تدل على ذلك، فيقول: تم، -مثلاً- أو ما أشبه، وعلى طريقته فعلنا مع بعض إخواننا، وقد حصل لنا من فوائد ذلك خير كثير، يتذكر فيه من نسي، وينشط فيه من كسل، ويتدارك فيه من قصَّر، ولا كلفة ولا مشقة ولا حرج.

- تنظيم النشاطات الإيمانية في يوم أو أكثر من الشهر، وقد نبهنا على ذلك في موضعه من الكتاب.

- اللجـوء إلى المرشـــدين والمربين، ومحاورتهم حول مشكلات الاجتماع وما وقع بين إخوة الطريق من تنازع وتشاحٍّ، وتظهر أهمية هذه النقطة في كون كثير من الخلافات اليوم بين أبناء الطريق تتفاقم وتتحول إلى استقطابات داخل الصف تكدّر الصفو وتفسد الود وتضطرب معها إنتاجية العمل، أو يذهب المتنازعون فيها إلى الحلول الإدارية المحضة، وتُشكَّل لجان التحقيق وتقام المحاكمات! في حين كان اللجوء إلى الشيخ المربي كافياً عن كلِّ ذلك بل هو أولى وأفضل؛ من حيث إنه في الغالب يقود إلى صلحٍ تتصافى فيه القلوب وتتعانق فيه الأرواح من بعد اختصام.

- عدم الاقتصار على اللقاءات الإدارية والأعمال الروتينية، بل الخروج عن ذلك إلى بناء علاقة اجتماعية تقوِّي تلاحم الفريق وتزيد من إنتاجيته، وقد انتهى النُّظَّار في علمِ الإدارةِ إلى أن صناعةَ الأجواءِ الاجتماعيةِ الإيجابية بين الموظفين مما يزيد إنتاجية الشركة، وههنا كذلك بل أولى.

- أن يحرص السائر على إظهار حبِّه لإخوانه وإشاعةِ الأجواء الوُدِّية الدافئة، ففي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أنَّ رَجُلاً كان عند النبيَّ صلى الله عليه وسلم فمَرَّ رجلٌ به، فقال: يا رسول الله، إنِّي لأُحِبُّ هذا، فقـال له النبـيُّ صـلى الله عليـه وسلـم: «أَأَعْلَمْتَهُ؟» قال: لا. قال:

«أَعْلِمْهُ»، فلحِقَه، فقال: إِنِّي أُحِبُّك في الله، فقال: أَحبَّك الذي أحببتني له [233].

◆ الاستكثار من الأعمال الجالبة للودِّ الغارسةِ للحبِّ بين الإخوة، من مثل:

- إفشاء السلام، كما في الحديث: «هل أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [234].
- ومن مثل: الابتسامة التي تفتح القلوب وتُشعر بالود وتبدِّد غيم التباغض، ففي الحديث: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تَبَسُّمُك في وَجْه أَخِيك لك صدقة» [235].

قال ابن بطَّال: فيه أنَّ لقاء النَّاس بالتَّبسُّم وطلاقةِ الوجه من أخلاق النُّبوة، وهو منافٍ للتكبُّر، وجالبٌ للمودَّة [236].

وعن أبي ذر رضي الله عنه ـ قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْـمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ» [237].

---

(233) صحيح: رواه أحمد في مسنده (ج20/ ص46/ ح12591).

(234) رواه البخاري في صحيحه (ج3/ ص29/ ح1412).

(235) صحيح: رواه الترمذي في سننه (ج4/ ص339/ ح1956).

(236) شرح ابن بطال على صحيح البخاري (ص5/ 193)

(237) رواه مسلم في صحيحه (ج4/ ص2026/ ح2626).

وقال ابن علان في دليل الفالحين: «أي بوجه ضاحك مستبشر، وذلك لما فيه من إيناس الأخ المؤمن ودفع الإيحاش عنه وجبر خاطره، وبذلك يحصل التَّأليف المطلوب بين المؤمنين»[238].

وقال أيضًا: «أي: متهلِّلٌ بالبِشْر والابتسام، لأنَّ الظَّاهر عنوانُ الباطن، فلُقْيَاه بذلك يشعر لمحبَّتك له وفرحك بلُقْيَاه، والمطلوبُ من المؤمنين التوادُّ والتحابُّ»[239].

وقد كان هذا خُلقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران [159]، ففي الآية:

١. أن هذا اللِّين للمؤمنين في الخلُق النبوي كان نفثةً من رحمة الله

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وخلُقاً ربانياً وهبه الله الموفَّقين من عباده، و«الراحمون يرحمهم الله»[240].

---

(238) دليل الفالحين، 1/260

(239) دليل الفالحين، 3/125

(240) صحيح: رواه أحمد في مسنده (ج11/ ص33/ ح6494).

2. وفيها من فقه الدعوة هذا اللين مظنة اجتماع الناس على الداعية واستجابتهم له، وهذا من فضل الله على الداعية نفسه بأن يكون سبباً لاهتداء الناس ودلالتهم على الله، وهو من فضل الله على الناس بأن يهيئ لهم داعية حسنةً طباعُه لينةً أخلاقُه؛ يجتمعون عليه ويرافقونه في الطريق إلى الله.

3. وفيها كذلك من فقه الدعوة أن الغلظة والفظاظة مَدْعاةٌ لانفضاض الناس من حول المرء وإن كان حامل خير! وكم رأينا من خيِّرِينَ نَفَرتْ قلوبُ إخوانهم عنهم وانفضوا من حولهم لقسوةٍ فيهم وشِدةٍ وسوءِ خلُق! وقال هندُ بن أبي هالة رضي الله عنه: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الْبِشْرِ، سهل الخُلُق، لَيِّنَ الجانب» [241]، وقال عبد الله بن الحارث رضي الله عنه: «ما رأيت أحدا أكثر تبسّما من رسول الله صلى الله عليه وسلم» [242].

وتصف عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقول: «كان ألين الناس، وأكرم الناس، وكان رجلاً من رجالكم إلا أنه كان ضحاكًا بسّامًا» [243].

(241) رواه الطبراني في المعجم الكبير (ج22/ ص155/ ح414)

(242) حسن: رواه أحمد في مسنده (ج29/ ص245/ ح17704)

(243) رواه ابن شبة في تاريخ المدينة (ج2/ ص637)

فليقتدِ المحبون بحبيبهم، وليجعلوا من طريقته طريقة لهم!

ويا أيها الدعاة، يا مَن أقامكم الله هذا المقام الشريف..

أيها السائرون في الطريق إلى التحرير والتغيير نيابة عن الأمة، وريادةً لأبنائها المخلصين:

عودُوا إلى رشدكم وتعانقوا، دعوا عنكم نزغات الشيطان ونفثه وتهويله، أصغوا قلوبكم لنداء الإيمان، ولا تسفكوا دماء الأخوة المقدسة في زقاق المشاحَّات..

أغيظوا عدوَّكم باجتماعكم وتجديدِ تعاهدكم على المضي، وتلاحمِ صفِّكم وقوةِ بنيانه وتخليتِه عن الثغرات والفجوات بين لبناته..

فلتعُد هذه القلوب إلى رشدها؛ يوم تعلمتْ معاني الأخوة وعاشتها في حلقات المساجد وتِلْوَ الصلوات، وفي سجدات المحاريب، وفي معانقات الأفراح.. وفي دموع الخشوع وتسابيح الأُفول وآمالِ الوصول!

الخاتمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهِره على الدين كله، والصلاة والسلام على رسوله الخاتم ونبيِّه المربِّي والمعلِّم، وبعد:

فهذه جولةٌ لا يمكن أن أصفَها بالكافية ولا الشافية! لكنَّ حسبي أنها تَفتح البابَ على المساحات الزاهية التي لا ينبغي أن تُهجَر، وتدلُّ بها ورد فيها على ما لم يَرِد، وتكشفُ بها رأيتَه من معالمها على ما لم تره، وتضع الخُطا على الدرب، وتحدِّدُ الاتجاهَ العامَّ الذي ينبغي أن يَستعْصِمَ به السائرونَ إلى الله تعالى في طريق القُدس، أو في طريق نهضة الأمة وتغيير حالها إلى الخير الذي هي أهله، وإلى إعادتها نحو حمل الراية التي لا يحملها غيرها، ولا يسعُها تركها: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ آل عمران [110].

وإنَّ كلَّ محاولةٍ في هذا الاتجاه لا تحملُ حقائقَ العبوديةِ في أُصولِ دعوة حريٌّ أن لا تصل إلى مبتغاها، وحقيقةٌ أن لا تُوَفَّق في سعيها، والقلوب التي يتشكَّل منها سيل الجُنْد الهدَّارُ قلوبٌ سليمة مؤمنة عاملة بالإيمان، مقبلةٌ على الآخرة، زاهدة في الدنيا، خاشعة يملؤها النور، ويحدوها الطموح في وراثة جنة السرور والحبور!

وإن أصحاب هذه القلوب هم جند الله الكُمَّل؛ رهبان الليل وفرسان النهار، أصحاب الأوراد والأذكار، القائمة أقدامهم في محاريب العبودية؛ يذرفون الدمع، ويرفعون أكفَّ الضراعة متبتلين، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار!

عنايتهم بقلوبهم أعظم من عنايتهم بسواها! كيف لا يكون ذلك وحالُ هذه القلوب هو الفيصل بين الغرق والنجاة؟! «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»، فأقبلوا على قلوبهم يفتشون ما فيها من أسقام ويعكفون على تطلُّب الدواء، ويتعاهدونها بالصلاح والسلامة والارتقاء، يسألون الله تعالى في كلِّ ذلك العون والتوفيق والفوز، ذلك الفوز العظيم.

صفُّهم صفٌّ متلاحمٌ مُتراصٌّ، تجدُ فيه المودة وافرة، وترى فيه الرحمةَ في الابتسامة والكلمة والموقف، وقد يعتريهم ما يعتري البشر، فإنما هم منهم! وقد يفْتُر أحدهم أو يضعف، أو يَدخل نفسَه شيءٌ يعكِّر الصفو، أو ينزغ الشيطان بينهم في كلمة أو اختلاف، لكنْ شتَّان بينهم وبين من لم تهذِّبه أخلاق القرآن، ولم تشدَّه جواذبه، ولم يَرْوَ من نهر النبوة العذب، ومَن لم تطالعْ قلبَه أنوارُ المعرفة ولم تتدفق على قلبه سيول اليقين!

وبعد مرة أخرى:

فمع نهاية ما أكتبه من هذا الكتاب أُعلنُ عن قصوري عن رتبة أكثرِ ما كتبتُ، حتى لا يتوهَّم قارئ أني أدَّعي بلوغ المنشود في الموصوف في صفحاته، وإني أستغفر الله العظيم وأتوب إليه، وأسأله أن يبلغنا الآمال فيما يُرضيه.

ثم مَن قرأ كتابي هذا فاستفاد نوع فائدة أو لمعتْ فكرةٌ في قلبه فأيقظت خيراً فليحمد الله أولاً وأخيراً، فالقلوب مِلكه والتوفيق منه والهداية عليه، وللعبدِ الفقير على القارئ حقُّ الدعاء والاستغفار، ومَن لم يجد فيه من فائدة ولم يرَ فيه ما يستحقُّ عناء القراءة فليدعُ لكاتبه كذلك وليستغفر له؛ فلعله حِيلَ بين كلامه وبين القلوب بتقصيره وذنبه وخِلْوِه عن كثير مما نشده في الكلام!

هذا، وأسـأل الله تعالى أن يرحم ما بي من الضعف ويجبُر ما بي من الكسر، وأن يصلحني ويصلح بي؛ إنه الكريم الرحيم الودود، والحمد لله رب العالمين!

وكتبه الفقير المقصر:

رأفت المصري

31 ذو الحجة من عام 1443هـ، الموافق 21 تموز عام 2022م.

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس